أبو هلال العسكري

ومقاييسه البلاغية

تأليف

بدوي أحمد طبانه

المدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

القاهرة

١٣٧١هـ — ١٩٥٢م

الثمن ٣٥ قرشاً

مطبعة أحمد مخيمر بشارع فاروق تليفون ٤٧١٩٣

أبو هلال العسكري

ومقاييسه البلاغية

تأليف

بدوي أحمد طبانه

المدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

القاهرة

١٣٧١هـ — ١٩٥٢م

للمؤلف

معروف الرصافي :

دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية

الطبعة الأولى : مطبعة السعادة — القاهرة ١٩٤٧ (نفد)

أدب المرأة العراقية :

الطبعة الأولى : مطبعة العالم العربي — القاهرة ١٩٤٨

أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية :

الطبعة الأولى : مطبعة مخيمر — القاهرة ١٩٥٢

نهضة الأدب في العصر الحديث :

(بالاشتراك مع الأستاذ محمود ابراهيم)

الطبعة الثالثة : مطبعة الزمان — بغداد ١٩٤٧ (نفد)

تحت الطبع :

خريدة القصر ، وجريدة العصر ، للعماد الأصفهاني :

تحقيق ، وشرح ، وتعريف

الإهداء

إذا لم يكن بد من الاهداء ،
فالى أحق الناس بهذا الاهداء ،
أطفالى: بهجت ، وبسام، وبتول
الذين ضننت عليهم بالوقت
الذى أنفقته فى هذا العمل . . .

فهرس

أبو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية

مراجع البحث ٧
تصدير ٩
تقديم :
البلاغة بين التراث العربى ١٣
المنهج العلمى فى نقد الأدب ١٥
حملات على البلاغة العربية ١٧
الفصل الأول : أبو هلال
عسكر مكرم ، أبو أحمد وأبو هلال ٢١
حياة أبي هلال ٢٥
أساتذته ، ثقافتـــه ، معنى الأدب ، آثاره ٣٠
كتاب الصناعتين ، ديوان المعانى ٤٠
تحقيق نسبة رسالة التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم إلى أبى هلال ٤٤
شعره ونماذج منه ٤٦
الفصل الثانى : النقد والبلاغة قبل أبى هلال
تراث الأدب العربى ، ومنزلة الشعر منه ٤٨
النقد عند الجاهليين والإسلاميين وعيوبه ٥١
ابن سلام ، وكتابه « طبقات الشعراء » ٥٥
الجاحظ والبيان العربي ٥٩
ابن قتيبة وثورته على أحكام القدماء ومحاولته التجديد ٦٠
ابن المعتز وعلم البديع ٦٣
قدامة والأسلوب العلمى فى نقد الأدب ٦٤

صدى المنهج العلمى (الآمدى والقاضى الجرجانى) ٦٥
بين النقد والبلاغة ٦٩

الفصل الثالث : منابع بلاغته

تمكنه من علمى الرواية والدراية ٧٢
إفادته من البيان والتبيين ٧٤
بديع ابن المعتز وولوع أبى هلال بالصناعة ٧٥
متابعته لقدامة ، بينه وبين ابن قتيبة ٧٦
تأثره بصاحبى الموازنة والوساطة ٨١

الفصل الرابع : منهج أبى هلال

مدارس النقد ومناهجه : اللغويون والنحاة والمتكلمون ٨٨
مثل لتلاقى هذه المذاهب عند ابن قتيبة ٩١
الأهداف التى رمى إليها أبو هلال : إعجاز القرآن ، الأحكام الأدبية ٩٥
رأيه فى أحكام السابقين ، الحاجة إلى منهج جديد ٩٧
نفوره من مذهب المتكلمين ، سببه ، حقيقته ، رأى عالم معاصر ١٠٠
أمثلة لأسلوبه الكلامى . وأسلوبه اللغوى ١٠٥
عزوفه عن المنهج التاريخى ١١١
النقد التفسيرى ، والمنهج التعليمى ، منهج التصنيع ١١٣

الفصل الخامس : المقاييس

كلمة فى وضع المقاييس للفنون ، الفن والصناعة ١٢٣
مقاييس الألفاظ : نظرية (مدار البلاغة اللفظ وتحسينه) ١٢٦
مناقشة هذا الرأى ١٢٨
طبقات الألفاظ : الوحشى ، المشترك ١٣٣
السهل والجزل : المقبول منهما والمردود ١٣٧
تحسين الألفاظ — السجع والازدواج ١٤٢

العدول عن جهة الاستعمال ، الشاذ ، الضرورات ، التقديم والتأخير ... ١٤٥
مقاييس المعانى : التقليد والتجديد ١٤٨
الغلو ، الوحدة (التضمين) ، الإطالة ١٤٩
صحة المعانى ١٥٣
مقاييس لأغراض الشعر : المديح ، الهجاء ، الوصف ، التشبيب ١٥٦
معانى الشعر : الحقيقة والخيال ، التشبيه : مقاييس استحسانه ١٦١
الاستعارة : الاستعارة المصيبة ، مقياسها ، الاستعارة الرديئة ١٦٣
السرقات : رأيه فيها ، توارد الخواطر ، ضروب الأخذ ١٦٥
مقياس حسن الأخذ ومقياس قبحه ١٧٠

الفصل السادس : بلاغة أبى هلال وأثرها فى البلاغة والبلاغيين

الفصاحة والبلاغة : مشكلة اللفظ والمعنى ، التعصب لكل من الرأيين ١٧٩
العسكرى ، ابن الأثير ، عبد القاهر ، العلوى ، رأى المبرد ١٨٠
التقليد والتجديد ، تقسيم الألفاظ (ابن الأثير) ١٨٦
علوم البلاغة ، جهود أبى هلال فيها ١٨٨
علم البيان : التشبيه ، والاستعارة ، والكناية ١٩٠
الخلط بين التشبيه والاستعارة ١٩٢
علم المعانى : الإيجاز والإطناب والمساواة ٢٠٠
الإطناب والتطويل ، الفصل والوصل ٢٠٦
علم البديع : جهد ابن المعتز ، جهد قدامة ٢٠٨
أثر أبي هلال فى البديعيات ، محسناته السبعة : ٢١١
(١) التشطير (٢) المجاورة (٣) التطريز ٢١١
(٤) الاستشهاد والاحتجاج (٥) المضاعفة ٢١٥
(٦) التلطف (٧) المشتق ٢١٧
جهود المتأخرين فى علم البديع ٢٢٠
أثر المذهب البديعى فى النقد والأدب ٢٢٢

مراجع البحث

أدب الكاتب	ابن قتيبة	القاهرة
أسرار البلاغة	عبد القاهر الجرجانى	القاهرة ١٩٤٧ م
أصول النقد الأدبى	أحمد الشايب	القاهرة ١٩٤٦ م
إنباه الرواة على أنباه النحاة	ابن القفطى	القاهرة ١٩٥٠ م
البديع	عبد الله بن المعتز	القاهرة ١٩٤٥ م
بلاغة أرسطو بين العرب واليونان	الدكتور ابراهيم سلامة	القاهرة ١٩٥٠ م
البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها	أمين الخولى	القاهرة ١٩٢١ م
بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة	جلال الدين السيوطى	القاهرة ١٣٢٦ هـ
البيان والتبيين	عمرو بن بحر الجاحظ	القاهرة ١٣٥١ هـ
تاريخ آداب اللغة العربية	جرجى زيدان	القاهرة ١٩٣٠ م
تاريخ النقد الأدبى عند العرب	طه أحمد ابراهيم	القاهرة ١٩٣٧ م
التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم	أبو أحمد العسكرى	الجوائب ١٣٠٢هـ
الخطابة لأرسطو	ترجمة الدكتور ابراهيم سلامة	القاهرة ١٩٥٠ م
دلائل الإعجاز	عبد القاهر الجرجانى	القاهرة ١٩٤٧ م
ديوان المعانى	أبو هلال العسكرى	القاهرة ١٣٥٢ هـ
شرح التلخيص	سعد الدين التفتازانى	القاهرة ١٣٤٢ هـ
الشعر والشعراء	ابن قتيبة	القاهرة ١٩٤٩ م

كتاب الصناعتين	أبو هلال العسكرى	القاهرة والآستانة ١٣٢٠ هـ
طبقات الشعراء	محمد بن سلام	القاهرة طبعة السعادة
الطراز	يحيى بن حمزة العلوى	القاهرة ١٩١٤ م
العمدة فى صناعة الشعر ونقده	ابن رشيق القيروانى	القاهرة ١٩٠٧ م
الفهرست	محمد بن إسحق النديم	القاهرة ١٣٤٨ هـ
الكامل	محمد بن يزيد المبرد	القاهرة صبيح
المثل السائر	ضياء الدين بن الأثير	القاهرة ١٢٨٢ هـ
معجم الأدباء	ياقوت	القاهرة ١٩٣٦ م
المعجم فى بقية الأشياء	أبو هلال العسكرى	القاهرة ١٩٣٤ م
مقدمة كتاب العبر	عبدالرحمن بن محمد بن خلدون	القاهرة التجارية
مفتاح العلوم	أبو يعقوب يوسف السكاكى	الأدبية ١٣١٧ هـ
من الوجهة النفسية	الدكتور محمد خلف الله	القاهرة ١٩٤٧ م
منهج البحث فى الآداب للانسون	ترجمة الدكتور محمد مندور	بيروت ١٩٤٦ م
الموازنة بين أبى تمام والبحترى	الحسن بن بشر الآمدى	القاهرة صبيح
نزهة الألباء فى طبقات الأدباء	أبو البركات بن الأنبارى	القاهرة ١٢٩٤ هـ
نقد الشعر	قدامة بن جعفر	القاهرة ١٩٤٨ م
النقد المنهجى عند العرب	الدكتور محمد مندور	القاهرة ١٩٤٨ م
نقد النثر	مقدمة للدكتور طه حسين	القاهرة ١٩٣٧ م
الوساطة بين المتنبى وخصومه	القاضى الجرجانى	القاهرة ١٩٤٥ م
وفيات الأعيان	أحمد بن محمد بن خلكان	القاهرة ١٩٣٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

أصل هذا الكتاب بحث تقدمت به إلى جامعة فؤاد الأول للحصول على درجة الماجستير[1] يسرنى اليوم أن أقدمه إلى أولئك الذين أنصتوا فى اهتمام إلى مناقشته وتعجلونى طبعه ، وإلى أولئك الذين يرون فى مثل هذه الدراسة بعض مايرضى مشاعرهم ، ويؤثل اعتدادهم بقوميتهم ومقوماتها ، حين يرون بين هذه المقومات ثروة متعددة الجوانب ، فيها الجانب الروحى ، الذى تعتدبه العروبة ، ويتميز به الشرق الملهم ، وفيها الجانب الفكرى ، الذى يبدو فيه أثر اعتمال العقول ، واصطدام الأفكار .

ولعل الناحية التى يعرض لها هذا البحث من أبرز مظاهر ذلك الجانب الفكرى عند العرب ، لأنها تعالج هذا التراث الفنى الذى اعتز به الأسلاف ، وأولوه كل تقدير وتعهدوه بالحفظ والرواية ، ثم نظروا فيه نظرات عميقة

---

(١) نوقش هذا البحث علانية مساء الخميس ٢٥ من شعبان سنة ١٣٧٠ هـ (٣١ من مايو سنة ١٩٥١ م) وكانت هيئة التحكيم مكونة من حضرات الدكتور ابراهيم سلامة بك وصاحب العزة الأستاذ أمين الخولى بك والأستاذ على الجندى بك ، وبعد مناقشة دامت نحو خمس ساعات قضت اللجنة بمنح المؤلف درجة الماجستير فى اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية بتقدير ممتاز .

أبانت لهم أسرار الحسن ومواطن الجمال فيه .

وقد تناولت النهضة الحاضرة فيما تناولت من ألوان الحياة ومظاهر العمران نهضة أخرى فى الفنون عامة ومنها الأدب الذى بعث بعثاً جديداً منذ عهد قريب ، وهب الشعر من رقدته ، ونهض الشعراء من كبوتهم ، فتخلصوا من عوامل ضعف الشعر وهوانه ، وبعثوه معبرا عن مجتمعهم وخلجات نفوسهم ، وجدد المجددون ما وسعهم التجديد ، فكانت أبواب لم يلجها السابقون ، وحظى النثر بحياة جديدة لا تزال تنمو وتزدهر وتتنوع أفنانها ؛ حتى أصبحت له المكانة المشهودة قصصاً وخطابة وكتابة، حين دنا من أوساط الأمة ، وصور عواطفهم وجوانب حياتهم السياسية والاجتماعية وشرح أسباب القعود وعوامل النهوض .

ولقد تبعت تلك العناية بالأدب الإنشائى عناية أخرى بتأريخه وتحليله وبيان أسباب القوة والجمال فيه ، وكان من أعلام النهضة الأدبية أفذاذ وقفوا جهودهم ومواهبهم على هذه الصناعة ، فأسدوا إليه خدمة جلىَّ إذ شخذوا عزائم الأدباء وجنبوهم مزالق الضعف ، ونبهوهم إلى النواحى الجديرة بالعلاج .

ولقد كانت الكثرة الغالبة ذات الحول والطول من هؤلاء النقاد من الذين انتجعوا الغرب ووقفوا على ما فيه من تيارات النقد ، أو من الذين تأدبوا بأدبهم ، فنقدوا على هدى الغربيين ونقلوا إلى اللسان العربى آثارهم فى النقد ، وكانت لهم حملات جريئة نبهت الأذهان وأيقظت النيام ، فسمع جمهور المتأدبين للمرة الأولى نغمات جديدة على آذانهم ، منها ما نفرت منه الأسماع ، ومنها ما كان جديراً بالتأمل .

على أننا لا ننسى طائفة من النقاد عادت إلى تراث العربية تبحث فيه

عن أساليبهم فى النقد ومناهجه عند مفكريهم فوجدوا فيه شيئاً ذا بال، فألفوا كتباً فى نقد الأدب العربى من وجهة نظر السابقين، وجهدوا فى استخلاص مقاييس تصلح لقياس الأدب فى شكله وجوهره، إلا أن هذه الأصول التى استخلصوها لم تسد من الناحية التطبيقية، ولم تظفر بعناية النقاد المعاصرين، ولم يستغلوها الاستغلال المجدى.

والبحث الذى أقدمه اليوم إلى الأدباء والنقاد حلقة فى سلسلة جهود هؤلاء الباحثين، أرجو أن يكون منها ومن سوابقها خير مشجع لإتمام دائرة البحث، حتى يظفر الأدب العربى بمقاييس متماسكة وقواعد متشابكة، يأخذ بعضها بحجز بعض، وتتكون منها أخيراً أصول عربية انبعثت عن أذواق عربية وعالجت فناً عربياً.

وإذا كان من فرق بين منهج هذا البحث واتجاهه وأبحاث هؤلاء العلماء من المعاصرين، فذلك أنهم صبغوا دراستهم صبغة تاريخية، فتكلموا عن النقد ومنشئه وحياته فى العصور المختلفة، وبعضهم سلك فى دراسته مسلكا فنياً، ولكنه لا يخلو من ميل إلى الإجمال، يحفزهم إلى هذا الإجمال رغبتهم فى الشمول والإحاطة بالنظرات النقدية فى تلك العصور الطويلة.

أما هذا البحث فإنه ينهج نهجاً آخر يعـــدل عن هذا التعميم ويتخذ شخصية واحدة من أعلام النقاد وأولى البصر بالفن الأدبى، وإن تكن الشخصية كما يتضح لمن ينعم النظر فى هذه الدراسة غير مقصودة لذاتها، وإنما المقصود تتبع تفكيرها والوقوف على مصادرها ومواردها، باعتبارها ظاهرة فكرية لحقبة معدودة من الزمن.

على أن دراسة الشخصيات فى مثل هذا الاتجاه أجدى وأنفع، لتكون الجزئيات مفهومة واضحة المعالم قبل معالجة الكليات، ومن الخير أن تفرد

لكل شخصية من هذه الشخصيات الفكرية ما تستحق من دراسة خاصة ، حتى إذا اكتملت تلك الدراسات ووضحت هذة الشخصيات كان من اليسير أن يستخلص منها مايراداستخلاصه من أصول النقد وأساليبه بصفة عامة .

وما أحب أن أختتم هذه الكلمة قبل أن أزجى الشكر خالصاً لأستاذنا الجليل الدكتور ابراهيم بك سلامة الذى تفضل فأشرف على إعداد هذا البحث ، وكان لتوجيهه السديد أبعد الأثر فى تذليل عقبات هذا السبيل الوعر وكان أدبه الشخصى وخلقه العلمى خير مشجع على خوض غمار هذا البحث فى ثقة واطمئنان ، جزاه الله ما هو أهل له من الكرامة والمجد .

وأثنى بالثناء على رائد من رواد العلم والأدب هو حضرة صاحب العزة الأستاذ أمين بك الخولى ، وعالم نبيل هو الأستاذ على بك الجندى ، عضوى لجنة الامتحان والحكم على الرسالة ، فلقد أفدت من آرائهما وما أثارا من ملاحظات .

لقد توج هؤلاء الرجال جهدى بتقديرهم ، وأكرم به تقديراً من أمثالهم فى متانة الخلق ورجاحة العلم وسعة الأفق .

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

مصر الجديدة { ٢٠ من صفر سنة ١٣٧١ هـ / ٢٠ من نوفمبر سنة ١٩٥١ م

بدوى أحمد طبانه

تقديم

البلاغة علم من العلوم الإسلامية استنه المسلمون أول ما استنوه لخدمة دينهم ، والذود عن قرآنهم ، لأن ثمرة البلاغة كما رأوها فى أول عهدهم بها هى فى فهم المعجزة الكبرى لنبيهم وهى القرآن الكريم ، وإعجازه فى وفاء الدلالة منه بجمع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة ، وهو أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ فى انتقائها وجودة رصفها وتركيبها ، وهذا هو الإعجـــاز التى تقصر الأفهام عن إدراكه ، كما يقول العلامة ابن خلدون (١) .

والقرآن كلام الله ، لاسبيل إلى إدراك إعجازه والوقوف على سر بلاغته إلا باستعراض المأثور عن ملوك الكلام من البشر ، واستيعاب أساليبهم فى التعبير إذ كان القرآن عربياً نزل بلغتهم التى حذقوها وعدّوا الإجادة فيها مناط الشرف ، حتى يكون للموازنة محلها ، وحتى يكون الحكم بالإعجاز قائماً على دعائم يؤيدها العقل ، ويطمئن إليها التفكير .

فالأساس الذى ينبت عليه البلاغة أولا دراسة أساليب القرآن فى التعبير ، ومقابلتها بأساليب البلغاء ؛ ثم استخلاص عناصر الجودة فى الأولى ؛ ومواضع التقصير فى الثانية ؛ ثم موازنة الآى من التنزيل بالجيد من كلام العرب ليبين فضل الكتاب على كلام الفصحاء الذين استوت لديهم ملكة البيان .

وكان من الطبيعى أن تتطور تلك النظرات إلى دراسات لا تقف عند القرآن وإدراك إعجازه لتحقيق الغاية الدينية ، بل تتجاوز تلك الغاية إلى غاية

(١) المقدمة — ٥٥٢

شبيهة بها ، وهى تحقيق النص الأدبى ، وإدراك ما حوى من أسباب التسامى أو الاتضاع ، بموازنة بين الفنون الكلامية ، وعرض ألوان مختلفة من الشعر المتشابه فى الفكرة وفى الأداء ، والنثر المتقارب فى الغرض أو الاتجاه ، والحكم لهذا أو لذاك ، والإشادة بالمجيد الحاذق من الذين صدر عنهم هذا الفنّ ، وبهذا أخذ هذا الفنّ النقدى يتجرّد رويداً رويداً من الباعث إليه والحافز عليه .

ولقد استتبع هذا دراسة الألفاظ من حيث هى ألفاظ ، ومن حيث دلالتها على المعانى ، ودراسة المعانى ، وما اشتملت عليه من فكرة رائعة ، أو حكمة بالغة ، أو مثل شرود ، أو إصابة الغرض الذى يرمى إليه الفن الكلامى ، وقد نهلت هذه الدراسات من معينين :

أحدهما : الذوق الفطرى الذى هو المرجع الطبيعى فى الأحكام على الفنون الإنسانية ومنها الأدب، فيجد القارىء أو السامع فى بعض الأساليب من جرس الكلمات وحلاوتها، والتئام التركيب وحسن رصفه ، وقوة المعانى وفخامتها ، وسمو الخيال مالا يجده فى بعضها الآخر ، فيحكم للأولى دون الثانية من غير أن يلتمس العلة لما أصدر من حكم .

وإعجاز القرآن قد يدرك بعض الشىء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربى وحصول ملكته فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه — كما يرى ابن خلدون — أعلى مقاماً فى ذلك لأنهم فرسان الكلام وجهابذته والذوق عندهم موجود بأوفر مايكون وأصحه (١)

وثانيهما : البصيرة النفاذة والعقل القادر على المفاضلة والموازنة والتعليل

---

(١) المقدمة ٥٢٢

وصحة المقدمات لتبنى عليها أحكام يطمئن العقل إلى سدادها ويسلم بصحتها . لأن أذواق الناس متباينة ، فكان لابد من أساليب العلم للإقناع بأن هذا الأثر الأدبي يفضل ذاك . وهذه الأساليب العلمية هى التى يلتقى عندها الناس جميعا ، إذ أن أحكام العقل لا مناص من التسليم بصحتها ، والمتنكر لها متنكر لإنسانيته وفكره الذى يميزه من أنواع الحيوان .

كان لابد من الجمع بين المذهبين إذ كان من العسير أن نغفل أحدهما ، لأن الأول وهو تحكيم الذوق متصل أشد اتصال بطبيعة الفن، والذوق يجنح إلى الخصوصية ، ولأن الثانى أدعى إلى المشاركة فيما ارتضاه الناظر فى هذا الفن ، وتلك المشاركة هى التى تجعل لأحكامنا قيمتها من التقدير ، ولكى نرد الخاص إلى العام ونحدد نسب العنصر الفردى إلى العنصر الجماعى فى مؤلف أدبى ونرجع العبقرية إلى مصادرها دون أن نحط منها ونرى فيها مركبا لا تقف به عند الجمع ، ونجعلها تعبر عن الجمهور المتضع دون أن نردها إليه — كم فى كل هذا من صعوبات ! وكم فيه من شكوك ! ثم كم من دراسات دقيقة لابد من القيام بها ! وفى تضاعيفها يمكن أن تنساب أهواؤنا الخاصة» (١).

ومن ثم كانت الخطوة التالية خطوة طبيعية وأعنى بها دور التقعيد ومحاولة وضع الأسس التى تصدر عنها الأحكام ، ليكون للأدب مقاييس يقاس بها وموازين تقدر بها قيمته ، شأنه فى ذلك شان غيره من ظواهر الحياة المادية والمعنوية ، ومن ثم اتسم النقد الذى كان ذوقا بسمات العلوم من العناية بالتبويب وتنظيم الأقسام .

وليس يحط من شأن النقد الأدبى أنه نهج فيه منهج علمى ، بل ربما كان هذا المنهج ضرورياً لمن يحاول أن يقنع الناس بصحة رأيه ، وسداد نظره .

(١) منهج البحث فى تاريخ الأدب ص ٢٥ — ٢٦

وهذا الذى كان من علماء البلاغة العربية الذين وضعوا أصولا للأدب ينظرفيها الأديب ليتحاشى الخطأ، ويدرس الناقد نتاج الشعراء والنثار على هدى هذه الأصول وروح النقد — كما يقول لانسون — علمية مستنيرة ، فهى لا تطمئن فى بحثها عن الحقيقة إلى سداد ملكاتنا الطبيعية ، بل تنظم خطاها تبعاً للأخطاء التى عليها أن تتجنبها ، إذ توضح النقط الأساسية التى نتعرض فيها للأخطاء وفقاً لطبيعة موضوعنا وملابسات دراستنا (١) .

فإذا كانت البلاغة العربية أخذت بأساليب العلم ، وأفادت من المنطق والفلسفة فلا غرابة فى ذلك ، وقـــد رأينا المحدثين من علمـاء الغرب يقرون هذا المنهج ، ويرونه طريق السداد ، فليقرأ هذا القول جيداً أولئك الذين نفروا النـاس من هذا التراث ، وبغضوا إليهم هذا الأسلوب . ففى عصرنا الذى يدعى عصر الانبعاث نطالع بين حين وحين حملات منكرة على هذا التراث الفكرى ، حتى لتبدو هذه الحملات معاول هدم لا عوامل بعث، وتعرض علم البلاغة لأشد هذه الحملات ، وهو العلم الذى أوضح معالمه وأرسى قواعده جماعة من صفوة العلماء شهدت لهم الدنيا بطول الباع ورسوخ القدم والتمكن من الثقافات مع حظ عظيم من الذوق الفنى المرهف كان عدتهم فيما هم بسبيله من دراسة الأدب ومحاولة وضع أسس علمية لتنهض عليها تلك الدراسة .

بدأت البلاغة بحوثاً قليلة ، وأجوبة مختصرة ، وما لبثت أن أصبحت علماً ذا كيان ، وتراثاً مجيداً بين تراث العقلية العربية تعهده أعلام الأدب والمعرفة ، وحسبك أن تعد فى طليعتهم أمثال الجاحظ وقدامة وابن المعتز والعسكرى والآمدى وعبد القاهر .

---

(١) المصدر السابق ٢٤

ثم رأينا فى هذه الأيام حملات على البلاغة يراد بها التهوين من شأن هذا العلم فى صورة دعاوى لو سلمنا جدلا بصحتها لما نهضت مسوغا للتمادى فى هذه الحملات .

ومن جملة هذه الدعاوى نعتهم البلاغة بأنها بلاغة الأعاجم لا بلاغة العرب ، ومعنى ما يقولون أن أعلام البلاغة ليسوا من أصل عربى ، وهى التهمة نفسها التى وجهها (رينان) إلى الفلسفة العربية والحضارة العربية .

ومنها أن بعض مباحث البلاغة العربية له نظائر فى بعض المباحث النقدية عند غير العرب ، وبعض أصحاب هذه الدعوى يناقضون أنفسهم إذ نراهم يدعون إلى اغتنام كل فرصة للإفادة أياً كان مصدرها ، فى الوقت الذى يرون فيه أن إفادة علماء البلاغة العربية يجعلها غريبة على الأدب العربى والعقلية العربية فلا تصح مقياساً له ، مع هيامهم وولوعهم فى أيامنا بتطبيق نظريات غريبة لا تمت إلى أدبنا وعقليتنا بسبب من الأسباب ، حتى الأدب نفسه سرت إليه هذه البدعة ، والمجدد عند هؤلاء من يتصيد خياله من خيال الغرب ، ومن يبعد عن أساليب لغته وأحاسيس قومه .

ومنها أن البلاغة بمقاييسها التى انتهت إلى مارسم أبو يعقوب يوسف السكاكى فى مفتاح العلوم قد تحجرت، ولم تعد صالحة لإرهاف الملكات التعبيرية الفنية[1]

هذا ما أعرف من الدعاوى ولعل هناك غيرها . والذى نذهب إليه أن تولى جماعة من غير العرب وضع أسس علم البلاغة لا يغض من شأنها ، ولا شك أن النظر إلى قيمة العمل فى ذاته ومبلغ استطاعتنا الإفادة منه أجدى من النظر إلى ذات العامل أو جنسه .

ألا ترى أن كثيراً من أعلام النحو العربى لم يكونوا عرباً ؟ ومع هذه

---

(١) حملات على البلاغة العربية (مقال للمؤلف) بجريدة الاهرام ٤/٤/١٩٥٠م

الحقيقة لم يقل واحد من المنصفين إن أعجميتهم مدعاة دفع الأخذ بأقوالهم ، وكذلك الدين أخذوا كثيراً من أصوله من ثمرة اجتهاد من لم يكونوا عرباً ، وليس يضيرنا أن تولى هذا الأمر من ليس أصله منا مادامت له يد فى خدمة لغتنا وقوميتنا ، والعربى فى نظرنا من أسدى إلى العروبة يداً فيما استطاع ، ويشرف العرب أن ينتسب إليهم الأفاضل بأمثال هذه العوارف ويحط من شأنهم أن يدعى العروبة كل غمر جهول، وإن كانوا الحصى عداً . والإسلام فكرة وحدت بين معتنقيه وجعلتهم سواسية فى كل شىء ، كما جعل مسئوليتهم واحدة فى فهم القرآن ووجوب الذود عنه ، فليس بين المسلمين تفاوت فى هذه المسئولية .

أما أن علماء البلاغة العربية كانت لهم قدم فى فهم أساليب غيرهم فى النقد الأدبى والتأليف البلاغى فذلك سبب تقـــدير لا مدعاة ثلب وانتقاص ، ولا يسعنا إلا أن نرحب بكل تقدم فكرى تنهض دعائمه على أساس من ثقافتنا الأصيلة ، وانتفاع بما جد فى نواحى الفكر عند غيرنا . ونحن مع ذلك نقر القول الثالث إذ من الثابت أن بلاغة العرب قد شابها كثير من اصطلاحات الفلاسفة والمناطقة والمتكلمين، مما جعل البلاغة فى بعض مباحثها وهى الفن الذى يعالج البيان ، ويوضح مافيه من أسباب الروعة والجمال . متحجرة على طالبها . ولكنها على الرغم من هذه الظاهرة تنهض على أساس من الدراسة الفنية لا يمكن أن يجحد ، وذلك مايدعو إلى العناية بها والدعوة إلى إحيائها وتجديدها لا إلى الترهيب منها ، ومحاولة القضاء عليها .

ولقد رأيت أن هذه الجهود التى بذلها أسلافنا الأمجاد جديرة بالتعهد والسقيا والعود إليها بالبحث والتنقيب ، لاستخلاص ماحوت من أصول تصلح أن يدرس الأدب على أساسها فى عصرنا وبعده، كما كانت صالحة لذلك

فى الزمان الذى ألفت فيه ، فإن هذا البعث أولى بنا وأجدر حتى لا نفقد صلتنا بهذا الماضى المجيد ، وهذا أكرم لعلينا من التماس المعين من ثقافة لا تمت بسبب إلى ثقافتنا وإن كنا لا نجحد وجوب الانتفاع من كل ثقافة أيا كان مصدرها .

وأولى بهذه الكلية العريقة فى سدانة اللغة ، والحفاظ على التراث ، والقوامة على خدمة القومية أن تشمر عن ساعد الجد فى هذا السبيل ، فتحيى هذا التراث ، وتنفض عنه غبار الزمن ، وتبعثه من جديد بعثا يلائم ماجدّ فى بيئتنا وما طرأ على عقليتنا فى عصر النهضة .

وأبو هلال العسكرى واحد من أولئك الذين وضعوا اللبنات الأولى هذا الصرح العتيد ، وكتاب (الصناعتين) من أعظم المؤلفات النقدية والعلمية التى عالجت الأدب ووضعت لأركانه حدودا ومقاييس أخذها غيره من الذين نسبت البلاغة إليهم ، ونفقت كتبهم ، وأصابوا من العناية والدرس بعض مايستحقون ، مما لم يصب الرجل منه شيئا .

وقد أردت فى هذا البحث الذى أقدمه اليوم إلى الجامعة للحصول على درجة علمية أن أحقق فى حدود استطاعتى ناحية من تلك النواحى التى دعوت إليها ، فتخيرت هذه الشخصية الجليلة أعرّف بها ، وأنوّه بجهودها ، ومنزلتها بين رجال البلاغة والنقد ، وأثرها فى الذين خلفوها ، وعمدت إلى المقاييس التى وضعها أبو هلال فأشدت منها بما يستحق الإشادة ، وما يصلح أن يكون مقياسا من مقاييسنا التى نقيس بها أدبنا الحاضر واللاحق كما قيس بها أدب السابقين ، وقلت قولى فيما لاجدوى منه .

وقد نظمت البحث فى ستة فصول:

(١) الفصل الأول — فى التعريف بآبى هلال .

(٢) الفصل الثانى — فى النقد والبلاغة قبله .

(٣) الفصل الثالث — فى منابع بلاغته .

(٤) الفصل الرابع — فى منهجه البلاغى .

(٥) الفصل الخامس — فى مقاييسه البلاغية .

(٦) الفصل السادس — فى بلاغتـــه وأثرها فى البلاغة والبلاغيين من بعده .

وأرجو أن أكون فى هذه الفصول قد وفقت إلى الكشف عن جانب له أهميته من جوانب النشاط الأدبى والفكرى للعقلية العربية فى عصر من عصورها الزاهرة . والله المستعان

أبو هلال

بلده . حياته . أساتذته . ثقافته . آثاره

١

« عسكر مكرم » مدينة من كور الأهواز « خوزستان » بين البصرة وفارس ، ومكرم الذى تنسب إليه هو مكرم الباهلى ، وهو أول من اختطها فنسبت إليه[١] . ثم أخذت هذه المدينة تنمو وتزدهر ، وتعمر بالناس ، حتى كان من أبنائها العلماء الأعلام ، الذين كانت لهم اليد الطولى فى خدمة العلم ، وحفظ تراث العروبة ، حتى أدوه إلى الأمة العربية ، وأضافوا إليه ماليهم من معرفة ، وما وهبوا من قدرة على التذوق والتصرف .

كان فى طليعة هؤلاء الأعلام الذين أنجبتهم عسكر مكرم عالمان جليلان كتبا لهذا البلد مجدا وخلودا فى القرن الرابع هما أبو أحمد العسكرى وأبو هلال العسكرى .

---

(١) وقيل هو مكرم بن معزاء الحارث أحد بنى جعونة بن الحارث بن نمير بن عامر بن صعصعة وكان صاحب الحجاج بن يوسف ، وقيل مكرم مولى كان للحجاج أرسله لمحاربة خرذاد بن بارس حين عصى ولحق بمدينة (ايزج) بين خوزستان وأصبهان فى وسط الجبال ، وتحصن فى قلعة تعرف به ، فلما طال عليه الحصار نزل مستخفيا ليلحق بعبد الملك بن مروان ، فظفر به مكرم ومعه درتان فى قلنسوته ، فأخذه وبعث به إلى الحجاج ، وكانت هناك قرية قديمة فبناها ولم يزل يبنى ويزيد فيها حتى جعلها مدينة وسماها عسكر مكرم (وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٢)

أما أبو أحمد فهو أحد الأئمة المذكورين فى التصرف فى أنواع العلوم والتبحر فى فنونها، تنقل بين بغداد والبصرة وأصفهان وغيرها من الحواضر، وأخذ عن فحول العلماء كأبى القاسم البغوى وأبى بكر بن دريد ونفطويه وغيرهم، وأكثر وبالغ فى الكتابة، واشتهر فى الآفاق بالدراية والإتقان، وانتهت إليه رياسة التحديث والإملاء للآداب والتدريس بقطر خوزستان ورحل إليه العلماء الاجلاء للأخذ عنه والقراءة عليه[1] . . . ولم تزل شهرته فى ازدياد ونجمه فى صعود حتى توفى سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة .

والأدلة على مابلغ أبو أحمد من بعد الصيت ونباهة الذكر كثيرة، وحسبنا منها أن الصاحب ابن عباد كان يتمنى الاجتماع به، وكان منتجع العلماء والأدباء وذوى المواهب إلا أبا أحمد فإنه كان يتأبى عليه ، فكان الصاحب يكاتبه على ممر الأوقات ، ويستميل قلبه ليشخص إليه ، فيعتل عليه بالشيخوخة والكبر، إذا عرف أنه يعرض بالقصد إليه والوفود عليه ، فلما يئس منه قال لمخدومه — مؤيد الدولة بن بويه — إن عسكر مكرم قد اختلت أحوالها ، واحتاج إلى كشفها بنفسى . فأذن له بذلك ، فلما قرب من عسكر مكرم كتب إلى أبى احمد كتابا يتضمن نظما ونثراً ، ومما ضمنه من المنظوم قوله :

ولما أبيتم أن تزوروا وقلتم ضعفنا فلم نقدر على الوخدان
أتيناكم من بعد أرض نزوركم وكم منزل بكر لنا وعوان
نسائلكم هل من قرى لنزيلكم بملء جفون لابملء جفان

فلما قرأ أبو أحمد الكتاب أقعد تلميذا له فاملى عليه الجواب عن النثر نثرا ، وعن الشعر بشعر على وزنه وروّيه آخره البيت المشهور :

---

(١) بغية الوعاة — ٢٢١

هم بامر الحزم لو أستطيعـــه وقد حيل بين العير والنزوان [1]

وبعث به إليه فى الحال ثم التقيا فأقبل عليه الصاحب بكليته بعد أن أقعده فى أرفع موضع من مجلسه وتفاوضا فى مسائل، فزادت منزلته عنده، وأخذ أبو أحمد منه بالحظ الأوفر وأدرّ على المتصلين به إدرارا [2].

وإنما أوردت ما أوردت عن أبى أحمد لشدة صلته بموضوعنا لعدة أسباب، أولها أنه علم الأعلام الذين خرجتهم عسكر مكرم، وثانيها أنه عاش فى القرن الرابع الهجرى الذى عاش فيه أبو هلال، ثم لما هو أهم من هذين السببين: ـ أن أبا أحمد يكاد يكون الأستاذ الأوحد لأبى هلال، وصاحب الأثر البعيد فى تكوينه مع اختلاف الرجلين فى منحى التفكير اختلافا تمليه الطبيعة التى تباين بين الأشـــياء وإن تظاهرت على تكوينها عوامل واحدة.

وهذه الصلة الوثقى بين الرجلين: اتحاد فى المكان، واتحاد فى الزمان وتقارب فى الفكر، وأستاذية وتلمذة، ثم قرابة قريبة، هى التى جعلت القدامى يخلطون بين الرجلين، ويتجشمون كثيراً من الجهد فى تمييز أحدهما من الآخر.

ويسجل ياقوت هذا الخلط بين الرجلين فى أماكن عدة من معجمه

---

(١) هذا البيت من أبيات قالها صخر بن عمرو بن الشريد السلمى أخو الخنساء فى زوجه وقد ملت منه لطول مرضه فقال:

أرى أم صخر لا تمل عيادتى وملت سليمى مضجعى ومكانى
وأى امرىء ساوى بأم حليلة فلا عاش إلا فى شقا وهوان
أهم بأمر الحزم لو أستطيعـــه وقد حيل بين العير والنزوان

(٢) معجم الأدباء — ج ٨ ص ٢٥١ ووفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٠

منها قوله : « وطال تطوافى وكثر تسآلى عن العسكريين أبى أحمد وأبى هلال فلم ألق من يخبرنى عنهما بجلية خبر ، حتى وردت دمشق . . . ففاوضت الحافظ تقى الدين إسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن بن الأنماطى النضارى المصرى ... فذكر لى أن الحافظ أبا طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السلفى الأصبهانى لما ورد إلى دمشق سئل عنهما ، فأجاب فيهما بجواب لايقوم به إلا مثله من أئمة العلم ، وأولى الفضل والفهم[1] » .

وهكذا كان السؤال عن الرجلين يستنفد هذا الجهد من إطالة التطواف وكثرة التسآل ، ولا يقوم بالجواب إلا مثل فلان من « أئمة العلم وأولى الفضل والفهم » !

ثم يورد فى ترجمة أبى هلال ما نصه : وكان لأبى أحمد تلميذ وافق اسمه اسمه ، واسم أبيه اسم أبيه ، وهو عسكرى أيضاً . . فربما اشتبه ذكره بذكره إذا قيل : الحسن بن عبدالله العسكرى الأديب فهو أبو هلال [2] .

ولم يسلم المحدثون من الخلط بين الرجلين فوقعوا فى أخطاء علمية ، فنسبوا لهذا بعض آثار ذاك كما سترى فى نهاية الفصل ، وكأنهم يرون الرجلين رجلا واحداً اتحد اسمه وتعددت كناه .

٢

وأبو هلال ، هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكرى ، نشأ كما نشأ أبو أحمد بعسكرمكرم ، وأقام فيها حياته ، والظاهر أنه لم يبرحها أكثر عمره ، فإننا لانجد فى مصدر من المصادر التى بين أيدينا شيئا عن تنقله أو انتجاعه بلداً آخر كما نقرأ عن أبى أحمد ، ولانجد فى شعره مايدل

(١) معجم الأدباء — ج ٨ ص ٢٣٤ .

(٢) المصدر السابق — ٢٥٨ .

على ذلك سوى (القصران) التى قضى فيها شطرا من شبابه ، وفيها يقول :

سقى الله لى قصرا بقصران مونقا سحبت به فى اللهو أعطاف مئزرى
كان سقيط الثلج فى جنباته صفائح كافور على طود عنبر

حياة أبى هلال :

عاش أبو هلال حياته مغمورا خامل الذكر ، فلم يحظ بما هو خليق به من المجد ونباهة الشأن ، كما حظى غيره من العلماء والأدباء فى العصر الذى عاش فيه ، وإن كان قد حظى بعد موته بالخلود فيما ألف وكتب ، وقدره الناس بعد موته مالم يقدروه حياته ، واعترف له العلماء بالنبوغ والسبق .

ونستطيع أن نجمل أسباب خمول ذكر أبى هلال فى حياته فيما يأتى :

(١) أنه قضى أكثر حياته — كما مر — فى عسكر مكرم لم يبرحها إلى غيرها ، وكثيرا مايصحب النقلة طيران الشهرة وذيوع الصيت ، وأكثر الذين عرفنا من العلماء والأدباء هم جوابو الآفاق يتعلمون ويعلمون ، ويفدون ويفد إليهم الناس واستطاع كثير منهم أن يخلف مجدا ، وأن يورّث مالا ، ولم يجتمع لأكثرهم من المواهب والفكر مااجتمع لأبى هلال العسكرى .

(٢) يبدو أن أبا هلال لم يكن من أسرة لها شان فى سياسة أو رياسة أو ولاية عمل من أعمال الدولة ، ومثل تلك المناصب والأعمال ترفع أصحابها والمنتسبين إليهم ، وتجعلهم مناط آمال الناس ، وملتقى مدائح الشعراء .

(٣) ولعله أهم الأسباب : أن أبا هلال كان معاصرا لأبى أحمد العسكرى الذى مر ذكره ، وقد بلغت شهرة أبى أحمد ماعرفنا ، وحسبه أن يرحل فى طلبه ، ويشتهى الجلوس إليه مثل كافى الكفاة الصاحب بن عباد وهو منتجع العلماء والأعلام ، ومهبط كل ذى موهبة من شتى البقاع ، فيزداد مجلسه بهم بهاء ، ويفيدون من الرحلة إليه جاها وثراء . ولم يزد

أبو هلال على أن يكون تلميذا من تلامذة هذا الشيخ ، وقلما نبغ تلميذ فى حياة أستاذه ولاسيما إذا كان التلميذ رجلا مثل أبى هلال فى تواضعه وانطوائه على نفسه ، لا كبديع الزمان فى تطاوله على ذوى الفضل عليه والإحسان إليه .

فاز أبو أحمد من المجد بأوفى نصيب وأوفر حظ ، وبقى مجد أبى هلال متواضعاً متطامنا ، وتلك إحدى جنايات الأساتذه على تلاميذهم !

هذه فى نظرنا أهم الأسباب فى خمول الرجل الذى ترك هذه الآثار فلم يحفل به المؤرخون ولا أصحاب التراجم ، كما حفلوا بغيره ممن هم دونه علما وفضلا . .

فإذا طالعنا ترجمة حياة أبى هلال فى بعض هذه الكتب لم نظفر من المعرفة بها إلا بالقليل الذى لا ينقع غلة ولا يطفىء ظمأ ، على أن أكثرها أغفله إغفالا .. ومن هؤلاء الذين أغفلوه فلم يأتوا له على ذكر ابن خلكان فلم يعدّه فى وفيات الأعيان وإن كان يفيض فى ذكر أبى أحمد كما يفيض فى ذكر غيره من الرجال والنساء .

وهؤلاء الذين تعرضوا لترجمته لم يخبرونا بتاريخ مولده ، وعلى الرغم من تحديدهم مولد أبى أحمد تحديد استقصاء « يوم الخميس لست عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثلاث وتسعين ومائتين » فإنهم لم يظفروا حتى بتاريخ تقريبى لمولد أبى هلال .

على أن فى استطاعتنا أن نحدد تاريخاً تقريبياً لمولده إذا علمنا أن وفاته كانت سنة خمس وتسعين وثلثمائة ، وهى السنة التى فرغ فيها من تأليف كتابه «الأوائل» ويقول ياقوت فى ذلك : وأما وفاته — أبى هلال — فلم يبلغنى فيها شىء ، غير أنى وجدت فى آخر كتاب (الأوائل) من تصنيفه : وفرغنا

من إملاء هـــذا الكتاب يوم الأربعاء لعشر خلت من شعبان سنة خمس وتسعين وثلثمائة [1] .

وإن نحن سايرنا الذين قالوا إن وفاته كانت فى هذه السنة (٣٩٥ هـ) وإن سنه إذ ذاك كانت خمساً وثمانين سنة ، كما أنشد لنفسه قبيل وفاته :

لى خمس وثمانون سنه ... فإذا قدرتها كانت سنه
إنّ عمر المرء ما قد سرّه ... ليس عمر المرء مرّ الأزمنه

كان فى استطاعتنا أن نحدد سنة مولده سنة عشر وثلثمائة على وجه التقريب، ونخلص من هذا أن أبا هلال كان من رجال القرن الرابع مولداً وحياة ووفاة .

أما تقلب الرجل فى الحياة ، وتصرفها فيه وتصرفه فيها ، فلا نكاد نعرف عنه إلا القليل فليس فيما روى الرواة شىء عن تفصيلات هذه الحياة ، وليس لدينا إلا مؤلفاته الكثيرة الزاخرة ، والمأثور مما نقل إلينا من شعره، وهذه المؤلفات وذلك الشعر ، تدل على أن أبا هلال قد أنفق هذه الحياة فى العلم وتحصيله ، والجلوس إلى الأساتذة والتأليف فى هذه الألوان الثقافية التى يزخر بها عمره ، وتلتئم هى واستعداد الرجل وثقافته .

وكان أبو هلال مدفوعا إلى ذلك برغبة شديدة ، وهوى عارم ، يدل عليه مؤلفاته الكثيرة ، واختلاف مباحثها وتدل على علم غزير وثقافة متعددة النواحى ، واطلاع واسع ، وقدرة فريدة فى علمى الرواية والدراية ، لا يحس فى ذلك أيناً ولا تعبا ، وإن وجد منه شيئا فإنه لذيذ المذاق ، وقد فصّل ثقافته ولذته فى تحصيلها فى هذه الأبيات :

---

(١) معجم الأدباء : ج ٨ ص ٢٦٤ .

وليالٍ أطلن مدة درسي مثلماقد مددن في عمر لهوى

مر لي بعضها بفقه وبعض بين شعر أخذت فيه ونحو

وحديث كأنه عقد ريا بت أرويه للرجال وتروى[1]

وهكذا قد وهب الرجل حياته للعلم والدرس في حب له وحرص عليه ، ولذة وشغف به ، فلم يسم به كما سما بغيره ، ولم يتح له من الرزق ما يكفل له حياة رخية ، فبرم بالحياة برم بالناس الذين لم يقدروه ولم ينل منهم ما تتطلع إليه مثل هذه الروح الهائمة في سماء العلم والمعرفة ، فيحول الحب كراهية وسخطا .

إذا كان مالي مال من يلقط العجم وحالي فيكم حال من حاك أو حجم

فأين انتفاعي بالأصالة والحجى وما ربحت كفي من العلم والحكم

ومن ذا الذي في الناس يبصر حالتي فلا يلعن القرطاس والحبر والقلم[2]

لا شك أنه بلغ في هذه الأبيات غاية السخط على نفسه وعلى الناس ، بل على العلم الذي أفرغ فيه جهده ، وبذل في سبيله شبابه ، ثم عاد منه صفر اليدين خاوي الوفاض، ومن دونه — ومن معاصريه — علماً وأدبا تجود لهم الدنيا بخيرها ، وتفيض عليهم بدرها ، وتفتح لهم خزائن الأرض ، ويجارون ذوي الثراء في خصب الحياة ورغدها .

فلا جرم أن يعبر الرجل عن سخطه بمثل هذا الشعر ، وأن يتجاوز السخط على النفس إلى السخط على الدنيا التي لاتعدل في الناس، وأن يستسلم إلى اليأس الذي ليس وراءه بصيص من الأمل :

---

(١) معجم الأدباء : ج ٨ ص ٢٦٧ . (٢) المصدرنفسه : ص ٢٦١.

أرى الدنيا تميل إلى أناس لئام مالنا فيهم صلاح
بقيت كطائر فى قبض باز جريح الجسم هيض له جناح

وعلى الرغم من هذه النقمة الناقمة على الناس والحياة ، يأبى على الرجل حياؤه وصون ماء وجهه أن يبذله فى استجداء الموسرين أو التمسح بعتبات الحاكمين . وتلك شيمة العلماء الذين يعرفون أقدارهم ، ويسمون بعلمهم على الدنيا وعرضها .

هذا الحفاظ الشديد على الكرامة يبعث الرجل فى طلب الرزق من طريق مشروع ، فتراه يجلس فى الأسواق يلتمس الرزق من تجارة البز ويبيعه للناس ، فيعيش من عمل يديه ويدرك مافاته أن يكسبه بعلمه وأدبه .

حتى هذه الحرفة التى احترفها كما يبدو ، لم تجد على أبى هلال ما كان يطمع فيه من رزق حلال ، وهيهات أن يعرف التجارة وحساب الربح والخسارة ، ولوكان فى استطاعته أن يخوض هذا الغمار لاتجر بعلمه وأدبه كما فعل غيره ، وضرب فى الأرض فانتجع بهما ذوى الثراء ورجال الحكم ، من الذين تنفق عندهم مثل هاتين السلعتين ، وهذا الإخفاق يجدد ثورته على الحياة والناس ، بل أن اضطراره إلى هذا العمل يثير حفيظته من قبل أن يحسب حساب الربح والخسارة :

جلوسى فى سوق أبيع وأشترى دليل على أن الأنام قرود
ولا خير فى قوم يذل كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود
ويهجوهم عنى رثاثة كسوتى هجاء قبيحا ما عليه مزيد

وهكذا عاش أبو هلال قلق الوساد نابى المضجع ، برما بالحياة فى شبيبته برمه بها فى كهولته وشيخوخته ، فالشباب يتخطاه ، والمشيب يتغشاه ، ولم يبق إلا توقع الموت والتأهب له :

قد تخطاك شباب وتغشاك مشيب

فأتى ما ليس يمضى ومضى ما لا يئوب
فتأهب لسقام ليس يشفيه طبيب
لا توهمه بعيدا إنما الآتى قريب

وتراه فى هذه الأبيات مؤمنا قوى الاعتقاد ، زاهدا بعد محاولة حياة ناعمة ومعيشة رغدة ، يتأهب للقاء الموت غير آسف على عيش قضاه فى هم وكمد .

أما حياته الخاصة، ونعنى بها حياته الأسرية ، فلم يصل إلينا طرف منها لا فيما كتب الكاتبون عنه ولا فى شعره الذى تسنى لنا الاطلاع عليه ، لم نعرف له قصة زواج ، ولم نعرف ما أنجب من أبناء ، وهذا مايرجح لنا أنه لم يَبْن بزوجة ولم ينجب ولداً ، ولعل هذا هو السرّ فى برمه الحياة ويأسه منها ، إذ لم يجد الشريك الذى يشكو إليه بثّه ، فيستجيب له ، ويُسرّى عنه .

هذه سطور قبسناها وبسطناها من القليل الذى وقع بين أيدينا عن حياة أبى هلال ومن شعره المنثور هنا وهناك ، وكأن الزمان والناس اجتمعا على حرب الرجل حياً ، واستطاع هو بهذه الثمرات التى خلفها من آثار جهاده العلمى وكد ذهنه أن يتغلب على حرب الأيام ، فمضى الزمان ، وقضى مؤرخوه ، وحىّ أبو هلال فى تصانيفه الباقية وآثاره الخالدة .

٣

أساتذة أبى هلال :

وربما كان البحث عن أساتذة العسكرى من أهم ماعنانا وأضنانا ، لأن معرفة هؤلاء الأساتذة والوقوف على ثقافتهم وآثارهم وجهودهم العلمية ، كل ذلك له أثره فى الوقوف على ينابيع ثقافته ، وتكوين عقله ، وتنظيم تفكيره .

ولقد أرجع العلماء ثلاثة أرباع فكر الرجل إلى هؤلاء الذين جلس منهم مجلس التلميذ من المعلم ، وإلى ماوقف عليه من علم سابقيه وتجربتهم ، وجعلوا الربع وحده لمواهبه الخاصة وملكاته وعقله ولبه .

على أن ذلك لم يكن من اليسر بالدرجة التى كنا نقدرها ، فإن المطالع لآثار أبى هلال أو لكتب الطبقات التى تعرضت لذكره ، لايكاد يخلص منها بما يشتهى فى هذه الناحية .

والواقع أن لأبى هلال نوعين من الأساتذة جلس إلى كل منهما ، وأفاد من كليهما علما وعقلا ، وأخذ عنهما هذا التراث الحافل الذى خلفه ، والعلم الذى ألفه .

أما النوع الأول: فأساتذة من اللون المعروف ، شيوخ جلس بين أيديهم وتلقى عنهم ماوسعت صدورهم من ألوان العلوم ، وما وسعه الأخذ والتلقى ، وأنصت إلى حديثهم ، وناقشهم فيها وعى عنهم .

وأول هؤلاء علم أعلام عسكر مكرم الحسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل العسكرى المكنى بأبى أحمد، تجد أستاذيته لأبى هلال أستاذية صريحة فى ناحيتين :

أولاهما : ما صرح به المؤرخون لسير الرجال من هذه التلمذة ، وهذا ياقوت ينقلها فى أول ترجمته لأبى هلال فيقول : قال أبو طاهر السلفى : وكان لأبى أحمد تلميذ وافق اسمه اسمه ، واسم أبيه اسم أبيه ، وهو عسكرى أيضاً فربما اشتبه ذكره بذكره [1] . . وأورد صاحب إنباه الرواة فى ترجمة أبى أحمد . . . وله من الأتباع علماء أعلام كأبى هلال العسكرى وأمثاله [2] .

---

(١) معجم الأدباء : ج ٨ ص ٢٥٨ (٢) إنباه الرواة : ج ١ ص ٣١١

وثانيتهما : ماسجل أبو هلال فيما وقع بين أيدينا من مؤلفاته ، ولاسيما فى أعظم كتبه تداولا لموضوعنا ككتاب (الصناعتين) وديوان (المعانى) فهو لا يفتأ يذكر أبا أحمد فى أكثر صفحات هذين الكتابين فى مثل قوله : ـ أخبرنى أبو أحمد . . حدثنى أبو أحمد . . أنشدنى أبو أحمد روى أبو أحمد . . . إلى غير هذه العبارات وأمثالها التى تدل على الإفادة الواضحة والأخذ الصريح من علم أبى أحمد سواء كان علم رواية أم علم دراية، ولما كان هذا من الكثرة بصورة واضحة فإننا لا نحتاج إلى التمثيل .

ومن أساتذته أيضاً عم أبيه أبو سعيد الحسن بن سعيد، كان أحد أعلام عصره وشيوخه ، روى عنه أبو هلال.

ويبدو أن والده أيضا كان شيخا من شيوخ العلم أورثه حبه والتعلق برجاله وإن كنا لانجد خبراً صريحاً فى كتبه أو رواياته يدل على تلمذة أو أخذ صريح وإنما وجدنا فى بعض ما كتب ما يدل على شىء من الإفادة كقوله : (وجدت بخط أبى رحمه الله : قال القنانى : القداحة بقية تبقى فى القدر من المرق ، وفى الزكرة من الشراب . . .)[1]

ولعل فى هذا ما يدل على أنه لم يدرك أباه ، أو أنه مات قبل أن يستطيع أبو هلال الأخذ منه والتلقى عليه .

وكانت تصل أبا هلال بأستاذه الأول أبى أحمد رحم ماسة ، فقد وقفنا فى بعض الروايات على أن أبا هلال كان يمت إليه بقرابة قريبة ، فقد كان ابن أخته ، وهذا هو الذى ذكره ياقوت بعد ما رواه عن السلفى من أخبار أبى أحمد قال . . . هذا عن السلفى ، وذكر غيره أن أبا هلال كان ابن أخت أبى أحمد[2] .

(١) المعجم فى بقية الأشياء ١٣٤ . (٢) معجم الأدباء : ج ٨ ص ٢٦٣ .

ومن هنا نستطيع الحكم بأن أبا هلال قد قصر درسه وتلمذته على أبي أحمد ، وأنه كان ملازماً له دون غيره ، ولعل هذا كان لبعد صيت أبي أحمد فى عسكر مكرم وما جاورها ، وأنه لم يكن بجانبه شيخ يقاس به ، وقد يكون فى لزوم أبي هلال له شيء من الدليل على خئولة أبي أحمد له ، فاحتضنه صغيراً ، وعاش أبو هلال فى كنفه كما يعيش الابن فى كنف أبيه ، ولم يبرح تلك الحلقة إلى غيرها ، ولم يخرج من تلك المشيخة إلى سواها [1] ، اللهم إلا جلسات معدودات فى مجلس عم أبيه - أبي سعيد الحسن بن سعيد .

وفيما تقدم دلالة على أن أبا هلال احدر من بيئة فيها العلماء من أهله ، وكان لهذا أثره فى تكوين الرجل وتوجيهه وجهة صالحة ما دام فى طبعه الاستعداد والميل ولم يحرمهما أبو هلال .

أما النوع الثانى من الأساتذة فهم أكثر أولئك الذين تقدموا أبا هلال من العلماء والأدباء والنقاد الذين تتلمذ العسكرى على آثارهم وأخذ عنهم صفوة ما فيها . والقول فيهم وفى كتبهم يحتاج إلى تفصيل خصصنا له الفصل الثالث .

٤

ثقافته :

وعلينا قبل أن نتبين ثقافة أبي هلال التلميذ أن نقف على ثقافة أبي أحمد الأستاذ بوجه خاص ، لنقف على أثر هذه الثقافة فى تكوين عقلية أبي هلال وتثقيفه وشحذ ملكاته ، وليست تعوزنا المصادر فى هذه الناحية ، فكل ذلك مفصل فى ترجمة أبي أحمد تفصيلا كافياً .

كان أبو أحمد من أعلام المحدثين فى عصره ، بل انتهت إليه رياسة

(١) المعجم فى بقية الأشياء : ١٠

التحديث ، وكان عالما باللغة حتى اقترن اسمه بوصفه فقيل أبو أحمد اللغوى ، وفى تراجمه دلالة واضحة على طول باعه فى اللغة ، والتبحر فى معرفة دقائقها تبحرا لم يتسن لكثير غيره من العلماء ، وهو أديب متبحر فى معرفة الأدب وفنونه [1] يرويه شعراً ونثراً فى غزارة قل أن تتهيأ لأمثاله ، وعنده قدرة بارعة على التمحيص والنقد والموازنة واستخلاص عناصر الجودة وأسباب الضعف فيما يعرض من الروايات والأحكام التى اهتدى إليها أسلافه من النقاد والرواة ، وما أكثر رواياته ! وما أكثر نقداته وأحكامه التى أثبتها أبر تلاميذه به أبو هلال العسكرى !

ورث أبو هلال كل هذه الثقافات عن أستاذه ـ أوخاله ـ أبى أحمد ، بل ربما كان أوحد الناس فى نقل علمه رواية ودراية ، وتسجيله فى مصنفاته .

كان راوية كأستاذه ، وتظهر ثمرة هذه الرواية فى سفر ضخم فى مجلدين هو « ديوان المعانى » الذى جمع فيه أبلغ ماجاء من كل لون وأبدع ماروى فى كل فن من فنون المعانى وأعيانها وتخير من ذلك ما كان جيدا لنظم محكم الرصف ، ويدل أيضاً على تمكنه من الأدب ، حتى أصبحت كلمة « الأديب » لقباً من ألقاب أبى هلال .

ويجرنا هذا الوصف إلى توضيح مفهوم الأدب عند العلماء الذين صحبوا هذه الحقبة التى عاش فيها أبو هلال وأستاذه أبو أحمد ، فإن ذلك يأخذ بيدنا إلى الوقوف على لون ثقافة أبى هلال ، وتلك مقدمة لابد منها لفهمه ومنهج تفكيره ، وسبل تخيره ونقده وموازنة ما روى بعضه ببعض . وقد تقدم أن أبا أحمد انتهت إليه رياسة إملاء الآداب ، « وهى علوم كان المقصود منها هذه القواعد والمعارف التى تعين الطالب على فهم الأدب

---

(١) فى ص ٢٤١ و ٢٤٥ من الجزء الثامن من معجم الأدباء شواهد على ذلك .

وتذوقه والقدرة على إنشائه كاللغة والنحو والبلاغة ونحوها ، وهى علوم ذات قواعد نظرية تدخل فى فصول منسقة وتوضع فيها الكتب المختلفة [1]

وبذلك تعرف كيف كان القدماء لايحرصون على التحديد حينما يطلقون لفظ الآداب على شىء من هذه العلوم النظرية كما فعل السكاكى فى مقدمة كتابه «مفتاح العلوم» حيث يقول : وقد ضمنت كتابى هذا من أنواع الأدب دون نوع اللغة ما رأيته لابد منه ، وهى عدة أنواع متآخذة . . . . وجعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام : القسم الأول فى علم الصرف ، القسم الثانى فى علم النحو ، القسم الثالث فى علمى المعانى والبيان [2] .

فأطلق كلمة الأدب على هذه العلوم ، وإن سماها أحياناً علم الأدب ، وكما فعل ابن خلدون فى مقدمته فى فصل علم الأدب إذ يقول :

هذا العلم لا موضوع له ينظر فى إثبات عوارضه أو نفيها، فإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهى الإجادة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، فيجمعون لذلك من كلام ماعساه تحصل به الكلمة من شعر عالى الطبقة وسجع متساو فى الإجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة ، يستقرىء منها الناظر فى الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به مايقع فى أشعارهم منها وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة . . ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف ، يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية [3] .

---

(١) أصول النقد الأدبى ص ٤٨ .
(٢) مفتاح العلوم ٢ — ٣
(٣) مقدمة ابن خلدون : ٥٥٣

كذلك كانوا يخلطون بين الأدباء وعلماء الادب من النحويين واللغويين والبلاغيين والنسابين ، فهذا ابن الأنباري[1] في كتابه (نزهة الألباء في طبقات الأدباء) يترجم للنحويين والأدباء معاً ، ويقول عن الكلبي : وأما هشام بن محمد بن السائب الكلبي فإنه كان عالماً بالنسب ، وهو أحد علوم الأدب ، فلهذا ذكرناه في جملة الأدباء ، فإن علوم الأدب ثمانية : النحو واللغة والتصريف والعروض والقوافي وصنعة الشعر ، وأخبار العرب وأنسابهم ، وألحقنا بالعلوم الثمانية علمين وصفناهما وهما علم الجدل في النحو وعلم أصول النحو [2] .

فالأدب عند هؤلاء وأمثالهم كلمة تطلق على علوم الأدب ، والأديب سمة لعارف هذه العلوم والمؤلفين فيها ، ويقول الجرجاني في كتاب التعريفات « الأدب عبارة عن معرفة ما يحترز به جميع أنواع الخطأ » فزاد معنى الكلمة

---

(١) هو أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن أبي سعيد النحوي المتفنن الزاهد الورع قدم بغداد في صباه وقرأ الفقه على سعيد بن الرزاز حتى برع وحصل طرفا صالحا من الخلف وصارا معيدا للنظامية وكان يعقد مجلس الوعظ ، ثم قرأ الأدب على أبي منصور الجواليقي ولازم ابن الشجري حتى برع وصار من المشار إليهم في النحو وتخرج به جماعة وسمع بالأنبار من أبيه وببغداد من عبد الوهاب الأنماطي وحدث باليسير لكن روى الكثير من كتب الأدب ومن مصنفاته ، وكان إماما ثقة صدوقا فقيها مناظراً غزيرا لعلم ورعا زاهداً عابداً تقيا عفيفاً لا يقبل من أحد شيئاً خشن العيش والمأكل لم يتلبس من الدنيا بشيء ودخل الأندلس فذكره ابن الزبير في الصلة ، وله المؤلفات المشهورة منها الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين و . . . توفي ليلة الجمعة تاسع شعبان سنة سبع وسبعين وخمسمائة (بغية الوعاة ٣٠١ — ٣٠٢) .

(٢) نزهة الألباء في طبقات الأدباء ١١٦ — ١١٧ .

اتساعاً وشمل جميع القواعد النظرية التى تنظم الحياة الاجتماعية فى أية ناحية من نواحيها (١) .

كان أبو هلال العسكرى كما كان أستاذه أبو أحمد أديباً بهذا الذى يفهم من هذه الأقوال ، يجيد فى فنى المنظوم والمنثور ، جامعا للجيد عن مأثورهما عن ملوك القول ، يعرف اللغة ، ويعرف دقائق النحو ، ويعرف أنساب العرب ووقائعهم وأيامهم وأحوالهم العامة ، آخذاً من كل فن بطرف كما يقول ابن خلدون .

ومع هذا الذى أثبته الأقدمون فى تعريف الأدب وذكرهم هذه العلوم وعدهم إياها منه فإن الأستاذ أمين الخولى يرى أن هؤلاء القدامى كانوا أكثر فهماً وأدق فى تصوير المعانى وفهم دلالة الألفاظ ، وهم حين يذكرون هذه العلوم أو الفنون لا يعنون أنها من الأدب ، وإنما يريدون بذكرها أنها ثقافة لازمة للأديب ، ولشدة لزومها للأدب ، وحاجة الأديب إليها عدوها من علوم الأدب .

ولا شك أن هذه الإحاطة الشاملة بالعلوم اللسانية كانت كافية فى هذا العصر لتخريج عالم أديب ، إذا أضفنا إلى ذلك ما تميز به العسكرى من ذوق رفيع وسعة فى الأفق تتيح له أن يكون أحد الذين يصدرون الأحكام ، ويضعون مقاييس للقول آمن بها معاصروه ولم يتنكر لها خلفهم حتى عصرنا كما سنوضح ذلك فى الفصول التالية إن شاء الله .

وهكذا كانت الثقافة العربية والإسلامية هى التى تملأ عقل أبى هلال وهى التى تأخذ بأطراف تفكيره ، فهو قارئ لكتاب الله يجيد فهمه ويجيد الاستشهاد بآيه فى يسر وسهولة، ويستطيع تذوقه وتبين مناحى الجمال وأوجه

---

(١) أصول النقد الأدبى ٤٧ .

الإعجاز فيه ، وهو فقيه عارف بالأحكام ، غير أن الذى غلب عليه هو حب الأدب والشعر .

بقى بعد ذلك أن نعرض لناحية لها قيمتها فى عقلية أبى هلال العسكرى وتفكيره، تلك هى ناحية تأثره بما عرف فى عصره من أطراف الفكر اليونانى وأخص ذلك كتاب الخطابة وكتاب الشعر اللذان ألفهما المعلم الأول « أرسطو».

« كان كتاب الخطابة معروفاً فى القرن الثالث الهجرى ، ترجمه حنين بن إسحاق وسواء أكانت ترجمته بعد وفاة الجاحظ أم قبلها فما لا شك فيه أن الاستفادة من طريق عرض أرسطو للخطابة وللشعر كانت واضحة ، وكتاب البديع لابن المعتز ، وما كتبه قدامة وهو من معاصريه يدلان على تأثرهما لأول الكتاب الثالث من كتاب الخطابة الذى يبحث فى العبارة . كذلك ترجم كتاب الشعر فى القرن الرابع الهجرى . فحاولوا تطبيق بعض القواعد التى فهموها فى العبارة ولم يفرقوا بين القواعد الخاصة بالشعر وبين القواعد الخاصة بالنثر [1] » .

ومع إفادة العرب من هذا وعدم إفادتهم من ذاك فإن الذى يلوح لنا أن أبا هلال لم يطلع على هذين الكتابين اللذين كان لهما الأثر البعيد فى النقد والبلاغة لانصرافه عن هذه الثقافة الطارئة إلى تحصيل فنون الثقافة العربية من أطرافها ، وصرفه أكثر عمره فى تحصيلها ، فلم يتسع عمره للبحث عن غيرها .

والواقع أنه على الرغم من جهله باللغة اليونانية ، وعدم اطلاعه على كتابى أرسطو « الخطابة والشعر » فإنه اطلع على ما كتب أرسطو بالواسطة ، فيما قرأ لأبى الفرج قدامة بن جعفر البغدادى ، وتأثر بها فى كتابه « نقد الشعر » الثابت نسبته إليه وكتاب « نقد النثر » الذى يظن أنه له .

---

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ٥٢ — ٥٣

وعلى هذا فإننا لا نستطيع أن نحسب الفكر اليونانى فى عداد ألوان ثقافة العسكرى الأصيلة ، فإن إفادته محدودة كما سنوضح ذلك . ونستطيع أن نقرر أن ثقافته كانت عربية خالصة وأنه لم يبعد عن أساليب التفكير العربى فى كثير .

٥

آثاره :

زود أبو هلال المكتبة العربية بنتاج رائع ، يدل على خصب وتمكن ، وسعة ثقافة ، وتوفر على العلم وتحصيله ، ثم على التدوين والتأليف عن فهم وبصيرة . وتفيض كتب الطبقات بذكر آثار أبى هلال التى تدل على باع طويل وعلم أصيل . بل إن هذه الكتب تكاد تقف تعريفها بأبى هلال على ذكر آثاره ومصنفاته وشىء من شعره العذب فى شكوى الزمان وتنكر الخلان . وهذه أسماء كتبه كما ذكرها ياقوت (١) .

١ — كتاب التلخيص . ٢ — كتاب صناعتى النظم والنثر .
٣ — كتاب جمهرة الأمثال : طبع فى بومباى سنة ١٣٠٦هـ وفى مصر على هامش أمثال الميدانى سنة ١٣١٠هـ . ٤ — كتاب معانى الأدب .
٥ — كتاب من احتكم من الخلفاء إلى القضاة .
٦ — كتاب ديوان الحماسة . ٧ — كتاب الدرهم والدينار .
٨ — كتاب المحاسن فى تفسير القرآن (خمسة مجلدات)
٩ — كتاب العمدة . ١٠ — كتاب فضل العطاء على اليسر .
١١ — كتاب ما تلحن فيه الخاصة .

(١) معجم الأدباء — ج ٨ ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

١٢ — كتاب أعلام المعانى فى معانى الشعر .

١٣ — كتاب الأوائل : اختصره السيوطى فى كتاب الوسائل .

١٤ — كتاب الفرق بين المعانى . ١٥ — كتاب نوادر الواحد والجمع .

١٦ — رسالة فى العزلة والاستئناس بالوحدة : (ذكرها السيوطى فى بغية الوعاة [١]) . ١٧ — كتاب المصون فى الأدب .

١٨ — المعجم فى بقية الأشياء — طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٤ .

١٩ — شرح ديوان أبى محجن الثقفى .

٢٠ — رسالة فى التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم [٢] .

وهذه الكتب على كثرتها وتعـــدد أسمائها لا تخرج عن دائرة ثقافة أبى هلال التى تمحض لها ، وأنفق فيها حياته ، وأعنى بها الثقافة الأدبية بمفهومها فى العصر الذى عاش فيه ، أو هى بشىء من التوسع : كتب لغة وكتب أدب بالمعنى العام وهو الإنتاج العلمى الذى يصور فى الكلام ويدون فى الكتب ، والمعنى الخاص وهو الكلام الجيد الذى يحدث فى نفس قارئه وسامعه لذة فنية، سواء أكان هذا الكلام شعراً أم نثراً أم مايحتاج إليه من الشرح والتفسير ، أم ما يبين ما فيه من عناصر الحسن أو الرداءة .

والمطبوع المتداول من هذه الكتب ثلاثة :

أولها وأشهرها كتاب «الصناعتين» «الكتابة والشعر» هكذا يعرفه الناس فى أيامنا وقبل أيامنا ، وإذا ماذكر اسم أبى هلال قيل هو صاحب الصناعتين، ففى بغية الوعاة فى ترجمته « الحسن من عبد الله بن سهل ... صاحب الصناعتين ولكن ياقوت يذكر اسم الكتاب كما رأيت فى ثبت كتبه — كتاب صناعتى

---

(١) بغية الوعاة ٢٢١ (٢) ذكره جرجى زيدان ج ٢ ص ٢٨٤ من كتاب تاريخ آداب اللغة العربية (مطبعة الهلال) ١٩٣٠ م ولنا فيه قول نذكره فى آخر الفصل .

النظم والنثر ، وهو خلاف يسير لا ينهض بالشك فى هذا الكتاب ، أو أنه كتاب آخر غير الصناعتين . والصناعتان فى المطبوع بين أيدينا هما الكتابة والشعر ، وعند ياقوت الصناعتان هما النظم والنثر ، وفى كلمة النثر عموم وشمول فى التسمية الأخيرة لأن النثر فنون والكتابة فن منها ، والكتاب قد اشتمل على فنون أخرى من النثر غير الكتابة كالرسائل والخطب ، فكانت كلمة النثر أليق بموضوع الكتاب ، كما أن كلمة الشعر فيما بين أيدينا أليق من حيث التتبع التاريخى ، ذلك أن قدامة بن جعفر ألف كتابه فى « نقد الشعر » فأراد العسكرى أن يتم ما بدأ قدامة من بحث الشعر وأن يشرع الكتابة فى النثر أو الكتابة ليتم الأدب من أطرافه .

وقد اشتمل كتاب الصناعتين على عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا :

الباب الأول : فى الإبانة عن موضوع البلاغة فى أصل اللغة ، وما يجرى معه من تصرف لفظها وذكر حدودها وشرح وجوهها وضرب الأمثلة فى كل نوع منها وتفسير ما جاء عن العلماء فيها (ثلاثة فصول) .

الباب الثانى : تمييز الكلام جيده من رديئه ومحموده من مذمومه (فصلان).

الباب الثالث : فى معرفة صفة الكلام (فصلان) .

الباب الرابع : فى البيان عن حسن السبك وجودة الرصف (فصل واحد) .

الباب الخامس : فى ذكر الإيجاز والإطناب (فصلان) .

الباب السادس : فى حسن الأخذ وقبحه وجودته ورداءته (فصلان) .

الباب السابع : القول فى التشبيه (فصلان) .

الباب الثامن : فى ذكر السجع والازدواج (فصلان) .

الباب التاسع : فى شرح البديع والإبانة عن وجهه وحصر أبوابه وفنونه (خمسة وثلاثون فصلا) .

الباب العاشر : فى ذكر مقاطع الكلام ومباديه والقول فى الإساءة فى ذلك والإحسان فيه (ثلاثة فصول) .

وقد طبع كتاب الصناعتين فى مصر عدة طبعات تجارية تتقارب فى الرداءة ، والطبعة المتداولة فى مصر الآن مثل من أمثلة الإهمال والتصحيف والتحريف والخطأ ، وقد تولى طبعها محمد على صبيح وأولاده ، وعلق عليها وفسر غريب ألفاظها محمد أمين الخانجى ، ولم يسجل على هذه الطبعة سنة طبعها . وقد طبع طبعة جيدة فى الآستانة ولكنها نادرة الوجود .

وثانى هذه الكتب شهرة ، وإن كان وثيق الصلة بموضوعنا كتاب (ديوان المعانى) وإن نحن نظرنا فى هذا الاسم وطبقناه على ثبت كتب أبى هلال لم نجد هذا الاسم نصاً ، وإنما نجد كتابين اسم أولهما (معانى الأدب) واسم الثانى (أعلام المعانى فى معانى الشعر) . ونحن نرجح أن ديوان المعانى الذى بين أيدينا هو كتاب (معانى الأدب) الذى ذكره المؤرخون فى آثار أبى هلال ، لاختصاص ثانى ماذكروه (أعلام المعانى فى معانى الشعر) بالشعر وحده ، ولأن ديوان المعانى قد جمع فرائد من المنظوم والمنثور هى أقرب فى نظرنا إلى التعميم وإلى مدلول الأدب . هذا إذا لم يكن (ديوان المعانى) كتاباً ثالثاً غير (معانى الأدب) وغير (أعلام المعانى فى معانى الشعر). وقد عنيت بطبع هذا الكتاب ونشره مكتبة القدسى بالقاهرة سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة وألف الهجرية طبعة جيدة على ورق متوسط ، وقد كتب على صدر هذه الطبعة أنها أخذت « عن نسختى الإمامين العظيمين الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود التركزى الشنقيطى رحمهما الله ، الأولى فى خزانة الجمعية

الخيرية الإسلامية بالقاهرة ، وهى مقابلة بقراءة العلامة الشيخ عبد العزيز شاويش رحمه الله ، والثانية فى دار الكتب المصرية العامرة مع مقابلة بعضهما بنسخة المتحفة البريطانية بواسطة المستشرق الأستاذ الدكتور كرنكو المتفضل بالنظر فى تصحيحه » . وقد جمع العسكرى فى هذا الكتاب أبلغ ما جاء فى كل فن وأبدع ما روى فى كل نوع من أعلام المعانى وأعيانها إلى عواديها وشذاذها ، وتخير من ذلك ما كان جيد النظم محكم الرصف غير مهلهل رخو ولا متجمد فح ، وهذا نوع من الكلام لا يزال الأديب يسأل عنه فى المجالس الحافلة والمشاهد الجامعة إذا أريد الوقوف على مبلغ علمه ومقدار حفظه ، فإن سبق إليه بالجواب جل قدره وفخم أمره ، وإن نكص عن ميدانه شال ميزانه وقلت الرغبة فيه وانصرفت الرغبة عنه[1]. والكتاب يجمع ضروباً من الشعر وفنوناً من النثر تمثل للأغراض المختلفة . ليكون مادة للمناقضة وقوة للمفاوضة [2] وقد كانت المجالس الأدبية فى هذا العصر العباسى كثيراً مايضطر روادها إلى مثل هذا اللون من علم الرواية ، يستدل به على غزارة العلم وقوة المعارضة ، والمقصر فى تلك الحلبات منقوص القدر محروم من الجائزة ، فقد كان الخلفاء يتصدرون تلك المجالس فيلقون على هؤلاء الرواد بعض الأسئلة ليستدلوا على قدرتهم ووعيهم وتمكنهم من الأدب ومعانيه . وقد نظمه أبو هلال اثنى عشر بابا :

الباب الأول : فى التهانى والمديح والافتخار .

الباب الثانى : فى الخصال .

الباب الثالث : فى المكاتبات والهجاء والاعتذار .

الباب الرابع : فى الغزل وأوصاف الحسان .

---

(١) ديوان المعانى ٧ (٢) المصدر السابق ١٤

الباب الخامس : فى ذكر النار والطبخ وأنواع الطعام وصفات الشراب وما يجرى مع ذلك .

الباب السادس : فى ذكر السماء والنجوم والشمس والقمر وما يجرى مع ذلك .

الباب السابع : فى ذكر السحاب والمطر والثلوج والمياه وصفات البساتين والرياض والأشجار والثمار والرياحين والنسيم ومايجرى مع ذلك .

الباب الثامن : فى ذكر السلاح والحرب وما يشبه ذلك .

الباب التاسع : فى ذكر القلم والخط والكتاب وصفة البلاغة وما يجرى مع ذلك .

الباب العاشر : فى ذكر الخيل والإبل والسير والفلوات والسراب وصفة سائر الحيوانات .

الباب الحادى عشر : فى ذكر الشباب والشيب والعلل والموت والمراثى والتعازى والزهد .

الباب الثانى عشر : فى صفة أشياء مختلفة .

فالكتاب حافل بفنون الشعر والنثر التى تمثل هذه الأغراض مع شئ من النقد والموازنة فى ثنايا هذا العرض لعيون الأدب .

أما الكتاب الثالث فلا صلة تربطه بموضوعنا لأنه كتاب لغوى واسمه « المعجم فى بقية الأشياء » وقد أكمله وعلق عليه وضبطه الأستاذ ابراهيم الإبيارى والأستاذ عبدالحفيظ شلبى ، وطبعته مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة الهجرية (١٩٣٤ الميلادية) .

وبين هذه الكتب التى قيل أنها لأبى هلال « كتاب التفضيل بين بلاغتى

العرب والعجم» الذى عده جرجى زيدان فى آثاره . وقد عقدنا به منذ وقع نظرنا على اسمه آمالا عراضاً وظننا أنه سيلقى بعض الضوء على عقلية أبى هلال وجوانب من ثقافته فيكون مكملا لكتاب الصناعتين .

ولكن هذا الأمل تبدد حين عثرنا على الكتاب بعد لأى فى خزانة الشنقيطى بدار الكتب المصرية فإذا هو رسالة صغيرة فى نحو تسع صفحات (٢٠٣ — ٢٢١) وهى الرسالة السادسة عشرة بين سبع عشرة رسالة مجموعة فى كتاب سماه جامعه « التحفة البهية والطرفة الشهية »[1] على أن قلة عدد الصفحات لم يقطع الأمل فى أنها تحوى علماً مركزاً ورأياً محكماً يضيف به أبو هلال حلقة جديدة إلى سلسلة اجتهاده البلاغى ولا سيما أن كلمة (بلاغة) مصرح بها فى عنوان الكتاب .

رأيت فى فهرس « التحفة البهية » [2] ما يبشر بهذا الأمل إذ نص أمام الرسالة السادسة عشرة على أنها للعلامة أبى هلال العسكرى وفى نهاية الرسالة الخامسة عشرة مانصه (انتهت الرسالة الخامسة عشرة وتليها الرسالة السادسة عشرة فى التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم لأبى هلال العسكرى[3]). ولكننا فوجئنا فى صدر هذه الرسالة بأنها (صنعة أبى أحمد الحسن بن عبدالله بن سعيد العسكرى [4]) .

وهنا أخذتنا الحيرة وملنا أول الأمر إلى ترجيح أن يكون الخطأ فى هذه العبارة الأخيرة وأن يكون الصواب مافى الفهرس وما فى نهاية الرسالة الخامسة عشرة وما اعتمده جرجى زيدان .

هذا ما ملنا إلى ترجيحه أول الأمر ولكن بعد قراءتنا هذه الرسالة بان

---

(١) رقم ١٠ خصوصية مجاميع (ش) (٢) مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٢
(٣) ص ٢١٢ من المجموعة (٤) ص ٢١٣ من المجموعة

لنا أن الصواب هو ما كتب فى صدرها ، وهو أنها (صنعة أبى أحمد . . .) وأن الوهم سرى إلى ناشر المجموعة ، وفات العلامة الشنقيطى وهو مالك المجموعة وواقفها أن يصحح خطأ الطبع واكتفى صاحب « تاريخ آداب اللغة العربية » بالنظر إلى الفهرس فخلط هؤلاء بين الرجلين كما خلط الأقدمون بينهما .

والذى رجح لنا أن الرسالة لأبى أحمد دون أبى هلال عدا ما كتب فى صدرها أن فيها آراء تخالف آراء أبى هلال . ومن ذلك قول أبى أحمد (أخبرنا أبو بكر بن دريد) وهو من أساتذة أبى أحمد دون أبى هلال قطعاً ومن ذلك أن أبا هلال عودنا أن يقول فى رواياته : أخبرنى أبو أحمد . . أو حدثنى . . أو ومثل ذلك ما حدثنا به أبو أحمد . . أما الرسالة فإن فيها (قال الشيخ) أو (قال الشيخ أبو أحمد) وهذا تعبير المملى عليه ، والذى عرف عن أبى أحمد كما ذكر المؤرخون أنه كان مشهوراً بإملاء الآداب فى قطر خوزستان .

شـــعره :

هذا ولأبى هلال شعر رقيق مرّ بعض المأثور منه ، وفى « ديوان المعانى » طائفة كبيرة من منظومه ، لو ضم بعضها إلى بعض لكان منها ديوان نفيس ، فهو حين يعرض الجيد من مأثور القول للعرب فى جاهليتها وإسلامها يدلى بدلوه فى الدّلاء فينشد لنفسه فى الأغراض المختلفة ، من ذلك قوله فى الحسن مع الشجاعة :

فتى على نفسه من نفسه رصد ... يصدّه إن نطق الشين والذاما
مازال يغنم مالا ثم يغرمه ... ما زال للمال غناماً وغرّاما
أغر أربع يحكى الغيث مكرمة ... والنجم منزلة والطود أحلاما
تجله حين يبدو أن تقول له ... كأن فى ثوبه بدراً وضرغاما

وقوله فى المديح :

نصرت على الأعداء فليهنك النصر ... ودانت لك الدنيا وذل لك الدهر
فأنت كإقبال الشبيبة والصبا ... تطيب بك الدنيا وينعمر العمر
وليس كرام الناس إلا كواكبا ... على صفحتى ليل وأنت لهم بدر
وفى الناس أجواد كثير وإنما ... أولئك أثماد وأنت لهم بحر
فإن أظلم الأحداث واسودّ ليلها ... فهم شفق فيها وأنت بها فجر
أبا قاسم فخراً على المجد والعلا ... فإن العلا روض وأنت به زَهر
غدت أرضنا منكم سماء مظلة ... لها أنجم من زهر أخلاقكم زُهر

وقوله فى الغزل :

وانشق ثوب الظلام عن قمر ... يضحك فى أوجه الدُّجُنّات
كأنما النجم حين قابله ... قبيعة[1] فى نصاب مرآة

وقوله فى معنى قوله صلى الله عليه وسلم (كفى بالسلامة داء) :

ماخير عيش صفوه يكدره ... لابد أن يشكوه من يشكره
والمرء ينسى والمنايا تذكره ... يميته بقاؤه فيقبره
وكسره منه الذى لا يجبره ... يطويه من مداه مالا ينشره
فى كل مجرى نفس يكرره ... يهدم من عمرك مالا تعمره

وفى معناه أيضا :

قد قرب الأمر بعد بعده ... وأسعف الإلف بعد صده
وبعد بؤس وضيق عيش ... صرت إلى خفضه ورغده
لكنه ملبس معار ... لابد من نزعه ورده
وهل يسر الفتى بحظ ... وجوده علة لفقده

(١) قبيعة السيف كسفينة : ما على طرف مقبضه من فضة أو حديد .

البلاغة والنقد
قبل أبي هلال

١

خلّفت الأمة العربية منذ جاهليتها الأولى نتاجاً ضخماً من الأدب فيه صورة لأحاسيس الأدباء ومدى تأثرهم ببيئتهم وحظهم من الثقافة والفكر ، وحظهم من العاطفة والخيال ، وتبدو منه أدلة قدرتهم البارعة على التصوير والتعبير .

وهذا النتاج الضخم ليس على درجة واحدة من الإجادة والإبداع ، وليس على درجة واحدة فى إحداث التأثير الفنى فى نفوس مستقبلى هذا النتاج ، بل إن منه ماسما واتسم بالجودة تهتز له نفوس القارئين والسامعين ، وتطرب له قلوبهم ، ويتجاوز تأثيره العصر الذى أنشىء فيه والجماعة التى حدّثت به إلى العصور اللاحقة والأجيال التالية ليصبح لغة الإنسانية التى تعبّر به عن آمالها وآلامها وترسم لها صورة المثل العليا التى لا تزال تتطلع إليها فى كل جيل وفى كل قبيل ، وذلك بما توفر له من شعور صادق وتعبير جميل ، وبما بدا فيه من الأصالة والقدرة على التصرف والافتنان ، ومنه نتاج جاء رثاً خلقاً ، وتعبيراً سقيما عن شعور سقيم ، أو جاء صدى لإحساس الغير وعواطفه ، فكان بارداً غثا .

وأنت إذا اطلعت على هذا التراث الأدبى راعتك كثرته ، ولكن هذه

الكثرة التى تروعك لن تراها ممثلة لضروب الأدب تمثيلا كاملا ، فإن هذا التراث الذى خلفته الأمة العربية يكاد يكون كله شعراً ولعظم مكانة الشعر فى نفوسهم أطلقوه على كل علم وفن[1] وأما سائر ضروب الأدب فلن ترى منها إلا ظلالا غير مستقرة ، والقليل الذى أثر لنا من خطب الجاهليين قليل لا غناء فيه ، بل إن هذا القليل شك فيه جماعة من علماء الأدب ومؤرخيه وتصدوا له بالنفى ، لما رأوا فيه من صناعة لفظية وأسجاع مفتعلة ، رأوها غير جديرة أن تنسب إلى هذا العصر الذى لم يعرف التكلف فى شىء من فنون الحياة ، فأحر به ألا يعرفه فى فن من فنون القول .

أما الكتابة فلا حظ لها من الحياة فى هذا العصر إذ كان العرب قوماً قد فشت فيهم الأمية وجهلوا القراءة والكتابة ، ولم يكن لديهم من تكاليف الحياة أو نظم الحكم ما يقتضى الكتابة تنظم شئونهم ، وتقوم لهم بمستلزمات الحكم والحياة ، ولم يجتمع لدى العرب من موارد الثقافة وضروب الحضارة ما يهيىء للنثر الفنى أن يحتل منزلته من أدبهم ، ويدل على قدرتهم على تنضيد المعانى وتنسيق الأفكار .

وكانت الحال قريباً من ذلك فى صدر الإسلام وفى عصر دولة بنى أمية ، إذا استثنينا من فنون النثر الخطابة التى كان لها أثر ملحوظ بسبب الحاجة إليها فى نشر المبادىء ، وفى الترغيب والترهيب ، واحتل جماعة من فحول العرب منازل خطابية فكانوا فرسان الكلام تهتز لهم أعواد المنابر ، وترتعد لسماعهم القلوب ، وإذا استثنينا الكتابة التى ولدت فى أخريات عصر بنى أمية ووضع لها عبد الحميد بن يحيى قواعد وأصولا يحتذيها رجال هذه

---

(١) أشعره الأمر وبه أعلمه ، والشعر غلب على منظوم القول لشرفه بالوزن والقافية وإن كان كل علم شعراً (قاموس : ج ٢ ص ٥٩) .

الصناعة ، ولكنها على أى حال لا تعد صناعة لها خطرها فى هذا العصر ، وإنما يكون لها هذا الشأن فى العصر العباسى الذى شعّت فيه أضواء العلم والمعرفة ، وبدأت الكتابة وسائر ضروب النثر الفنى تظهر واضحة المعالم بينة القسمات .

فأظهر ألوان الفن الأدبى عند الجاهليين والإسلاميين هو الشعر الذى كان صناعة العرب تنطلق به ألسنة فصحائهم وذوى المواهب منهم فتردّده الألسنة ويتراواه الناس حتى اشتهر أمره ، وحفظ على صفحات القلوب إلى أن كان التدوين فى العصر العباسى الأول فحفظته السطور بعد الصدور .

تناول هذا الشعر جميع الفنون وعالج جميع الأغراض التى تتصل بالحياة وتعرض للشاعر فتؤثر فى حسه وتثير انفعاله من تعبير عن الحب أقوى العواطف الإنسانية ، وبكاء الأطلال الدوارس التى خلفها الأحباب ، ووصف مشاهد الصحراء من سهل وجبل ، ونبات وحيوان ، ومطر وسحاب ، ومديح لأولى النجدة من الأحرار الشجعان الكرام ، وهجاء للأعداء ، وفخر بالأولياء ، ووصف للحرب والغارات ، ورثاء لمن أسدى فضلا إلى الشاعر أو كانت له به صلة من رحم أو جوار .

ومثل هذه الأمور التى تثير انفعال الشاعر وتؤثر فى عاطفته تجعله يحاول أن يشرك غيره معه فى الإحساس بما أحس والتأثر بما تأثر به ، وهذا هو داعية القول وغايته .

٢

يستقبل الناس هذا النتاج استقبالا مختلفاً ، بحسب ما تمليه طبائعهم ، وتذوقهم لهذا الفن ، فمنهم من يغالى به ويرفعه إلى القمة ، ومنهم من يتضع به إلى الحضيض بحسب أهوائهم وولائهم للشاعر أو عدائهم له أو للجماعة التى

ينتمى إليها . فجاءت هذه الأحكام وفيها التناقض وآثار الارتجال، فما يعجب هذا لا يرضى عنه ذوق ذاك ، حتى كان الاتفاق على خبراء بهذه الصناعة يصدرون فى أحكامهم عن خبرتهم وطول معاناتهم للشعر ، لأنهم طالما بلوه وراضوا جامحه ، وذللوا شارده حتى استلانت لهم قناته ، وسهل عليهم صعبه ، « ففى أواخر العصر الجاهلى كثرت أسواق العرب التى يجتمع فيها الناس من قبائل عدة ، وكثرت المجالس الأدبية التى يتذاكرون فيها الشعر وكثر تلاقى الشعراء بأفنية الملوك فى الحيرة وعمان فجعل بعضهم ينقد بعضاً ، وهذه الأحاديث والأحكام والمآخذ هى نواة النقد العربى الأولى[1] » .

وهؤلاء الحكام أو النقاد كانوا يصدرون أحكامهم عامة ، قائمة على التأثر والانفعال من غير منهج يصدر الحكم على مقتضاه ، لأن هذا المنهج لا يتسنى إلا لناقد استطاع أن يخضع ذوقه لنظر العقل ، وهذا مالم يكن عند قدماء العرب ، وما لا يمكن أن يكون ، ومن ثم جاء نقدهم جزئياً مسرفاً فى التعميم ، يحس أحدهم بجمال بيت الشعر وتنفعل به نفسه فلا يرى غيره ولا يذكر سواه كشأنه فى كل أمور حياته إذ تجتمع نفسه فى الحاضر الماثل أمامه ، وفى هذا ما يفسر ما تجده فى كتب الأدب من أحكام مسرفة كقولهم « هذا أجود ما قالت العرب » و « هذا الرجل أشعر العرب » وما إلى ذلك[2] . فإذا أنت بحثت من العلة التى بنوا عليها هذا الحكم أو ذاك لم تجد لها أثراً ، ولا غرابة فى ذلك لأن التماس العلة العقلية عمل عقلى منظم ينتج عن ثقافة عامة أو فى الأقل ثقافة خاصة تتصل بهذا العمل الفنى والثقافة الخاصة التى نعنيها هى الإلمام بالعلوم اللسانية ، وتلك لم تكن علوماً منظمة

(١) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ١١–١٢ .

(٢) النقد المنهجى عند العرب ٧ .

لأن تدوينها جاء متأخراً فى العصر العباسى ، فكان الإحساس وحده هو الحكم فى تقدير هذه الآثار الفنية ، أما التقسيم والميل إلى التحديد الذى يجعل من هذا النقد الذوقى لوناً من ألوان المعرفة يؤخذ به ويقاس عليه فذلك مالا وجود له .

ومع ذلك فقد تجد من بين هذه الأحكام المبنية على الذوق وحده ما التمس له العلة كما تجد مثل ذلك فى كلمة عمر بن الخطاب فى صفة شعر زهير ووجه استحسانه إياه ، وهى قوله (كان لا يعاظل [1] فى الكلام ، وكان يتجنب حوشى الشعر ، ولم يمدح أحداً إلا بما فيه) وهذا قول يستند على الدليل والتعليل ، وهو وإن كان قد قصر العلة على النظر إلى الألفاظ وإلى تحرى الصدق فيما يقول ، إلا أن ذلك فيما نعلم كان أول حكم نقدى مبنى على التعليل ، وأحر بتلك النظرة الفاحصة والوعى السابق أن يصدر عن عمر .

أما قصة النابغة وحكمه بين الخنساء وحسان والأعشى فى سوق عكاظ ونقد النابغة بيتى حسان فأكبر الظن أنها مفتعلة ، لأن ما ذكر من العلل أجدر بكلام المتأخرين من النحاة واللغويين ، وربما كان أصدق من هذه الرواية ما رواه القالى فى أماليه أن النابغة قال لحسان إنك لشاعر ، وقال

---

(١) لا يعرف قدامة المعاظلة إلا فاحش الاستعارة مثل قول أوس :

وذات هدم عارنوا شرها تصمت بالماء تولبا جدعا

فسمى الصبى تولبا وهو ولد الحمار .

ومثل قول الآخر :

وما رقد الولدان حتى رأيته على البكر يمريه بساق وحافر

فسمى رجل الإنسان حافراً . فإن ما جرى هذا المجرى من الاستعارة قبيح لا عذر فيه (نقد الشعر ١٧٤) وفى المعاظلة كلام نذكره بعد .

للخنساء إنك لبكاءة ، أو ما رواه ابن قتيبة أن حسان قال للخنساء : أنت أشعر من كل ذات مثانة قالت ومن كل ذى خصيين .

وهذه الأحكام العامة لم تأخذ صورة التاليف فى النقد ، ولم تحاول وضع أسس صالحة تتخذ مقاييس ، وإنما هى أحكام فردية وآراء عارضة تتناول الجزئيات ولا تعنى بوضع موازين كلية تصلح لهذا الأثر وتنطبق على غيره .

وهى كذلك معتمدة الاعتماد كله على أذواق مصدرى هذه الأحكام دون نظر إلى قاعدة تبنى عليها ، فالذوق الشخصى هو المقياس الأوحد لنقد الشعر والشعراء ، ولم يصل هذا الذوق بتجاربه الكثيرة وموازنته بسائر الأذواق إلى استخلاص نقطة وسط تلتقى عندها الأذواق المختلفة .

فالطبيعة المواتية والفطرة السليمة كانت المختبر الذى تختبر به الآثار الفنية عند القدماء ، ولكن ذلك لا يغض بحال من سلامة هذه الآراء إذا بعد صاحبها عن المؤثرات الخارجية عن العمل الأدبى ، وكان هذا العمل الأدبى وحده هو مجال الحكم من غير نظر إلى المصدر . ونحن لا نستطيع أن نتجاهل أثر الذوق فى النقد ولا أن ننكر للأحكام التى تصدر عنه حتى فى العصور الحديثة بعد أن استقل النقد الأدبى بأسسه وتعاليمه وألفت فيه الكتب لعلماء من أمم مختلفة .

وليس من شك فى أننا لا نستطيع أن ندرك طعم طعام أو شراب مالم نتذوقه بأنفسنا ولا يمكن أن يغنينا عن هذا التذوق الشخصى أى تحليل كيماوى أو تقرير خبراء ، وكذلك الأمر فى الفنون كافة ، فأى وصف للوحة زيتية أو تمثال من الرخام لا يمكن أن يغنى عن الرؤية المباشرة ، وكذلك الأمر فى الأدب ، فذوقنا الخاص هو أساس كل فهم له بحيث يبدو النقد للذوق أمراً مشروعاً .

وهو بعد حقيقة واقعة حتى عند العلماء من النقاد المحدثين (فالتأثرية) قائمة فى أساس كل نقد[1] حتى لنرى ناقدا عالما كلنسون يقول : إذا كانت أولى قواعد المنهج العلمى هى إخضاع نفوسنا لموضوع دراستنا لكى ننظم وسائل المعرفة وفقا لطبيعة الشيء الذى نريد معرفته فإننا نكون أكثر تمشيا مع الروح العلمية بإقرارنا بوجود التأثرية فى دراستنا وتنظيم الدور الذى تلعبه فيها ، وذلك لأنه كلما كان إنكار الحقيقة الواقعة لايمحوها فإن هذا العنصر الشخصى الذى نحاول تنحيته سيتسلل فى خبث إلى أعمالنا ، ويعمل غير خاضع لقاعدة ، ومادامت التأثرية هى المنهج الذى يمكننا من الإحساس بقوة المؤلفات وجمالها ، فلنستخدمه فى ذلك صراحة ولكن لنقصره على ذلك فى عزم ولنعرف مع احتفاظنا به كيف نميزه ونقدره ونراجعه ونحدده، وهذه هى الشروط الأربعة لاستخدامه ، ومرجع الكل هو عدم الخلط بين المعرفة والإحساس واصطناع الحذر حتى يصبح الإحساس وسيلة مشروعة . . وإذن فالنقد الذوقى نقد مشروع وحقيقة واقعة[2] .

وهذا الذى رأيناه من غلبة الذوق وتأثيره فى الأحكام الأدبية مذ وجد الشعر العربى لاينقطع سببه فى العصور التالية ، بل إننا سنرى أن إعمال الذوق الخاص فى تقدير النص الأدبى سيظل واضح الأثر فيما بعد . وفى القرن الأول الهجرى كثر النقاد واتسع مجال القول عندهم ، وحاولوا أن يضعوا أحكاما عامة للمعانى وأحكاما عامة للأساليب وارتقى بذلك النقد وكثرت الموازنة بين شعر وشعر ، وشاعر وشاعر ، ورأينا للمرة الأولى شيئا من الأحكام على الشعراء وتقسيمهم إلى طوائف وطبقات .

على أن الذين اضطلعوا بهذا العمل للمرة الأولى هم رجال اللغة والنحويون

---

(١) النقد المنهجى — ٦ (٢) منهج البحث فى الأدب واللغة — ٢٩

الذين سماهم الناس أدباء وهذا (ابن الأنبارى) فى كتابه « نزهة الألباء فى طبقات الأدباء » يشرح هذه الكلمة فيضيف إليها مايعرفها بقوله «أى النحاة» ويجعل فيه بعض الأدباء الى جانب مجموعات كبيرة من النحاة واللغويين من أمثال أبي عمرو بن العـــلاء ويونس بن حبيب والأصمعى وأبى عبيدة والمفضل الضبى .

ولا شك أن كل واحد من هؤلاء الأعلام ينظر إلى النص الشعرى من الزاوية التى يجيد النظر منها ، فلكل واحد منهم ناحيته التى أتقنها وأجاد فيها ، ويصدق ذلك قول الجاحظ : طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لا يحسن إلا غريبه ، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبى عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبـار وتعلق بالأيام والأنساب [1] .

ولقد كانت هذه الثقافات المتشعبة سبباً فى تشعب بحوث النقد وتنوع أساليبه أما النقد الأدبى الفنى الخالص فلا نكاد نجد فيه دراسة منسقة منتظمة.

٣

ومن أقدم الذين قدموا إلينا دراسة أدبية منظمة ـ بل لعله أقدمهم ـ رجل من رجال العربية ، اجتمعت فيه مواهب كل هؤلاء العلماء والأدباء هو (محمد بن سلام الجمحى)[2] الذى كان نحوياً ولغوياً وراوية وعالمـا

---

(١) العمدة : ج ٢ ص ٨٤ .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن سلام عبد الله بن سالم البصرى ، كان من جملة أهل الأدب وألف كتاباً فى طبقات الشعراء وأخذ عن حماد بن سلمة وروى عنه الإمام أحمد بن حنبل وأبو العباس ثعلب . وقال محمد بن أحمد بن يعقوب بن شبة :=

بالشعر ، وجدناه يخصص مؤلفاً لدراسة الشعراء ، ويعمد إلى تقسيمهم إلى طبقات ، ويسمى كتابه (طبقات الشعراء) .

وهو فى هذا الكتاب يضع بعض الأسس الفنية للنقد الأدبى ، منها وجوب تخصص جماعة له من العلماء المثقفين المختصين به ، كما أن كل صناعة من الصناعات تحتاج إلى متخصصين يعرفون مداخلها ، ويفقهون سرها ، « وللشعر صناعة وثقافة يعرفها العلم كسائر أصناف العلم والصناعات منها ما تثقفه العين ، ومنها ماتثقفه الأذن ، ومنها ماتثقفه اليد ، ومنها مايثقفه اللسان [1] » .

وهو من جهة أخرى يرى أن الأحكام التى يصدرها العلماء لا تتسنى إلا لذوى الدربة والممارسة الذين راضوا أنفسهم على مثل هذا اللون من الصناعات ، ويشير حينئذ إلى أن الذوق الخاص لكل إنسان لا يكفى ، وإنما الذوق المعتمد هو ذوق الخبير بالشعر ، ويشير إلى التفاوت العظيم بين خبير وخبير، بحسب دربته وطول تجربته « وإن كثرة المدارسة لتعدى على العلم ، قال محمد : قال خلاد بن يزيد الباهلى لخلف بن حيّان أبى محرز — وكان خلاد حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله — بأى شىء ترد هذه الأشعار التى تروى ؟ قال له : هل تعلم أنت منها ما إنه مصنوع لا خير فيه ؟ قال : نعم ! قال : أفتعلم فى الناس من هو أعلم منك بالشعر ؟ قال : نعم ! قال : فلا تنكر أن يعرفوا من ذلك مالا تعرفه أنت ! » .

= حدثنى جدى قال : كان ابن سلام له علم بالشعر والأخبار ، وهما من جملة علوم الأدب .. توفى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين وكان ذلك فى السنة التى مات فيها الواثق وبويع المتوكل ابن المعتصم (نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ٢١٧ — ٢١٨) .

(١) طبقات الشعراء ٦ .

ومن ذلك ماروى أن قائلا قال لخلف الأحمر : إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته ، فما أبالى ما قلت فيه أنت وأصحابك ! فقال له : إذا أخذت أنت درهما فاستحسنته ، فقـــال لك الصراف إنه ردىء ، هل ينفعك استحسانك له ؟ ! (١) .

ومن هذا نفهم أن ابن سلام أضاف إلى مقياس الذوق مقياساً آخر هو مقياس الرأى والاتفاق على الحكم عند العارفين من أهل الصنعة .

تعرض ابن سلام كذلك لأمر كان يشغل بال معاصريه ، وتكلم فيه بعض العلماء والأدباء فى زمنه ، ذلك هو أمر الشعر المطبوع الذى صحت لديه ولدى ثقاته نسبته إلى أصحابه ، وإلى الشعر المصنوع الذى وضعته الرواة لأسباب شرحها فى كتابه ، فبين دواعى الافتعال وأسباب معرفته بأدلة عقلية لا تقبل الشك ، وتعرض فى هذا المقام لجماعة من الرواة اتهموا باصطناع الشعر وإذاعته فى الناس مدفوعين إلى ذلك بدافع العصبية أو بالرغبة فى ذيوع الشهرة بالانفراد برواية ما لم يستطع الرواة روايته . وهذا بحث سليم يدخل فى صميم النقد وله صلة وثيقة بالمنهج النفسى فى دراسة الأدب ونقده .

ثم يدع هذه المقدمات النافعة المفيدة إلى ما ألف له الكتاب من تقسيم الشعراء إلى طبقات ، ذاكراً عوامل تقديمه طبقة على طبقة ، وهو فى هذا الكتاب لا يتعرض للمأثور من شعر هذه الطبقة أو تلك فيحلله تحليلا فنياً مبيناً أسباب التقديم والتأخير ، ولكنه يذكر الجيد من غير أن يعرف بأسباب الاستجادة . فليست لابن سلام فى هذه الناحية « أحكام على الشعر نصاً ، بل أحكام على الشعراء ، وتنويه بما لهم من القول الطيب وبما لهم

(١) ص ٧ .

من نظراء وبالمنزلة التى هم أهل لها ، ويورد ابن سلام فى هذا الشأن بعض ماذكره الناس قبله ، وكثيراً ما يكون له رأى مبتكر لم يسبق إليه [1] » .

كانت غاية ابن سلام كما يبدو من عنوان كتابه وضع كل شاعر فى طبقته الملائمة وتفضيل هذه الطبقة على تلك ، والمفاضلة بين هذا الشاعر وذاك . فالجاهليون عشر طبقات بحسب جودة شعرهم وكثرته ، ثم يترك مقياس القلة والكثرة إلى الإجادة فى غرض واحد من أغراض الشعر الكثيرة وهو الرثاء ، فيجعل طبقة جديدة يسميها طبقة أصحاب المراثى ثم ينتقل إلى دراسة الشعراء حسب مواطنهم ، فشعراء المدينة وشعراء مكة وشعراء الطائف وشعراء البحرين وشعراء يهود المدينة ، ثم ينتقل إلى الإسلاميين فيقسمهم عشر طبقات أيضاً ، ويجعل التاسعة طبقة الرجاز .

ومن هذا نستطيع أن نستخلص أن ابن سلام قد عالج فى كتابه عدة موضوعات تعد من صميم ما يبحث النقاد فى دراساتهم للأدب ، فنظر إلى الزمان كما نظر إلى المكان ، وتنبه إلى أثر البيئة فى الشعر ، وهذا البحث من أهم المباحث التى يعنى بها دارسو الأدب ونقدته . ويظل كتاب ابن سلام من أهم ما كتب فى النقد الأدبى عند العرب ويظل ابن سلام من أجلاء النقاد صحة ذهن ونفاذ بصر بما بسط من القول وأوضح من الدلائل وبين من العلل .. ففى كتابه صورة لحياة النقد منذ نشأ فى الجاهلية إلى أوائل القرن الثالث ، وصورة للأذواق المختلفة . . ولقد كانت الأفكار فى النقد مبعثرة لا يربطها رابط ، حتى جاء ابن سلام فضم أشتاتها ، وألف بين المتشابه منها بروح علمى قوى ، ثم إن الأصول التى عرفت قبله فى النقد لم توطد ولم توكد ولم تستقر ولم ترسخ إلا فى كتاب « طبقات الشعراء » .

---

(١) تاريخ النقد الأدبى ٨٢ .

هذا إلى أن الكتاب أقدم وثائق النقد المدونة فيه كثير من آراء الأدباء واللغويين التى انتفع بها فيما بعد من كتبوا فى الأدب أو فى سير الشعراء [1] .

وقد عاصر ابن سلام علم من أعلام الفكر العربى هو أبو عثمان الجاحظ الذى استطاع أن يتصور موضوع البيان العربى فى صورة دراسة واسعة تعالج على شئ من الأسس النظرية وتحشد لها النصوص ، ويستعان عليها بنتف من آراء الأمم الأخرى فى الموضوع ، وأنت على الرغم من طريقة الجاحظ الاستطرادية ، وعلى الرغم من أنه لم يبن دراسته على نظرية بعينها يناقشها ويطبقها فإنك تتبين فى كتابه (البيان والتبيين) تنبها إلى النواحى العامة التى لا بد من اعتبارها فى دراسة البيان ، لاسيما ماتصل منه بالجماهير كالخطابة والجدل والمحاجة بين أرباب النحل ، وقد بحث الجاحظ فيما بحث طبيعة اللغة وعلاقة الألفاظ والمعانى وصفات الكلام المبين ، وما يعرض له من وضوح وغيره ومن إيجاز وإطناب ، وفصل القول فى مخارج الحروف وصحتها وسلامتها من العيوب ، وصور الهيئة التى يجب أن يكون عليها الخطيب فى مظهره وطرق تعبيره [2] .

وهكذا نرى الجاحظ يلم بكثير من الموضوعات المتصلة بالأدب ونظمه ونقده ، ولكنه يتكلم كلاما عاما ، ليس فيه تحليل كاف لموضوع بذاته ، ولعل الذى أضاع هذه الثمرة المرتجاة من إمام من أئمة البيان العربى ، هو الجاحظ نفسه ، هو أسلوبه الاستطرادى الذى ينتقل من جد القول إلى هزله ، ومن نادرة ظريفة ، إلى حكمة طريفة ، ومن هنا « كانت الإبانة

---

(١) المصدر السابق ٩٠ . (٢) من الوجهة النفسية ١٠٠ .

عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تصانيفه ومنتشرة فى أثنائه ، فهى ضالة بين الأمثلة ، لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير [1] » .

ومع ذلك فالعرب لم يخطئوا حين عدوا الجاحظ مؤسس البيان العربى وليس ذلك لأنه وصل بجهده الخاص إلى قاعدة بيانية بعينها ، فشخصيته القوية تكاد تكون معدومة فى كتابه (البيان والتبيين) ولكن لأنه جمع فى هذا الكتاب طائفة من النصوص توضح لنا توضيحاً حسنا كيف كان العرب يتصورون البيان فى القرن الثانى والنصف الأول من القرن الثالث وتعطينا صورة مجملة لنشأة البيان العربى إن لم تسمح لنا بتأريخ هذه النشأة [2].

ومن المؤلفات المعدودة فى هذا الفن كتاب « الشعر والشعراء » الذى ألفه ابن قتيبة [3] ، وأخبر فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم فى أشعارهم وقبائلهم وأسماء آبائهم ، وعما يستحسن من أخبارهم ويستجاد من أشعارهم وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ فى ألفاظهم ومعانيهم ،

---

(١) أبو هلال العسكرى : كتاب الصناعتين ص ٧ .

(٢) البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر لطه حسين (مقدمة نقد النثر) ٣ — ٤ .

(٣) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى النحوى اللغوى الكاتب ولد فى الكوفة سنة ثلاث عشرة ومائتين وتثقف على أهلها وسكن بغداد وتولى قضاء الدينور فنسب إليها وكان رأسا فى العربية واللغة والأخبار وأيام الناس ثقة دينا فاضلا ، مستقل الفكر جريئا فى قول الحق ، وتوفى سنة سبع وستين ومائتين ، ومن أشهر كتبه الشعر والشعراء (وقد يسمى طبقات الشعراء) ، كتاب المعارف . أدب الكاتب ، عيون الأخبار ، الإمامة والسياسة ، كتاب الأشربة .

وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون ، وأخبر فيه عن أقسام الشعر وطبقاته ، وعن الوجوه التى يختار الشعر عليها ويستحسن لها ، وكان أكثر قصده للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم فى الغريب وفى النحو وفى كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد أراد ابن قتيبة أن يكون مجدّداً فى تقدير الشعر والحكم على الشعراء ، فلم ينظر إلى أحكام القدامى على أنها أحكام ذات قداسة يجب التسليم بها ولا تجوز مناقشتها أو ابتداع رأى مخالف لها .

ولعل ابن قتيبة بهذا كان أول داع للتخلص من قيود القديم الذى كبل العقلية العربية حقبا طويلة بأغلال ثقيلة لا نزال نحس وطأتها فى أيامنا ، فيما نرى من أن كثيراً من علماء الأدب يؤثرون البقاء فى الدائرة التى خطها الأسلاف مع بعد العصر وتباين البيئات واختلاف الثقافات ، ولنا أن نعد ابن قتيبة أوّل ثائر على التقاليد فى الشعر وعلى أحكام القدامى ، حين هاله تعصب علماء عصره للقدامى وتحيزهم الظاهر لهم ، وانتقاص كل جديد مهما كان بالغ الجودة ، استمع إليه يقول : ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه .

فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه فى متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب عنده إلا أنه فى زمانه أو أنه رأى قائله (١).

---

(١) الشعر والشعراء ٦ .

وبأسلوب منطق بديع يصل ابن قتيبة إلى حقيقة ثابتة ، وهى أن الله لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر، وجعل كل قديم حديثا فى عصره . وكل شرف خارجية فى أوله ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا الحديث وحسن حتى لقد هممت بروايته ، ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم ، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا ، كالخريمى والعتابى والحسن بن هانىء وأشباههم فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرنا له ، وأثبنا عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ولا حداثة سنه ، كما أن الردىء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه [1] .

كان ابن قتيبة كما رأينا فى هذه الكلمات حرا مستقلا فى رأيه ، لا يطمئن إلى آراء القدماء السائدة فى عصره إلا بعد اقتناع ، ولكنه على الرغم من هذا الشعور لم يستطع أن يضع مقاييس جديدة يقيس بها الشعراء ويقسمهم إلى طبقات كما فعل ابن سلام فى طبقات الشعراء ، ولكنه تطرق فى بحثه إلى أمور تعد من صميم البحوث البلاغية التى استقرت بعد ابن قتيبة ، ومن هذه الأمور تكلمه فى اللفظ والمعنى وتقسيمه الشعر بحسبهما أقساما ، كما تكلم فى الشعر المطبوع والشعر المصنوع ، وإن كان الطبع عنده يعنى الارتجال ، وتكلم عن دواعى الشعر التى تهيج لقوله ، وتكلم عن الضرورات الشعرية .

« ومهما استعان ابن قتيبة فى نقده بطرق العلم ، فقد كان رأسا فى العربية مؤمنا بالذوق الأدبى مقويا للصبغة القديمة فى أكثر ماجاء به [2] »

---

(١) الشعر والشعراء ٧ (٢) تاريخ النقد الأدبى ١٤٣

وقد أخرج القرن الثالث أيضا رجلا من رجال البلاغة بمعناها المعروف ، بل لعله أقدم رجالها ، وهو الخليفة العباسى عبدالله بن المعتز [١] الذى ألف كتابه « البديع » وعرض فيه ما استطاع جمعه من نصوص القرآن الكريم وأحاديث الرسول وكلام الصحابة والأعراب ثم من عيون الشعر الجاهلى والإسلامى والعباسى ، مما اشتمل على محسن من المحسنات البديعية التى كان القدماء يعرفونها ويحلون بها أدبهم دون أن يضعوا لها أسماء ، فسماها ابن المعتز ، ومثل لها بما استطاع من الشواهد التى سبقت عصره ، وكان هدفه من هذا التأليف أن يبين أن المحدثين الذين ذكرهم والذين نسب إليهم استخدام التحسين البديعى لم يكونوا مبتدعيه ، وليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن البديع ، ولكنه كثر فى أشعارهم ، فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم ، ثم أكثر حبيب بن أوس الطائى منه ، فأحسن فى بعض ذلك وأساء فى بعض ، وتلك عقبى الإفراط ! وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين فى القصيدة وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع [٢] .

وقد كان البديع يسمى « اللطيف » حتى سماه بهذا الاسم مسلم بن الوليد ،

---

(١) أبو العباس عبدالله بن المعتز بن المتوكل من الخلفاء العباسيين تحزب له جماعة من الجنود الأتراك وخلعوا المقتدر سنة ٢٩٦ وبايعوا لابن المعتز وسموه المرتضى بالله أقام يوماً وليلة ثم تحزب أبناء المقتدر وحاربوا أعوان ابن المعتز وأعادوا المقتدر وقتلوا ابن المعتز سنة ٢٩٦ وكان شاعراً مطبوعاً وهو من الأدباء والعلماء تثقف على المبرد وثعلب وغيرهما وله كتاب الأدب مختصر طبقات المشعراء وكتاب البديع .

(٢) البديع ١٥ — ١٦ .

وذكره الجاحظ فى « البيان والتبيين» بقوله : والراعى كثير البديع فى شعره وبشار حسن البديع والعتابى يذهب شعره فى البديع ، ومن قوله فى ذلك « والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان » على ما نعرف من تعصب الجاحظ فى كتابته للعرب ولغتهم وأدبهم . وفى موضع آخر من بحثنا هذا سنفصل جهد ابن المعتز فى التأليف البلاغى .

٥

أما الإفادة من العلم ووسائله فى تقدير قيم الشعر فإنها تبدو واضحة فى مؤلف من طراز جديد ، وفى كتاب ينهج نهجاً جديدا .

أما المؤلف فهو قدامة بن جعفر البغدادى[1]، ذلك الرجل الذى لم يكن عربياً فى أصله ولاعربياً فى أسلوب تفكيره ، وأما الكتاب فهو « نقدالشعر » الذى نعده نقطة التحول فى الأساليب النقدية ، وتوجيها توجيهاً جديداً لا عهد للنقد به .

كان النقد كما قدمنا فناً فى أكثر مظاهره ، يستلهم الإحساس الفطرى البعيد عن أساليب التفكير ، والخالى من الفلسفة والقواعد المنطقية ، فجاء

---

(١) كان نصرانياً وأسلم على يد المكتفى بالله ، وكان أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء وممن يشار إليه فى علم المنطق ، أدرك زمن ثعلب والمبرد وأبى سعيد السكرى وابن قتيبة وطبقتهم والأدب يومئذ طرىء فقرأ واجتهد ، وبرع فى صناعتى البلاغة والحساب وقرأ صدراً صالحا من المنطق وهو لائح على ديباجة تصانيفه ، واشتهر فى زمانه بالبلاغة ونقد الشعر ، وصنف فى ذلك كتباً منها كتاب نقد الشعر وقد تعرض ابن بشر الآمدى إلى الرد عليه فيه . . مات سنة سبع وثلاثين وثلثمائة فى أيام المطيع (وبقية أخباره فى معجم الأدباء ج ١٧ ص ١٢) .

قدامة فجعله علما ، وجعل للفن قواعد يحكم بها عليه بأسلوب جديد هو أسلوب المنطق الذى يشرح علة الاستحسان ، ويبين سبب الاستهجان ، وكان ذلك صدى لثقافة جديدة طارئة على الثقافة العربية ، تلك هى الثقافة اليونانية ، وفى مقدمتها الأفكار والآراء التى تضمنها كتاب « الخطابة » لأرسطو الذى نقل فى هذا القرن إلى اللسان العربى ، وكان جهد قدامة كما يبدو تطبيقاً لنظريات هذا الكتاب ، وتحكيما لقواعد الفلسفة فى الحكم على معانى الشعر العربى ، فكان قدامة أول ناقد فتح فى نقد الشعر العربى باب النظر والفلسفة ونظم بعض المباحث البلاغية التى جاء العلماء من بعده فأتموا تنظيمها وأكملوها.

ولقدامة أثر جديد فى علم البديع الذى ابتدعه ابن المعتز فقد أضاف الى محسنات ابن المعتز كثيرا من المحسنات .

وتحملنا الرغبة عن التكرار إلى الاكتفاء بما تقـــدم عن قدامة فإن للإفاضة فى شرح بلاغته ومنهجه موضعـا آخر حين نعرض لأثره فى أبى هلال وبلاغته .

٦

غير أن هذا المذهب الجديد الذى قام على أساس علمى محض وابتدعه قدامة وجد من العلماء من تنكر له ، وحتم ضرورة العودة إلى الأسلوب الأصلى : أسلوب تحكيم الذوق ودراسة الأدب بموازنته فى ألفاظه ومعانيه بنظائره فى تلك النواحى ، والعودة إلى دراسة الأدب ونقده ببيان مافيه من أوجه الحسن أوالقبح ، وإصابته الغرض الذى رمى إليه الأديب ، ونقد أسلوبه بتبيان حظه من الجزالة أوالسلالة ، والطبع أو التكلف ، ومافيه من فضول الكلام أو الإخلال ، وتبحث فى حسن التئام أجزاء الكلام بعضها ببعض ، إذ ليس فى استطاعة الأساليب العلمية التى تلجأ إلى التعريف والتقسيم

والتقنين أن تولد القدرة على إدراك الجمال الفنى على حقيقته ، وأن تجعل القارىء أو المستمع يحس باللذة الفنية التى حواها الأثر الأدبى وأن تصل إلى منبع الإحساس الداخلى ، والعاطفة الكامنة باحكام عقلية .

ذلك النظر إلى المنهج العلمى فى تناول الأدب فى دراسته ونقده تنكر له علم من أعلام النقد الأدبى فى القرن الرابع هو الآمدى [1] مؤلف كتاب «الموازنة بين أبى تمام والبحترى» وقد رأى فى جملة مارأى أن النقد صناعة تحتاج كما تحتاج صناعة الشعر إلى طبع صاف وقريحة مواتية ، ودربة ومران وطول معاناة . وكان جل اعتماده — كما سمّى كتابه — على الموازنة والتذوق ، وبيان أسباب التفوق ، وعلل القعود والاتضاع وأرجع هذه الأسباب إلى حكم الذوق السليم مع الابتعاد عن أساليب العلم التى استنها فى نقد الأدب العربى صاحب « نقد الشعر » ، بل لقد تتبعه الآمدى فعدد أخطاءه فى النقد فى كتاب سماه « تبيين غلط قدامة بن جعفر فى نقد الشعر » . وهذا الكتاب لم يقع بين أيدينا ، ولعل فيه خيراً كثيراً ، وقد أشار إلى هذا المؤلف الآمدى نفسه فى كتاب الموازنة فقال بعد كلام فى المعاظلة . . . [ذكروا هذه الجمل ثم مثلوا لها أمثلة تزيد ما قاله عمر رضى الله عنه وضوحاً وبياناً إلا أبو الفرج قدامة بن جعفر فإنه ذكر ذلك فى كتابه المؤلف فى الشعر ، ومثل له أمثلة

---

(١) الحسن بن بشر بن يحيى الآمدى النحوى الكاتب أبو القاسم كان حسن الفهم جيد الرواية والدراية أخذ من الأخفش والزجاج والحامض وابن السراج وابن دريد ونفطويه وغيرهم ، وله شعر حسن ، ومن تصانيفه المختلف والمؤتلف فى أسماء الشعراء ، فعلت وأفعلت ، فرق ما بين الخاص والمشترك من معانى الشعر ، الموازنة بين أبي تمام والبحترى ، تبيين غلط قدامة بن جعفر فى نقد الشعر (وبقية كتبه فى بغية الوعاة ص ٢١٨) توفى سنة إحدى وسبعين وثلثمائة .

فغلط فى أمثلة المعاظلة غلطاً قبيحاً ، وقد ذكرت ذلك فى كتاب بينت فيه جميع ما وقفت عليه من سهوه وغلطه [1]] .

والآمدى فى موازنته يفصل أسباب الحكم ثم يحكم ، ويوضح خصائص كل من الشاعرين وفضله على صنوه ، وله ميزة على كل من تقدمه من النقاد أنه لا يرضى التعميم المسرف والأحكام المرتجلة ، كأن يقول أحد النقاد : إن فلانا أشعر العرب بهذا البيت أو بهذه القصيدة ، بل إنه يحكم أحكاما موضعية ، ويعطى كل جزء أو قصيدة حظها من الرأى بالاستحسان أو الاستهجان ، ويرفض الحكم العام ، وتلك نغمة جديدة نغمة الإنصاف والتحيز إلى جانب الصدق ، فليس المجيد فى موضع مجيداً فى غيره ، ولا المقصر فى معرض مقصراً أبداً فيقول : « وأنا أذكر بإذن الله الآن فى هذا الجزء المعانى التى يتفق فيها الطائيان ، فأوازن بين معنى ومعنى وأقول أيهما أشعر فى ذلك المعنى بعينه ، فلا تطلبنى أن أتعدى هذا إلى أن أفصح لك بأيهما أشعر عندى على الإطلاق ، فإنى غير فاعل ذلك ، لأنك إن قلدتنى لم تحصل لك الفائدة بالتقليد [2] » !

ومنهج الآمدى العام فى الموازنة التفصيلية بين الشاعرين « توضيح لمذاهب الشعر العربى واستنباط لأصالة كل منهما فى كل معنى عبرا عنه ، ثم مقارنة ماقالاه بما قاله غيرهما من الشعراء مع الحكم على تلك الأصالة حكما يقوم على الذوق والحقائق الإنسانية العامة وإن لم يخل الأمر من تحكم ، ثم الوقوف فى تفسير التفاوت عند النزعة الفنية دون أى محاولة ليرد ذلك إلى الطبيعة النفسية لكل شاعر ، وذلك لفطنة الناقد إلى أنه لا علاقة بين شعر هذين الشاعرين وتجارب حياتهما [3] » .

---

(١) الموازنة ١٢٥ . (٢) الموازنة ١٧٦ . (٣) النقد المنهجى ٢٩٨ .

ومن هذا اللون الذى ينفر من النظر والرجوع إلى أساليب العلم فى تذوق الأدب القاضى الجرجانى[1] مؤلف كتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » وهو فى كتابه هذا يعرض لبعض ما أخذ على المتقدمين من شعراء الجاهلية من الأخطاء ليتخذ من ذلك مسوغا لما أخذ اللغويون والنحويون على أبى الطيب ، ويتناول الزمان والمكان ويوضح أثرهما فى التفاوت بين الشعراء ، ويتناول البديع وما استحدث من فنونه فيذكر منها الاستعارة والتجنيس والمطابقة والتصحيف التى أضافها المحدثون إلى مقاييس النقد « وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء فى الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته وتسلم بالسبق لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب . وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ، وتحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض . وقد يقع ذلك فى خلال قصائدها ويتفق لها فى البيت بعد البيت على غير تعمد وقصد ، فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن وتميزها عن أخواتها فى الرشاقة واللطف تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه البديع ، فمن محسن ومسىء ومحمود ومذموم ومقتصد ومفرط[2] . »

والجرجانى فى كتابه رجل أديب اكتملت لديه آلة الأدب فرأى أن « أقل الناس حظا فى هذه الصناعة من اقتصر فى اختياره ونفيه ، وفى استجادته

---

(١) على بن عبد العزيز أبو الحسن قاضى الرى فى أيام الصاحب بن عباد ، كان أديبا أريبا كاملا وهو أستاذ إمام البلاغة عبد القادر الجرجانى . طوف فى صباه البلاد واقتبس العلوم والآداب ، وله عدة تصانيف منها : كتاب تفسير القرآن المجيد ، كتاب تهذيب التاريخ ، كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه . مات بالرى سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة

(٢) الوساطة بين المتنبى وخصومه ٣٣

واستسقاطه على سلامة الوزن وإقامة الإعراب وأداء اللغة ، ثم كان همه وبغيته أن يجد لفظاً مروقا وكلاما مزوقا قد حشى تجنيساً وترصيعاً ، وشحن مطابقة وبديعاً ، أومعنى غامضاً قدتعمق فيه مستخرجه وتغلغل إليه مستنبطه، ثم لايعبأ باختلاف الترتيب واضطراب النظم وسوء التأليف وهلهلة النسج ، ولا يقابل بين الألفاظ ومعانيها ، ولا يسبر ما بينهما من نسب ولا يمتحن ما يجتمعان فيه من سبب ، ولا يرى اللفظ إلا ما أدى المعنى ولا الكلام إلا ما صور له الغرض ولا الحسن إلا ما أفاده البديع ، ولا الرونق إلا ما كساه التصنيع [1] .

وفى هذا القول خلاصة رأى القاضى الجرجانى : النفور من مذاهب النحويين واللغويين فى النقد ، والتنفير من الصنعة إلا إذا جاءت طائعة غير مستكرهة . فهو فى هذه الناحية شبيه كل الشبه بصاحب الموازنة بين الطائيين ، وذوقهما فى آرائهما ذوق عربى أصيل . ونقدهما نقد فنى ذوقى . وهو مع ذلك نقد موضوعى فيه النزر اليسير من القواعد غير أن النقد الأدبى لما كان مبنياً على الذوق فلم ينس أصله الفنى .

تلك لمحات سريعة ونظرات خاطفة تقفنـــا على ما بذل السابقون والمعاصرون لأبى هلال من جهد فى النقد الأدبى ، وكان أبو هلال ثمرة كل تلك الجهود .

٧

وهذه النقدات المتفرقة كانت نواة علم جديد من علوم العربية أو العلوم اللسانية هو علم البلاغة ، فإن هذه الملاحظات وتلك الآراء قد استحالت فيما بعد إلى قوانين علميه ترشد الكتاب والشعراء إلى مايجب اتباعه فى التعبير

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه ٣٣ .

عن العقل والشعور وهى قوانين البـــلاغة وأبواب المعـانى والبيان والبديع .

ولقد عاش النقد والبلاغة مختلطين من أقدم عصورهما . . وليس هذا بالأمر الغريب بل هو طبيعى ، إذ كل من النقد والبلاغة يدور حول تحقيق الصدق والقوة والجمـال فى الأداء والتعبير الأدبى ، فالبلاغة تأخذ بيـد الأديب وتهديه إلى الصواب ، والنقد يقفه على ماأصاب من حسن وماتورط فيه من قبح فهما متحدان موضوعا [1] .

ولقد فرق الأستاذ الشايب بين النقد والبلاغة من وجوه [2] :

(الأول) أن البلاغة إيجابية سابقة فإنها تضع للأديب القوانين التى تساعده على التعبير وتأليف الكلام الواضح الجميل ، ولكن النقد يفرض أن الكلام قد تم إنشاؤه ثم يتخذ من قوانينه مقاييس يقدر بها هذا الكلام لبيان ما فيه من محاسن أو مساوئ ولذلك يأتى متأخر الوظيفة .

(الثانى) أن البلاغة تعنى بالأسلوب أكثر فتفرض أن الأديب عنده مادة يريد أداءها مهما تكن قيمتها ، ثم ترسم له طرق الأداء شعراً ونثرا ، خطابة أو قصصا أو تقريراً أو تمثيلا . أما النقد فيعنى بالأسلوب والمادة جميعا ، ويتناولهما بالتقرير على حد سواء ، وإن كانت مقاييسه عامة قليلة .

(الثالث) أن الأصل فى البلاغة أنها مرتبطة بالقراء والسامعين ، فالبليغ ملتزم بملاحظة حاجتهم الثقافية ومستواهم فى الفهم وما يحيط بهم من مؤثرات ، ثم يؤلف كلامه مطابقاً لهذه الأحوال ، والأصل فى الأدب

---

(١) أصول النقد الأدبى ٥١ . (٢) المصدر السابق ٥١ — ٥٢ .

الاتصال بالأديب نفسه وتقرير مواهبه وآرائه فى صدق ووضوح ، وعلى القراء أن يعدوا أنفسهم لدراسته وفهمه ، على أن النقد والبلاغة كثيراً ما يلتقيان إذا ماتقاربت حاجة الكاتب وقرائه ، وكان أديباً اجتماعياً يحسن الاتصال بعصره ومعاصريه .

ونحن نضيف إلى هذه الوجوه وجها رابعاً هو اعتماد البلاغة على الأساليب العلمية والتقسيمات العقلية والمنطقية والجدل ، واعتماد النقد أكثر ما يعتمد على الذوق وما يثيره الأثر الأدبى فى نفس القارىء أو السامع من أحاسيس وانفعالات .

منابع بلاغته

١

أبو هلال أحد أولئك الأفذاذ الذين منحوا قدرة بارعة على الاطلاع وصبراً على الدرس والتحصيل ، فقرأ وقرأ كثيراً ، وانتفع بقراءته على نحو لم ينتفع بمثلها كثير غيره ، وظهر مدى هذا الانتفاع واضحاً جلياً فيما خلّف من تراث علمى خالد .

وإذا كان العلم علمين : علم رواية وعلم دراية ، فقد أجاد العسكرى فى الناحيتين ، وديوان « المعانى » أكبر شاهد على فطرته السليمة وقدرته على الحفظ والاستيعاب ، وكتاب « الصناعتين » أعظم دليل على الحافظة الواعية والبصيرة النفاذة .

ونعتقد أنه لولا شواغل الحياة ولولا عنتها الذى اضطره أن يجلس فى السوق يبيع ويشترى ليحفظ ماء وجهه أن يراق فى السؤال ، لانتظرنا منه أكثر مما رأينا ، ولقرأنا له أضعافاً مما كتب وألف ، ولكانت قدرته على التصرف والابتكار أكثر وضوحاً ، ولكان علم الأعلام فى العلم والأدب ، فلم يكن ينقصه الصبر على مرارة التحصيل ، والجلد على إدامة الاطلاع ، والمثابرة على الجلوس إلى الأساتذة ، ولا تنقصه الفطنة التى ترشحه أن يحل أعظم محل ، وأكرم منزل بين الأدباء والنقاد بل بين رجال العقل والفكر ، ولو فى تلك الدائرة المحدودة : دائرة الأدب ونقده فى الأقل .

أراد العسكرى أن يؤلف فى الصناعتين : الكتابة والشعر ، ليجعل كتابه

أكثر إحاطة وأعظم نفعاً ، من كتاب قدامة « نقد الشعر » فشمر عن ساعد الجد ، واستعان فى تأليفه بجل ما كتب الكاتبون الذين عالجوا مثل ما عالج أو بعض النواحى التى تتصل بما عالج .

وقد أشرنا فى الفصل السابق إلى جهود أولئك السابقين فى دراسة الأدب ونقده ، ذكرنا منهم ابن سلام وكتابه « طبقات الشعراء » والجاحظ وكتابه « البيان والتبيين » وابن قتيبة وكتابه « الشعر والشعراء » وابن المعتز وكتابه « البديع » وقدامة بن جعفر وكتابه « نقد الشعر » والآمدى وكتابه « الموازنة بين أبى تمام والبحترى » والقاضى الجرجانى وكتابه « الوساطة بين المتنبى وخصومه » . تلك أهم الكتب التى تتصل بفنون الأدب شعره ونثره ، وتحللها وتنقدها وتضع لها الأصول وتسن لها القواعد .

قرأ أبو هلال جلّ هذه الآثار قراءة فحص وإمعان ، واستطاع بنفاذ بصيرته أن يعى خير ما فيها ، وأن ينقد منها ما هو معيب سواء كان عيبه فى المنهج الذى سلكه المؤلفون أو فى الموضوع الذى عرضوا له .

نعم ! استطاع العسكرى أن يمخض هذه الكتب وأن يستخلص زبدتها فى كتبه ولا سيما كتاب « الصناعتين » الذى نستطيع أن نعده مجتمع أفكار هؤلاء السابقين مع اختلاف مذاهبهم ، وتباين مناهجهم فى البحث ، وأن يؤلف بين هذا المذهب وذاك ، وأن يوحّد تلك المناهج حتى لقد يكون فى استطاعة القارىء أن يجتزىء بكتاب « الصناعتين » عن هذه الكتب الكثيرة ، وإنه لواجد فيه الغنية كل الغنية .

فهذه الكتب التى تعرضت للأدب ونقده ، هى الموارد التى روى منها كتاب الصناعتين أو هى منابع بلاغة أبى هلال .

٢

كان من الطبيعى أن يديم العسكرى النظر فى كتاب « البيان والتبيين » الذى ألفه الجاحظ علم أعلام العقل والأدب فى العصر العباسى ، فقد رأى جمهرة الأدباء والكتاب يغالون فى الكتاب وفضل مؤلفه . ذلك أن الجاحظ أثنى على الكتاب ثناء خالداً حين قرر أنه لم يظفر بما أراد من علم الشعر إلا عند الأدباء الكتاب ، ففضلهم على أبى عبيدة والأخفش والأصمعى وأضرابهم من العلماء المشار إليهم ، فكان هذا القول داعية إعجابهم ، وسر هيامهم بشخصه وبكتابه وبما تضمن من آراء جعلوها مورد فصاحتهم ومنبع بلاغتهم ، فلا غرو أن يتخذه العسكرى إماماً ، وأن يشيد بكتابه وما حوى من الخطب والأشعار والأخبار ، ولا يجد ما يأخذه عليه إلا أن الإبانة عن حد البلاغة منثورة فى كتابه ، مبثوثة فى تضاعيفه . وأن ينظر العسكرى إلى اللفظ والمعنى كما نظر الجاحظ ، فيأخذ عنه رأيه فى تفضيل اللفظ وجعله مدار البلاغة ، والذهاب إلى أن الناس جميعاً متساوون فى الحظ من المعانى ، وهذا المبحث من أهم المباحث البلاغية التى عنى بها العسكرى فى كتاب « الصناعتين » وهو كذلك من أهم الأبواب فى « البيان والتبيين » .

وكذلك الباب الذى عقده العسكرى فى « القول فى تفسير ما جاء عن الحكماء والعلماء فى حدود البلاغة » أخذ أكثر هذه الحدود مما أورد الجاحظ فى تعريف البلاغة ، ثم شرح العسكرى هذه الحدود فى إسهاب ، ومثل لها ، وذكر ما قد يكون لديه من مآخذ عليها .

وإذا كان الجاحظ قد استبشع حوشى الألفاظ وغريبها ، وأبدى عجبه لأن بعض العلماء رووا الأشعار التى كثر فيها الحوشى والغريب ، فإن العسكرى يتابعه فى هذا الرأى ، بل ينقل عبارة الجاحظ بنصها « رأيتهم يديرون فى

كتبهم هذا الكلام ، فإن كانوا إنما رووه ودونوه لأنه يدل على فصاحة وبلاغة فقد باعده الله عن صفة الفصاحة والبلاغة ! وإن كانوا قد فعلوا ذلك لأنه غريب فأبيات من شعر العجاج وشعر الطرماح وأشعار هذيل يأتى لهم مع الرصف الحسن على أكثر من ذلك ، ولو خاطب أحد الأصمعى بمثل هذا الكلام لظننت أنه سيجهل بعضه[1] » . وعلى هذا فإن الجاحظ وبيانه من أول الموارد التى نهل منها العسكرى .

٣

وقد نفقت فى العصر الذى أخرج العسكرى تحلية فنون الأدب بصنوف البديع ، تعلق بها الشعراء والكتاب وغالوا بها ، وأصبحت قياسهم فى الحكم بالإجادة والإبداع ، وادعى بعضهم فضيلة السبق والابتكار ، فهال هذا الادعاء عبد الله بن المعتز فصنف كتابه « البديع » ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه[2]

فكان من الطبيعى أن يعنى أبو هلال وهو يؤلف فى الصناعتين — الكتابة والشعر — بالبديع ومحسناته ، وأن يعقد له هذا الباب الطويل الذى يبلغ نصف كتابه ، وأن يكون إمامه فيما كتب ما كتب ابن المعتز ، يأخذ عنه الألقاب ، وما أتى به من الأقسام والحدود بل ينقل عنه أكثر أمثلته ، ويزيد فى أمثلته ما استطاع ، وفى أنواعه تلك المحسنات الستة التى سنفصل القول فيها . ويبقى الفضل بعد ذلك للأستاذ الذى راد الطريق وذلل وعره .

ويكون ابن المعتز بعد ذلك ينبوعاً من أهم الينابيع التى استقى منها العسكرى بلاغته .

---

(١) الصناعتين ٣٢ (٢) البديع ١٦

٤

ثم يدخل على العقلية العربية فى هذا الدور عامل جديد ، ذلك هو الفلسفة اليونانية التى نقلت إلى العرب ، ويكون لهذا العامل أثره فى نقد الأدب كما كان له أثره فى النواحى العلمية والفكرية الأخرى ، فيتجه النقد اتجاها جديداً ويعمل على وضع قواعد ومقاييس علمية تقوم عليها صناعة النقد الأدبى ، فلقد ترجم إلى اللسان العربى كتابا أرسطو « الخطابة » و « الشعر » وفهما دراسة جديدة وقواعد لنقد الأدب وتأليفه لاعهد للعرب بها . فحاولوا أن يفيدوا من هذا المنهج الجديد وأن يطبقوه على شعرهم ونثرهم ، فنجحوا فى ذلك السبيل ما وسعهم النجاح ، ومرن الأدب العربى فى أيديهم فأخضعوه لهذه المناهج ، واستجاب لهم هذا الأدب فاستخلصوا منه أمثلة لقواعدهم ومقاييسهم ، حتى ليخيل إليك أمام هذا التصرف والفهم والتذوق أن هذه المقاييس لم يصنعها إلا العرب ، ولم يقس بها إلا أدبهم .

كان أعظم أولئك الذين وردوا هذا المورد قدامة بن جعفر الذى ألف « نقد الشعر » متأثرا فيه إلى حد كبير بآراء المعلم الأول . وعلى الرغم من أن أبا هلال صرح بأنه لن يذهب فى الصناعتين مذهب المتكلمين إلا أن نظرة فاحصة فى هذا الكتاب وما اشتمل عليه من مقاييس وقواعد بلاغية ستوقفك على أن « نقد الشعر » من أهم مصادر « كتاب الصناعتين » بل إننا نرجح أن علة تأليف الصناعتين الكتابة والشعر هو سبق قدامة بالتأليف فى إحدى الناحيتين دون الأخرى ، وأبو هلال من أخلص العلماء لمذهب قدامة ، وفضله على هذا المذهب الجديد لايجحد فهو الذى مكن له بالتقرير والتفسير والاستشهاد وامتثل طريقته ، وكتاب الصناعتين حافل بما أخذ العسكرى عن قدامة وفيما يأتى أمثلة لذلك :

فإذا كانت فضائل الناس عند قدامة من حيث إنهم ناس لا من طريق ماهم مشتركون فيه مع سائر الحيوان . . . إنما هى العقل والشجاعة والعدل والعفة وكان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيباً والمادح بغيرها مخطئا [1] فإن أبا هلال لايتجاوز هذا الرأى بل يدعيه لنفسه ، ويعد من عيوب المديح أن يعدل المادح عن الفضائل التى تختص بالنفس من العقل والعفة والعدل والشجاعة إلى ما يليق بأوصاف الجسم من الحسن والبهاء والزينة [2] .

وقدامة يبنى على قوله هذا فى المديح رأيه فى الهجاء ، فإذا كان الهجاء ضد المديح فكلما كثرت أضداد المديح فى الشعر كان أهجى له ، ثم تنزل الطبقات على مقدار قلة الأهاجى فيها وكثرتها [3] .

ويأخذ العسكرى بهذا القول فيقول : والهجاء إذا لم يكن يسلب الصفات المستحسنة التى تختصها النفس ، ويثبت الصفات المستهجنة التى تختصها أيضا لم يكن مختارا ، والاختيار أن ينسب المهجو إلى اللؤم والبخل والشره وماأشبه ذلك ، وليس بالمختار فى الهجاء أن ينسبه إلى قبح الوجه وصغر الحجم وضؤل الجسم [4] .

ويرى أبو هلال أن التشبيب ينبغى أن يكون دالا على الصبابة وإفراط الوجد ، والتهالك فى الصبوة ، ويكون بريئا من دلائل الخشونة والجلادة وأمارات الإباء والعزة [5] . . . ويستجاد التشبيب أيضاً إذا تضمن ذكر التشوق والتذكر لمعاهد الأحبة بهبوب الرياح ولمع البروق ، وما يجرى مجراهما من ذكر الديار والآثار . . . وكذلك ينبغى أن يكون التشبيب دالا

(١) نقد الشعر ٥٩ (٢) الصناعتين ٩٥ (٣) نقد الشعر ٩٥
(٤) الصناعتين ١٠١ (٥) الصناعتين ١٢٤

على الحنين والتحسر وشدة الأسف . . . وينبغى أن يظهر الناسب الرغبة فى الحب وألا يظهر التبرم[1] به ويؤكد هذا المعنى بقوله فى سياق آخر إن التجلد من العاشق مذموم[2] .

وهذه المعانى بأسرها هى التى أوردها أستاذه قدامة ، الذى لقنه أسلوب التعليم والتقرير ، وعلمه أن يلزم أهل الفنون قواعد العلوم ، وأن يقول لهم : يجب ، وينبغى ، وبدل أن يتخذ من طبيعة الفن أحكاماً ، أخذ من قواعد المنطق والأخلاق دعامة ونظاماً ، من اهتدى بها فهو فى نظره المصيب ، ومن حاد عنها بحكم عاطفته وخياله وتجربته فهو المخطىء .

وها هى ذى عبارة قدامة ، أو الأصل الذى أخذ عنه أبو هلال : يجب أن يكون النسيب الذى يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك فى الصبابة وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، ربما كان فيه من التصابى والرقة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعزة وأن يكون جماع الأمر فيه ماضاد التحافظ والعزيمة ووافق الانحلال والرخاوة ، فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض .

وقد يدخل فى النسيب التشوق والتذكر لمعاهد الأحبة بالرياح الهابة والبروق اللامعة ، والحمائم الهاتفة ، والخيالات الطائفة ، وآثار الديار العافية ، وأشخاص الأطلال الداثرة ، وجميع ذلك إذا ذكر احتيج أن تكون فيه أدلة على عظيم الحسرة ومن مضى الأسف والمنازعة . ولست أذكر متى سمعت فى التشوق بآثار الديار أوجز ولا أجمع ولا أدل على لاعج الشوق ومكمد الوجد من قول محمد بن عبيد الأزدى :

فلم تدع الأرواح والماء والبلى من الدار إلا مايشوق ويشغف[3]

(١) الصناعتين ١٢٥ (٢) الصناعتين ١١١ (٣) نقد الشعر ١٢٣ — ١٢٤

والعجب العجاب أن أبا هلال لا يستحسن إلا ما استحسن قدامة ، فيشيد بهذا البيت فى شىء من الإيجاز فيقول : من أجود ماقيل فى الديار قول الأزدى[1] : ثم يورد البيت بتمامه .

وقد يكون أبو تمام فيما أوصى به البحترى بقوله : « إن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً ، والمعنى رشيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق » إمام قدامة ثم إمام أبى هلال .

ويقول قدامة فى نعت الوصف :

لما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعانى كان أحسنهم من أتى فى شعره بأكثر المعانى التى الموصوف مركب منها ثم بأظهرها فيه وأولاها حتى يحكيه بشعره ويمثله للحس بنعته ، فمن ذلك قول الشماخ يصف أرضا تسير النبالة فيها :

تقعقع فى الآباط منها وفاضها خلت غير آثار الأراجيل ترتمى[2]

فانظر بعد ذلك إلى قول أبى هلال : ينبغى أن تعرف أن أجود الوصف مايستوعب أكثر معانى الموصوف حتى كأنه يصور الموصوف لك فتراه نصف عينك ، وذلك مثل قول الشماخ فى نبالة :

خلت غير آثار الأراجيل ترتمى تقعقع فى الآباط منها وفاضها[3]

فكان كل جهده أن يجعل عجز البيت صدراً وصدره عجزاً !

---

(١) الصناعتين ١٢٤

(٢) نقد الشعر (١١٨ — ١١٩) والآباط جمع إبط باطن المنكب والوفاض جمع وفضة وهى الجعبة من الأدم والأراجيل جمع رجيل وهو من لاظهر له يركبه وتقعقع إذا مشى فسمع له صوت . (٣) الصناعتين ١٢٣

٥

ومن منابع بلاغة العسكرى أيضا كتاب (الشعر والشعراء) الذى ألفه ابن قتيبة ، ومما يدل على متابعته إياه أن ابن قتيبة فى باب أقسام الشعر الذى قدم به لكتابه الشعر والشعراء مثل للضرب الذى حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة للمعنى بقول القائل :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المطايا رحالنا ولا ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

وعلق عليها بقوله : وهذه الألفاظ كما ترى أحسن شىء مخارج ومطالع ومقاطع ، وإن نظرت إلى ماتحتها من المعنى وجدته : ولما قضينا أيام منى ، واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لاينتظر الغادى الرائح ابتدأنا فى الحديث وسارت المطى فى الأباطح ، وهذا الصنف من الشعر كثير[1] .

فيأخذ أبو هلال الفكرة بعينها والرأى بنفسه ، ويكاد يأخذ الشرح بألفاظه فيقول : إن الكلام إذا كان لفظه حلوا عذبا وسلسا سهلا ومعناه وسطا دخل فى جملة الجيد وجرى مع الرائع النادر ، كقوله : (ولما قضينا . . . الأبيات)

وليس تحت هذه الألفاظ كثير معنى وهى رائقة معجبة ، وإنما هى ولما قضينا الحج ، ومسحنا الأركان ، وشدت رحالنا على مهازيل الإبل ولم ينتظر بعضنا بعضا جعلنا نتحدث ، وتسير بنا الإبل فى بطون الأودية[2] .

كما نقل عنه (ولم يذكره) رأيه فى الأسماء فقد يقدح فى الحسن قبح اسمه

---

(١) الشعر والشعراء ١١ (٢) الصناعتين ٥٨

كما ينفع القبيح حسن اسمه ويزيد فى فظاعة الرجل فظاعة اسمه وترد عدالة الرجل بكنيته ولقبه ولذلك قيل اشفعوا بالكنى فإنها شبهة (١).

٦

ومن أساتذته الذين أعجب بهم وأخذ بأقوالهم بل نقل عنهم آراءهم الحسن بن بشر الآمدى صاحب الموازنة ، انظر إلى قول العسكرى فى التنبيه على خطأ المعانى ، وتدبره جيدا : ومن الغلط قول أبى تمام :

رقيق حواشى الحلم لو أن حلمه ... يكفيك ما ماريتَ فى أنه بُرْدُ

وما وصف أحد من أهل الجاهلية ولا أهل الإسلام الحلم بالرقة ، وإنما يصفونه بالرجحان والرزانة ، كما قال النابغة :

وأعظم أحلاماً وأكبر سيداً ... وأفضل مشفوعاً إليه وشافعا

وقال الأخطل :

صم عن الجهل عن قيل الخناخرس ... وإن ألمّت بهم مكروهة صبروا

شم العداوة حتى يستقاد لهم ... وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

وقال أبو ذؤيب :

وصبر على حدث النائبا ... ت وحلم رزين وعقل زكى

وقال عدى بن الرقاع :

أبت لكم مواطن طيبات ... وأحلام لكم تزن الجبالا

وقال الفرزدق :

إنا لتوزن بالجبال حلومنا ... فيزيد جاهلنا على الجهال

ومثل هذا كثير ، وإذا ذموا الرجل قالوا : خف حلمه وطاش ، كما قال عياض بن كثير الضبى :

---

(١) الشعر والشعراء ١٥ والصناعتين ١٤٦

تنابلة سود خفاف حلومهم وذو نيرب فى الحى يغدو ويطرق[1]

والذى يسترعى الانتباه ويستوقف النظر أن هذا الكلام من الحكم على بيت أبى تمام ومن سرد أبيات الشواهد على خطئه فى معنى البيت مأخوذ بأسره مما كتب الآمدى فى كتاب الموازنة مع فرق واحد ، وهو أن الآمدى كان أميناً فى النقل ونسبة الحكم إلى صاحبه ، وفى أنه وجد الحكم ولم يجد العلة الموجبة له فالتمسها بنفسه واهتدى إليها بذوقه وطول ممارسته ، وهذه عبارة الآمدى لتعلم ما بين الرجلين من حرص على الأمانة العلمية والحكم السديد :

« وأنكر أبو العباس (أحمد بن عبيد الله) قول أبى تمام :

رقيق حواشى الحلم لو أن حلمه بكفيك ما ماريت فى أنه برد

وقال هذا الذى أضحك الناس منذ سمعوه إلى هذا الوقت . ولم يزد على هذا شيئاً . والخطأ فى هذا ظاهر لأنى ما علمت أحداً من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالرقة ، وإنما يوصف الحلم بالعظم والرجحان والثقل والرزانة ونحو ذلك قول النابغة . . . إلى آخر الأبيات التى مثل لها ، أو التى سرقها أبو هلال . إلى أن قال (الآمدى) ومثل هذا كثير فى أشعارهم ، ألا ترى أنهم إذا ذموا الحلم كيف يصفونه بالخفة ، فيقولون خفيف الحلم ، وقد خف حلمه ، وقال عياض بن كثير الضبى ... الخ

أرأيت إذن أن العسكرى نسب التخطئة لنفسه ، ووصف البيت بأنه لم يرد مثله فى جاهلية ولا إسلام ، وأن الحلم لا يوصف بالرقة ، وإنما يوصف

---

(١) الصناعتين ١١٤ — ١١٥ ، والتنابلة واحده تنبال وذلك الرجل القصير كالتنبل ، والنيرب الشر والنميمة ، والبيت فى الموازنة :

قبائله سود خفاف حلومهم ذوو نيرب فى الحي يغدو ويطرق

(٢) الموازنة ٦٣ — ٦٤ .

بكذا وكذا ؟ وكل هذا ينسبه لنفسه فى جرأة نادرة ، وهو ناقل النقد والتعليق والأمثلة برمتها نقلا ظاهراً مكشوفا ، ثم أرأيت إلى أمانة الآمدى وصدقه حين يقرر التخطئة وينسبها لصاحبها (أبي العباس أحمد بن عبيد الله) فى صراحة ، ثم ترى الآمدى بذوقه الأدبي يبين نواحي التخطئة وعلتها ويمثل للمعنى الصحيح بما أورد ، وأراح العسكرى نفسه وأراح الناس فنسب كل شىء لفطنته وذكائه !

كان يعجبنا لو أن أبا هلال أخذ هذه الأبيات فوازن بينها ، وانتقد أبا العباس فى نقده أو الآمدى فى نقله ، وأضاف إلى الأمثلة ماهو أقرب شبها ، ثم قدم لنا بحثا فى ضرورة التقليد ، وضرر التجديد فى وصف الحلم بالرقة ، وكنا نقبل فى الأقل أن يورد الحكم منسوباً إلى صاحبه لنعد الرجل فى الأمناء الصادقين ، ولسنا نستطيع أن نتصور أن تكون هذه السرقة الواضحة من توارد الخواطر . وقد نفى العسكرى عن نفسه بهذا صفة الحذق لأنه لم يخف سرقته وهو القائل : والحاذق من يخفى دبيبه إلى المعنى .

وقريب من هذا ما أورد أبو هلال فى نقد أبي تمام فى بيته المشهور :

من الهيف لو أن الخلاخيل صيرت   لها وشحاً جالت عليها الخلاخل[1]

فقد نقله وأمثلته من الموازنة[2] .

ومثل هذا ماخطأ فيه العسكرى أبا تمام من قوله :

قسم الزمان ربوعها بين الصبا   وقبولها ودبورها أثلاثا[3]

فقد نقله من الموازنة مع ماتلاه من الأبيات[4]

(١) الصناعتين ١١٦ — ١١٧   (٢) الموازنة ٦٥ — ٦٦ — ٦٧
(٣) الصناعتين ١١٧   (٤) الموازنة ٦٩ — ٧٠

وهكذا . وهكذا . حتى ليبدو للناظر المحقق أن العسكرى أخذ الباب بتمامه من الموازنة .

وقال أبو هلال فى تعريف المطابقة [1] : قد أجمع الناس أن المطابقة فى الكلام هى الجمع بين الشىء وضده فى جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من بيوت القصيدة مثل الجمع بين البياض والسواد والليل والنهار والحر والبرد ، وخالفهم قدامة بن جعفر فقال : المطابقة إيراد لفظتين متشابهتين فى البناء والصيغة مختلفتين فى المعنى . وسمى الجنس الأول التكافؤ ، وأهل الصنعة يسمون النوع الذى سماه المطابقة التعطف (قال) وهو أن يذكر اللفظ ثم يكرره والمعنى مختلف . وهذا القول فى الطباق ونقد قدامة سبق إليه الآمدى فقال[2] . وهذا باب أعنى المطابق لقبه أبو الفرج قدامة بن جعفر فى كتابه المؤلف فى نقد الشعر المتكافئ ، وسمى ضربا من المجانس المطابق ، وهو أن تأتى الكلمة مثل الكلمة سواء فى تأليفها واشتقاق حروفها ، ويكون معناها مخالفاً .. وما علمت أن أحداً فعل هذا غير أبى الفرج ، فإنه وإن كان هذا اللقب يصح لموافقته معنى الملقبات ، وكانت الألفاظ غير محظورة ، فإنى لم أكن أحب له أن يخالف من تقدمه مثل أبى العباس عبدالله بن المعتز وغيره.

وفى الباب الرابع من الصناعتين ، وهو الباب الذى عقده أبو هلال لبيان حسن النظم وجودة الرصف والسبك قال : ومن سوء النظم المعاظلة وقد مدح عمر بن الخطاب زهيراً لمجانبتها ، فقال : كان لا يعاظل بين الكلام وأصل هـــذه الكلمة من قولهم تعاظلت الجرادتان إذا ركبت إحداهما الأخرى ، وعاظل الرجل المرأة إذا ركبها (ويمثل بعد ذلك بأبيات من الشعر وقعت فيها المعاظلة) ثم ينتقل إلى نقد قدامة فى تعريفه المعاظلة فيقول:

---

(١) الصناعتين ٢٩٧ — ٢٩٨ . (٢) الموازنة ١٢٤ .

وقال قدامة لا أعرف المعاظلة إلا فاحش الاستعارة مثل قول أوس :

وذات هدم عارنواشرها تصمت بالماء تولبا جذعا

فسمى الصبي تولبا ، والتولب ولد الحمار . وقول الآخر :

وما رقد الولدان حتى رأيته على البكر يمريه بساق وحافر

وهذا غلط من قدامة كبير ، لأن المعاظلة فى أصل الكلام إنما هى ركوب الشيء بعضه بعضا ، وسمى الكلام به إذا لم ينضد نضدا مستويا ، وأركب بعض ألفاظه رقاب بعض وتداخلت أجزاؤه ، تشبيها بتعاظل الكلاب والجراد على ماذكرناه ، وتسمية القدم بحافر ليست بمداخلة كلام فى كلام وإنما هو بعد فى الاستعارة [1] .

والعبارة الأولى « وأصل الكلمة من قولهم تعاظلت الجرادتان » . . مأخوذة من قول قدامة نفسه [2] « وسألت أحمد بن يحيى عن المعاظلة ، فقال : مداخلة الشيء فى الشيء ، يقال : تعاظلت الجرادتان ، وعاظل الرجل المرأة إذا ركب أحدهما الآخر »

وأما التخطئة فقد أخذها أبو هلال عن الآمدى من كتاب الموازنة [3] فقد أورد الآمدى عبارة عمر بن الخطاب فى مدح زهير ، وفسر المعاظلة كما مر ، وذكر اتفاق العلماء على ذلك إلا أبا الفرج قدامة بن جعفر فإنه ذكر ذلك فى كتابه المؤلف فى نقد الشعر ومثل له فغلط فى أمثلة المعاظلة غلطا قبيحا..

على أن العسكرى لم يعمد إلى تخطئة قدامة — وهو المعجب به المتتبع لحدوده وتنظيماته البلاغية — إلا مجاراة للعلماء والنقاد الذين حملوا على مذهب قدامة وألفوا الكتب فى نقده كما أسلفنا .

---

(١) الصناعتين ١٥٥ — ١٥٦ (٢) نقد الشعر ١٧٤ (٣) الموازنة ١٢٥

٧

ولم يفت العسكرى أن يفيد من صاحب « الوساطة » كما أفاد من سائر كتب النقد التى اطلع عليها ، فالقاضى الجرجانى نقد فى « الوساطة » بيت أبى تمام فى وصف الخمر :

جهمية الأوصاف إلا أنهم قد لقبوها جوهر الأشياء

بقوله : فخبرنى هل تعرف شعراً أحوج إلى تفسير بقراط وتأويل أرسطو منه [١] .

وقال العسكرى : وأما مايستبهم فلا يعرف معناه إلا بالتوهم مثل قول أبى تمام : جهمية الأوصاف . . . البيت .

فوجه الاشتراك فى هذا أن لجهم مذاهب كثيرة وآراء مختلفة متشعبة ، لم يدل فحوى كلام أبى تمام على شىء منها يصلح أن يشبه به الخمر وينسب إليه إلا أن يتوهم المتوهم فيقول إنما أراد كذا وكذا من مذاهب جهم من غير أن يدل على الكلام منه على شىء بعينه ولا يعرف معنى قوله قد لقبوها جوهر الأشياء إلا بالتوهم أيضا [٢] . . !

ولا شك أن عبارة الجرجانى على وجازتها تؤدى من المعانى ما تؤدى عبارة العسكرى على طولها .

وقول العسكرى فى صفة الألفاظ : لا ينبغى أن يكون لفظك وحشياً بدوياً ، وكذلك لا يصلح أن يكون مبتذلا سوقياً ... والمختار من الكلام ما كان سهلا جزلا ، لا يشوبه شىء من كلام العامة وألفاظ الحشوية ،

---

(١) الوساطة ١٦ . (٢) الصناعتين ٣٦ ، والجهمية من الفرق الإسلامية يتفقون مع أهل السنة فى القول بالقضاء والقدر مع ميل إلى الجبر ، ولذلك يعدها بعضهم من الجبرية ، يقولون بخلق القرآن ، وينفون صفات البارى جل وعلا ، كما ينفون رؤيته ...

ولم يخالف فيه وجه الاستعمال ، ألا ترى إلى قول المتنبي :

أين البطاريق والحلف الذى حلفوا بمفرق الملك والزعم الذى زعموا

هذا قبيح جداً ، وإنما سمع قول العامة حلف برأسه ، فأراد أن يقول مثله فلم يستوله ، فقال : بمفرق الملك ، ولو جاز هذا جاز أن يقول حلف بيافوخ أبيه ، وبقمحدوة[1] سيده ، وقبح هذا يدل على أن أمثاله غير جائزة فى جمع المواضع ، وهذا النوع فى شعر المتنبى كبعد الاستعارة فى شعر أبى تمام[2]. وهذا القول مأخوذ من قول الجرجانى فى الوساطة : ومتى سمعتنى أختار للمحدث هذا الاختيار وأبعثه على التطبع وأحسن له التسهيل ، فلا تظن أنى أريد بالسمح السهل الضعيف الركيك ، ولا باللطيف الرشيق الخنث المؤنث ، بل أريد النمط الأوسط : ما ارتفع عن الساقط السوقى وانحط عن البدوى الوحشى ، وما جاوز سفسفة نصر ونظرائه ، ولم يبلغ تعجرف همیان ابن قحافة وأضرابه [3] .

ومن هذه الأمثلة التى أوردناها يتبين من أى نبع استقى العسكرى بلاغته بل تتضح متابعته لسابقيه ومعاصريه من النقاد والعلماء واحتذاؤه إياهم فى أحكامهم ومقاييسهم الأدبية وأخذه عنهم آراءهم واستشهاداتهم .

وليس مايمنع أن يوافق رأى أخاه ، وأن يتفق حكمان ، ولكن الذى نأخذه على العسكرى هو ما نأخذه على من يأخذ الرأى فيغفل صاحبه وهو يعرفه ثم ينسبه إلى نفسه !

لقد طوف أبو هلال بهذه الآفاق ونهل من هذه الموارد وغيرها ، فاقتطف من ثمارها ما أعجبه ، واتخذ ينابيعها مناهل لبلاغته .

---

(١) القمحدوة : الهنة الناشزة فوق القفا وأعلى القذال خلف الأذنين ومؤخر القذال . (٢) الصناعتين ١٤٢ . (٣) الوساطة ٢٣ .

منهج أبي هلال

١

نريد أن نبحث فى هذا الفصل عن أهداف أبي هلال من تأليفه البلاغى وأن نقف على المنهج الذى رسمه لبلوغ هذه الأهداف إن كان صاحب منهج ، وننظر أكان فى سلوكه إياه ما يحقق الأغراض التى رمى إليها .

ومن أهدافنا فى هذا الفصل أيضا أن نقف على أصالة أبي هلال فى تأليفه ، أو متابعته لسابقيه من الذين عالجوا الأدب وحللوه ونقدوه ، أو أن نصل إلى حظه من التجديد والابتداع ، أو التقليد والاتباع للمناهج المسلوكة فى عصره وقبل عصره ، أو بعبارى أخرى نريد أن نعرف ما إذا كان العسكرى مدرسة بذاتها لها خصائصها ومعالمها ومقوماتها ، أم كان أحد أشياع إحداها ، وقد مرّ بنا شيء من ذلك فى الفصلين السابقين وأشرنا إلى المناهج المتعددة التى عاصرت العسكرى أو سبقته أو « المدارس النقدية » بلغة العصر إلا أننا نريد أن نحصر القول هنا فى أبي هلال .

وفى استطاعتنا أن نتبين من الإلمامة السريعة التى عرضناها فى الفصلين السابقين سمات متعددة لمذاهب مختلفة فى النظر إلى الفن الادبى وتقدير قيمته الفنية .

وقد تبين أن أقدم مارأينا من النقد أحكام فردية لارابط بينها من عرف أو اصطلاح عام عند أهل هذه الصناعة ، ولهذا لا يمكن أن تحسب فى عداد

المدارس التى ترسم لنفسها منهجاً خاصاً ، أو يسيطر عليها اتجاه خاص يؤثر فى أحكامها ، وإنما الذى يحسب فى هذه المدارس ما كان له شئ من السعة والشمول ، وكان له مقياس ثابت متداول بين النقاد أيا كان ذلك المقياس. وكان هذا المقياس فى نقد الأدب العربى طريقة اللغويين والنحاة الذين نشئوا فى الصدر الأول ، والأولون هم العالمون بلغة العرب ، الباحثون فى بنية مفرداتها ووضع الألفاظ مواضعها وصحة التراكيب ، وأعاريض الشعر وقوافيه عند العرب ، وهذه الطبقة من النقاد تعتمد فى أحكامها على القياس على القديم المأثور ، يحكمون على الألفاظ بموافقة العرب فى الاستعمال أو مخالفتهم ، وبالجزالة أوبالسلامة ، وبالغرابة أو السهولة وبالصحة أوالخطأ وإصابة الأديب فى تقليد السابقين فى مطالع القصائد وتعدد الأغراض وغيرها ، أو بعبارة أخرى مطابقة ما عرف عند جماعة منهم ولقبوه « عمود الشعر » مما ينطبق عليه إلى حد ما ماعرف عند الغربيين باسم Classical أما طائفة النحويين فتبحث فى صحة التراكيب ، وعيوب الأعاريب .

وكان هؤلاء وأولئك يتناولون الشعر فينقدونه نقـــداً موضوعياً Subjective وينظرون إلى الفن الشعرى نظرتهم إلى شىء بعيد عن أنفسهم وتأثرهم وانفعالاتهم وعن أذواقهم وميولهم الشخصية ، وبذلك يمكنهم فهمه والنفوذ إليه وروايته كما هو فيدركون جماله بقوة تمييزهم وملاحظتهم دون التقيد بلذتهم الخاصة أو ذوقهم فى التفضيل .

على أنه كان لبعض هؤلاء عناية بالطريقة التاريخية Historical Method يعرضون للشعر وبيئته وصحة نسبته لقائله ، أو كذب تلك النسبة ، وذلك لفرط حرصهم على سلامة هذا التراث الذى ورثوه حرصهم على أصول عقائدهم ، إذ كانوا يدركون تمام الإدراك الصلة الوثقى بين هذا التراث

وبين عقائدهم وقوميتهم . ثم نشأت من هذه الطبقة طبقة أخرى أخذت ما عند هؤلاء وغيرهم ، وكان لها من حسها المرهف ، وقدرتها على تذوق هذا الفن خير عون على نقد الشعر ، والبحث عن قيمته باعتباره فناً ، وعن سر جماله وقوته ، وشرح أثره فى نفوسهم ، ولكن أكثر نقدهم كان ذاتياً Objective لأنه كان يقوم على أحاسيس الناقد وانفعالاته وميوله .

وإذ جد على البيئة العربية ثقافات جديدة انتقلت إليها بما ترجم من كتب ألفتها أمم عريقة فى العلم وأساليب التفكير نشأ منهج جديد فى النقد الأدبى ذلك هو منهج المتكلمين الذين عنوا بالبحث فى إعجاز القرآن وفهم العقائد منه ، وهذا المنهج « يمتاز بخاصة أهله فى الجدل والمناقشة والتحديد اللفظى ، والعناية بالتعريف الصحيح ، والقاعدة المقررة والإقلال من الشواهد الأدبية وعدم العناية بالناحية الفنية فى خصائص التراكيب وتقدير المعانى الأدبية ، واستعمال المقاييس الحكمية الفلسفية المعتمدة على قواعد منطقية أو نظريات خلقية أو مقررات طبية فى الحكم الأدبى ، دون نظر إلى معانى الجمال وقضايا الذوق [1] ».

٢

ليس معنى ما تقدم أن هنالك انفصالا كلياً بين هذه المناهج ، بمعنى أن نقاداً معينين سلكوا منهجاً معيناً دون غيره ، وآثر غيرهم مذهباً آخر لا يتعدونه ، فإن ذلك مستحيل فى هذا الباب ، والناقد من طائفة اللغويين أو النحاة مثلا كان لا يستغنى عن تحكيم ذوقه الخاص فيما يعرض له من ألوان الأدب ، والناقد المتمكن من أساليب المنطقيين والمتكلمين لا يمكن أن يجحد ذوقه أو ينسى الإشارات اللغوية والنحوية والتاريخية

(١) البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها : ١٩

وقد تجد سمات هذه المناهج مجتمعة فى ناقد واحد مثل ابن قتيبة فإنك حين تقرأ المقدمات الأولى التى كتبها لكتابه « الشعر والشعراء » ترى هذه الاتجاهات مجتمعة .

تراه ناقدا نحوياً يعدد أخطاء الشعراء فى الإعراب ، واضطرارهم لركوب الخطأ جريا وراء القوافى . انظر إليه ينقد الفرزدق فى قوله :

وعض زمان يابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتاً أومجلفُ [1]

ويأخذ عليه رفع آخر البيت ضرورة وما كلف أهل العربية من عنت فى طلب العلة ، فقالوا وأكثروا ولم يأتوا بشىء يرضى ، ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر أن كل ما أتوا به من العلل احتيال وتمويه . وقد سأل بعضهم الفرزدق عن رفعه إياه فشتمه وقال : على أن أقول وعليكم أن تحتجوا !

وقد أنكر عبد الله بن إسحق الحضرمى قوله :

مستقبلين شمال الشام تضربنا بحاصب من نديف القطن منثور
على عمائنا تلقى وأرحلنا على زواحف تزجى مخاريرِ

بالرفع ، فقال : — ألا قلت :

على زواحف تزجيها محاسير [2]

فغضب وقال :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

وهذا كثير فى شعره على جودته [3] .

وترى إلى هذه النظرات النحوية نظرات أخرى لغوية ، بل إن ابن قتيبة ممن يغالون فى ضرورة فقه اللغة وحذقها ، لما يجر فقد ذلك من

---

(١) المسحت : الهالك . المجلف : الذى بقيت منه بقية

(٢) الحاصب : الريح الشديدة تثير الحصباء (الحصى) . الرير والرار : المخ الرقيق حسر البعير : أعيا فهو حسير ومحسور (٣) الشعر والشعراء ٣٥ — ٣٦

خلط فى القول وفى الرواية ، وعنده أن كل علم محتاج إلى السماع وأحوجه إلى ذلك علم الدين ثم الشعر لما فيه من الألفاظ الغريبة واللغات المختلفة والكلام الوحشى وأسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه ، والعالم لا يستطيع أن يفصل فى شعر الهذليين إذا هو لم يسمعه بين شابة و « ساية » وهما موضعان ، ولا يثق بمعرفته فى حزم نُبايعَ ، وعُرْوَانِ الكَرَاث ، وَشَسْ عبقر ، وأسدِ حَلْيَة وأسدِ تَرْج ، ودُفَاق ، وتُضَارِع (١) ، وأشباه هذا لأنه لا يلحق بالذكاء والفطنة ، كما يلحق مشتق الغريب ، ويروى أن الأصمعى قرىء عليه يوما فى شعر أبى ذؤيب :

بأسفل ذات الدَّيْر أفرد جحشها

فقال أعرابى حضر المجلس : ضَلَّ ضَلالُكَ أيها القارىءُ ! إنما هى ذات الدَّبْر وهى ثنيّة عندنا ، فأخذ الأصمعى بذلك فيما بعد .

ومن ذا من الناس يأخذ من دفتر شعر المعذَّل بن عبد الله فى وصف الفرس :

من السَّحِّ جَوَّالا كأن غلامَه يصرِّفُ سِبْدًا فى العنان عَمَرَّدَا (٢)

إلا قرأه « سيدا » ؟ يذهب إلى الذئب ، والشعراء قد تشبه الفرس بالذئب ، وليست الرواية المسموعة عنهم إلا (سِبْدًا) قال أبو عبيدة : المصحفون لهذا الحرف كثيرون ، يروونه (سيدا) أى ذئبا ، وإنما هى (سبد) بالباء معجمة

---

(١) حزم نبايع : جبل أو واد فى ديار هذيل . عروان من أمنع جبال الحجاز والكرات نبت . الشس : الغليظ من كل شىء . وعبقر : يزعمون أنها أرض كان يسكنها الجن . حلية : مأسدة باليمن . ترج : جبل بالحجاز كثير الأسد . دفاق : موضع قرب مكة . تضارع : جبل بتهامة لبنى كنانة .

(٢) من السح : يريد من الخيل التى تسح الجرى أى تصب والعمرد الطويل .

بواحدة ، يقال فلان سبد أسباد أى داهية دواه ، وكذلك قول الآخر :

زوجك يا ذات الثنايا الغر الرتلات والجبين الحر

يرويه المصحفون والآخذون عن الدفاتر (الربلات) وما الربلات من الثنايا والجبين وهى أصول الفخذين ، يقال رجل أربل إذا كان عظيم الربلتين أى عظيم الفخذين ، وإنما هى الرتلات بالتاء ، يقال ثغر رتل إذا كان مفلجا (١)

وهو إلى جانب هاتين الناحيتين : ناحية الإعراب وناحية اللغة ينهج نهج العلماء فى التنظيم العلمى والولوع بالأقسام (٢) ويعالج نواحى أخرى علاجا فنياً يشهد له بسلامة الذوق . من ذلك تكلمه فى الطبع والصنعة (٣) وأشعار العلماء (٤) واللفظ والمعنى (٥) ومحاولة التجديد (٦) ودواعى الشعر (٧) إلى غير هذه المباحث المختلفة فى مناهجها .

إذن فقد سلك ابن قتيبة مناهج متعددة فى دراسة الشعر والشعراء ، وهو مثل للتمكن من ثقافات عصره وتمثيلها يبدو ذلك كله فى مقدمته واضحا وإن كان يضعف فى ثنايا دراسته للشعراء ، أو بعبارة أخرى يضعف فى ناحيته التطبيقية .

رأينا فيما تقدم منهجا فى نقد الأدب يستند إلى الموضوعية فى أكثر نواحيه ويعتمد على الذاتية فى قليل منها مع طريقة جديدة هى التى تسمى الآن النقد التوضيحى Explanatory Criticeism وهو الذى يراد به عرض نتاج أديبين وشرح هذا العرض فى جملته ثم أخذه فى بعض جزئياته لمواجهة بعضها ببعض ، غير أن هذا الذى رأيناه نقد صرف لم يتعرض للبلاغة إلا تعرضا ضئيلا . ولقد كان الآمدى فى موازنته أقل فى هذه الناحية من

---

(١) الشعر والشعراء ٢٨ — ٢٩ — ٣٠ (٢) انظر أقسام الشعر ص ٩ ومابعدها
(٣) ص ٢٣ (٤) ص ١٥ (٥) ص ٩ (٦) ص ٢٢ (٧) ص ٢٤

القاضى الجرجانى . أما أبو هلال العسكرى فقد كان هدفه أن يوضح معالم بلاغية يعرفها الأدباء والنقاد لتكون مقاييس يعتمد عليها فى نقد الأدب .

٣

الأهداف التى رمى إليها أبو هلال :

نسأل بعد ذلك عن منهج أبى هلال ، ونسأل قبله عن هدفه الذى رمى إليه من تأليف « الصناعتين » ولن يطول بنا السؤال ، ولن تستعصى علينا الإجابة ، وذلك أن أبا هلال نفسه قد أوضح لنا الطريق ، وأفصح عن هدفه كل الإفصاح فى كتاب « الصناعتين » .

إعجاز القرآن :

إن الغاية التى كان يرمى إليها أبو هلال من تأليف الصناعتين غاية دينية أولا وأدبية ثانياً ، أما أولى الغايتين فإثبات إعجاز القرآن وفهم أسرار الجمال ونواحى التفوق التى تفرد بها كتاب الله تعالى ، وهى كما ترى غاية دينية دفعت إليها العقيدة الدينية التى وجدت من يناهضها بالتشكيك فى أن حجة النبى صلى الله عليه وسلم وهى الكتاب الكريم مثل أعلى فى الفصاحة والبلاغة وادعاء أن العرب كان فى مقدورهم أن يأتوا بمثله لولا أنهم صرفوا عن ذلك ، ونشأ عن ذلك مذهب الصرفة الذى قال به إسحق بن ابراهيم النظام ، وقد سرى هذا القول بين الناس فى العصر العباسى ، وانبرى للرد على هؤلاء المشككين جماعة من العلماء الذين أخلصوا لدينهم وعقيدتهم ، فأخذوا يدفعون عن كتاب الله هذه الفرية بتجلية وجوه الإعجاز فيه ، وبيان أن العرب لو استطاعوا لما نكصوا وهم المتحدون ، وكان يسعهم إن استطاعوا أن يعارضوه ليموت الدين الجديد فى مهده ، ولتبقى لهم زعامتهم وقداسة عقائدهم ومعبوداتهم .

وكان أبو هلال أحد هؤلاء المدافعين عن دينهم ، المناهضين لأولئك المعترضين ، استمع إلى قوله فى أول كتاب الصناعتين :

« اعلم : علمك الله الخير ودلك عليه ، وقيضه لك وجعلك من أهله ، أن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله ـ جل ثناؤه ـ علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذى به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحق الهادى إلى سبيل الرشد ، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوّة التى رفعت أعلام الحق ، وأقامت منار الدين ، وأزالت شبه الكفر ببراهينها ، وهتكت حجب الشك بيقينها » .

ثم يفصح أبو هلال عن المدى الذى يستطيع علم البلاغة أن يبلغه فى إثبات هذا الإعجـــاز ، فعنده ألا سبيل إلى إدراكه والاطمئنان إليه إلا بمعرفة الفصاحة والبلاغة . فإن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن . . وقبيح لعمرى بالفقيه المؤتم به والقارىء المهتدى بهديه ، والمتكلم المشار إليه فى حسن مناظرته وتمام آلته فى مجادلته وشدة شكيمته فى حجاجه وبالعربى الصليب والقرشى الصريح ألا يعرف إعجاز كتاب الله تعالى إلا من الجهة التى يعرفه منها الزنجى والنبطى وأن يستدل عليه بما استدلّ به الجاهل الغبى [1].

هذه هى الغاية التى نصب أبو هلال نفسه لها ، وإن كان لا يقصر البلاغة على تحقيقها بل يرى مع هذه الغاية غاية أخرى ، وهى أنه بالبلاغة يستطيع الأديب الناقد أن يفرق بين الجيد والردىء والنادر والبارد من القول ، وبها يستعين الأديب المنشىء على صنع القصيدة وإنشاء الرسالة .

فعلم البلاغة عنده يحقق غير ما تقدم فائدتين أولاهما « أن صاحب

---

(١) الصناعتين ٢ .

العربية إذا أخل بطلبه وفرط فى التماسه ففاتته فضيلته ، وعلقت به رذيلة فوته عفّى على جميع محاسنه وعمى سائر فضائله ، لأنه لم يفرق بين كلام جيد وآخر ردىء ولفظ حسن وآخر قبيح وشعر نادر وآخر بارد بان جهله وظهر نقصه ، وواضح من ذلك أن أبا هلال يرى أن عالم اللغة لا يسعه بحال الاستغناء عن علم البلاغة الذى يستطيع به وزن الكلام وتقدير قيمته الفنية ، ومن غيره لا يستطيع أن يكون عالماً أديباً أو ناقداً أريباً .

والثانية هى أن الأديب إذا أراد أن يصنع قصيدة أو ينشىء رسالة — وقد فاته هذا العلم — مزج الصفو بالكدر ، وخلط الغرر بالعرر ، واستعمل الوحشى العكر ، فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل [1] .

وعلى هذا فإن العسكرى يرى أن البلاغة تحقق للعالم بها فوائد ثلاثاً :

١ — إدراك إعجاز القرآن إدراكا مبنياً على النظر والفقه والتذوق ، لا إدراكا قائماً على الإيمان المجرد والتسليم من غير نظر كإيمان العوام من الزنوج والأنباط .

٢ — فائدة نقدية : إعانة العالم على النقد والمفاضلة والقدرة على تمييز الجيد من الردىء والغث من السمين .

٣ — فائدة إنشائية : يفيد منها الأديب بدراسة البلاغة إرهاف حسه ، ويستطيع بها أن يميز جيد الألفاظ من رديئها ، وأن يختار لشعره ما يروق ويشوق ، وأن يتجنب حوشى الألفاظ وكدرها الذى يعرضه استعمالها لاستهزاء الجهلاء واعتبار العقلاء .

هذه الغايات الثلاث هى أهداف البلاغة فى نظر أبى هلال . ونلاحظ

---

(١) الصناعتين ٣

هنا أنه قد خلط البلاغة بالنقد ، فالبلاغة لإثبات الإعجاز والنقد للتمييز بين الأدب الجيد والأدب الردىء ؛ أما هدفه فى كتاب الصناعتين فهو كذلك واضح ظاهر لا لبس فيه ولا غموض .

رأيه فى أحكام السابقين :

وقد قدم لهذا الهدف بعرض بعض آراء سابقيه من العلماء ونقدة الأدب ، ومناقشة هذه الآراء ، وتفنيد الأحكام التى اهتدوا إليها ، ومن ذلك أنه ينقد علماء العربية فى استحسانهم بيتى ذى الرمة :

رمتنى مىّ بالهوى رمى ممضَع ... من الوحش لوْط لم تعقه الأوالس
بعينين نجلاوين لم يجر فيهما ... ضمان وجيد حلى الدرشامس (١)

وقولهم فيهما : إنهم ما سمعوا بأحسن ولا أفصح منهما ، ولا يعجب أبا هلال هذا الحكم بل يصدر حكما أدبياً صحيحا يعتمد فيه على ذوقه الخاص ويصف البيتين بأنهما من الكلام الفج الغليظ والوخم الثقيل الذى لا حظ له من الاختيار !

ويعرض استجادة العتبى قول الشاعر :

ولو أرسلت من حبـ ... ـك مهبوتا من الصين
لوافيتك قبـــل الصبـ ... ـح أو حين تصلين (٢)

(١) أمضغ اللحم استطيب وأكل ، ومن معانى الوحش الجوع ، ولاط فلانا رماه بعين أوبسهم أصابه ، والولوس الناقة السريعة ، والضمان المرض والشمس ومعلاق القلادة فى العنق والجمع شموس ، وجيد شامس ذو شموس على النسب .

والمعنى : أصابتنى مى بالهوى فكان له وقع الطعام العذب المستطاب فى نفس الجائع ، وكانت عدتها عينين واسعتين لم تعرفا المرض وجيداً حلى الدر ذا شموس .

(٢) المهبوت : السائر على غير هداية .

ويرى أبو هلال أنهما إن جاز أن يوصفا فلا يجوز وصفهما إلا بدناءة اللفظ وخساسته ، وخلوقة المعرض وقباحته !

ويذكر أيضاً نقد العتبي لقول جرير :

إن العيون التى فى طرفها مرض قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به وهن أضعف خلق الله أركانا

وقوله :

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك لا يزال معينا
غيّضن من عبراتهن وقلن لى ماذا لقيت من الهوى ولقينا

وحكم العتبي على هذه الأبيات بأنها من الشعر الذى يستحسن لجودة لفظه وليس له كبير معنى . . . أما أبو هلال فلا يعلم معنى أجود ولا أحسن من معنى هذا الشعر !

وينتهى العسكرى من هذه الأحكام التى يفندها بالأحكام التى يرتضيها إلى أن هؤلاء الأعلام قد خلطوا فى آرائهم وحكموا أحكاماً لا تستند على أسس صحيحة ولا ذوق سليم ، وأنه رأى أن يؤلف كتابه لتصحيح هذه الأحكام التى يغلب عليها أثر الارتجال ، ووضع أسس ثابتة تصدر عنها أحكام أكثر دقة وأقرب منها إلى الصواب ، ويقول فى ذلك : فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام ، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل ومكانة من الشرف والنبل ووجدت إليه الحاجة ماسّة ، والكتب المصنفة فيه قليلة ، وكان أكبرها وأشهرها كتاب «البيان والتبيين» لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ وهو لعمرى كثير الفوائد جم المنافع ، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة ، والفقر اللطيفة والخطب الرائعة والأخبار البارعة وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، وما نبّه عليه من مقاديرهم فى البلاغة

والخطابة وغير ذلك ، من فنونه المختارة ونعوته المستحسنة « إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه ، ومنتشرة فى أثنائه فهى ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير، فرأيت أن أعمل كتابى هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه فى صنعة الكلام نثره ونظمه ، ويستعمل فى محلوله ومعقوده من غير تقصير وإخلال ، وإسهاب وإهذار [1] .

ونستطيع أن نستخلص من هذا الكلام ما يأتى :

١ — أن أبا هلال رأى للأقدمين آراء قاصرة ، وأحكاماً ميتورة لا يقرهم عليها .

٢ — أنه عرف فضل هذا العلم ـ علم البلاغة ـ وقدر ضرورته للعالم والمتعلم والأديب والمتأدب ، وأنه أحق العلوم بالدراسة والتأليف .

٣ — أنه رأى الكتب التى تعرضت لمباحثه قليلة لا تتفق هى ومنزلة هذا العلم ووجوب الاهتمام به .

٤ — أنه يعترف بأن خير الكتب التى تعرضت لبحث البلاغة كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ ، ولكنه ينقصه التنظيم العلمى الذى يجعل الانتفاع به فى هذا الباب ميسوراً .

٥ — أن العسكرى رأى أن يكمل هذا النقص فيؤلف تأليفاً علميا منظماً يلائم شرف هذا العلم، ويحوى ما يحتاج إليه صناع الكلام ونقدته مع تجنب الاختصار المخل ، والتطويل الممل .

هذه هى الدوافع والأغراض التى حفزت الرجل على تأليف الصناعتين بيّنها فأحسن البيان .

---

(١) الصناعين ٧ .

٤

منهج أبي هلال :

وإذا كان الدافع بيناً ، والغرض واضحاً ، فإن المنهج الذى رسمه لنفسه واضح أيضاً فى نهاية الفصل الأول من الباب الأول الذى عقده « فى الإبانة عن موضوع البلاغة فى اللغة وما يجرى معه من تصرّف فى لفظها والقول فى الفصاحة وما يتشعب منه » إذ يختم هذا الفصل بقوله : وليس الغرض فى هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين ، وإنما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب فلهذا لم أطل الكلام فى هذا الفصل [١] .

ويقول فى كيفية نظم الكلام وفضيلة الشعر وما ينبغى لتأليفه :

. . . . فإن كنت متكلما أو احتجت إلى عمل خطبة لبعض من تصلح له الخطب أو قصيدة لبعض ما يراد له القصيد . . . فتخط ألفاظ المتكلمين مثل الجسم والعرض والكون والتأليف والجوهر فإن ذلك هجنة . وخطب بعضهم فقال : إن الله أنشأ الخلق وسواهم ، ومكنهم ثم لاشاهم ، فضحكوا منه . وقال بعض المتأخرين :

نور تبين فيه لاهوتية فيكاد يعلم علم ما لن يعلما

فأتى من الهجنة بما لا كفاء له [٢] .

والذى يبدو من هذين القولين أن أبا هلال يصرح بنفوره من مذهب الكلاميين فى بحث البلاغة ، ويفضل عليه مذهب الأدباء من الشعراء والكتاب ، وهذا التصريح هو ما نريد أن نحققه فى هذا البحث ، لنرى ما إذا كان العسكرى قد وفى لهذا المنهج الذى صرح به فتحاشى مذهب الفلاسفة والمناطقة ، وجنح إلى أسلوب الأدباء صناع الكلام أو الأسلوب

(١) الصناعتين ١١ (٢) الصناعتين ١٢٩ — ١٣٠

الفنى فى نقد أعظم ألوان الفنون الشعر والنثر .

أما أسلوب المتكلمين الذى صرح أبو هلال بأنه سيعرض عنه فهو أسلوب يصدر عن منطق شكلى ، ويعنى بالتقاسيم العقلية ، والنظرات الفلسفية على غرار ما صنع علماء الكلام فى هذا العصر الذين حاولوا أن يؤيدوا القضايا الدينية بالأدلة العقلية الفلسفية وكأنهم لم يقنعوا بإيمان مجرد فالتمسوا تأييده بالأدلة والبراهين .

ومثل ذلك حاول جماعة ممن تعرضوا للأدب أن ينقدوه نقداً منطقياً فلسفيا يقولون للأديب : عليك أن تقول كذا لأن العقل يوجبه ، وأن تتجنب كذا لأن النظر يردّه ويرفضه !

ولعلنا لا نعدو الواقع إذا قررنا أن أبا هلال كان يعنى بقوله هذا أنه لن يسير فى الطريق التى سلكها أبو الفرج قدامة بن جعفر فى كتابه نقد الشعر الذى تأثر فيه بمذهب أرسطو تأثراً ظاهراً واعتمد على كتابه فى الشعر واقتفى أثره فى نقد الشعر العربى .

هذا الكتاب « نقد الشعر » تنكر له بعض علماء العربية ، وألفوا كتباً فى نقده ، ومن الكتب التى ألفت فى ذلك كتاب « تبيين غلط قدامة بن جعفر فى كتاب نقد الشعر » الذى ألفه العالم الأديب أبو القاسم الحسن ابن بشر الآمدى مؤلف كتاب الموازنة كما أسلفنا .

فهل كان أبو هلال حقاً من الراغبين عن مذهب المتكلمين فى نقد الأدب وعلى رأسهم قدامة ؟

يرى الأستاذ أمين الخولى أن ذلك صحيح وأن أبا هلال يمثل طريقة الأدباء خير تمثيل ، ويقول فى ذلك : وأما الطريقة الثانية وهى طريقة الأدباء فى درس البلاغة فتمتاز بالإكثار المسرف من الشواهد الأدبية نثرها

وشعرها والإقلال من البحث فى التعاريف والقواعد والأقسام ، وتعتمد فى النقد الأدبى على الذوق الفنى ، وحاسة الجمال أكثر من اعتمادها على تصحيح الأقسام وسلامة النظر المنطق ولا ترجع فى ذلك إلى أصول الفلسفة من خلقيات أو غيرها . ونرى هذا فى مثل كتابة أبى هلال العسكرى فى الصناعتين يسوق فى المقام الواحد عشرات الأمثلة والشواهد من القرآن والحديث وكلام العرب شعراً ونثراً ويعتمد فى النقد الأدبى على الذوق غير مكتف بالصحة العقلية والسلامة النظرية كما فى مثل قوله عن حسن التأليف (١) .

أما أن كتاب الصناعتين يمتاز بالإكثار المسرف من الشواهد الأدبية شعرها ونثرها فذلك حق واضح ، ولكن القول بأن هذا السبب وحده يجعل أبا هلال رأسا لمدرسة الأدباء فى نقد الشعر فذلك ماهو جدير بالنظر والتثبت وبخاصة إذا قرأنا قول الأستاذ الخولى بعد ذلك فى صراحة « لعل المدرسة الأدبية لم تكد تظفر بالكثيرين من أمثال أبى هلال العسكرى(٢) ».

والواقع أن أباهلال لم يكن ناقداً أديباً فحسب ، بل كان خبيراً بمذهب الفلاسفة عارفا بآراء قدامة ، ولكن خبرته الشاملة ، واطلاعه الواسع على نصوص الأدب العربى وكثرة استشهاده بالقرآن والحديث والشعر والنثر قد غشى على الروح الأصيلة روح البحث العلمى والمنطق المجرد عنده ، واستطاع بدرايته بالأدب العربى وتمكنه منه والقدرة على التمثيل به أن يخفى هذه الروح العلميـة وأن يكسوها ثوباً أدبياً ، وكانت النتيجة أنه بهـذا الاستشهاد الكثير والإيراد الكثير استطاع أن يثبت مذهب قدامة وأن يؤكد صلته بالأدب العربى ، بعد أن نفر منه النقدة الأدباء بحق من أمثال الآمدى وعبد العزيز الجرجانى .

---

(١) البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ٢٠ . (٢) المصدر نفسه ٢٢ .

تاثره بقدامة :

لقد استطاع أبو هلال أن يوهم الناس أنه قد ظل ناقداً أديباً ، وأنه قد سار على منهج أولئك الأدباء الكبار . . . ولكن هذا ليس لسوء الحظ صحيحاً ، وإذا كان العسكرى قد رفض أن يأخذ ببعض تعاريف قدامة فإنه قد أخذ عنه كل ما عدا ذلك ، حتى ليخيل إلينا أنه لم يرفض ما رفض إلا محاكاة للسابقين الذين أجمعوا على خطأ صاحب نقد الشعر فى تحديده للمعاظلة والطباق وما شاكل ذلك (١) .

والأستاذ أمين الخولى نفسه يعود بعد ما أسلف من القول إلى تقرير أن أبا هلال جرى فى مضمار المتكلمين وخدم أغراضهم بل تبع طرقهم فى الدرس وقلدها ، وأما جريه فى مضمارهم وخدمة أغراضهم فذلك حين نسمعه يقول إن البلاغة تدرس للاستدلال على إعجاز القرآن وجعل ذلك الإعجاز أمراً برهانياً لا تقليدياً . . . وأما تأثره بطريقة المتكلمين فى الدراسة ومنهجهم فذلك ما نجده فى أكثر من موضع من كتابه الصناعتين فهو مثلا يجارى قدامة فى جعل الفضائل الأربع أصول المدح ومعياره ، بل يكاد ينقل عباراته بنصها ، كما يتكلم فى خطأ المعانى وصوابها على نحو كلام قدامة بطريقته ، فلم تخلص الطريقة الأدبية فى أبى هلال أو لم يخلص أبو هلال للطريقة الأدبية ولم ينج من تأثير المتكلمين (٢) .

وهذا القول الأخير هو الصواب ، ذلك أن أبا هلال رجل قد اجتمعت فيه ثقافة عصره كاملة سواء كانت ثقافة عربية أصيلة أم تأثرت بالعامل الجديد الذى طرأ عليها ، وهذا العامل هو الثقافة اليونانية التى غزت الفكر العربى فى مختلف نواحيه ، فنشأت الفلسفة الإسلامية متاثرة إلى حد كبير بالفلسفة

(١) النقد المنهجى ٢٧٣ (٢) البلاغة العربية ٢٢ — ٢٣

اليونانية حتى الدين أصابه كثير من ذلك ، فعم الجدل وكثرت الفرق ومكن لمذهب الاعتزال الذى كان نتيجة للثورة الفكرية التى نشأت بعد ظهور هذا العامل الجديد ، وليس تعدد المذاهب والنحل إلا صدى لتوغل الفلسفة اليونانية فى التفكير العربى .

ومن الناحية الأدبية التى تتصل ببحثنا أن كتاب الخطابة Retorikae الذى ألفه أرسطو قد ترجم إلى اللغة العربية ، وقيل أن إسحق بن حنين نقله إلى العربى ، ونقله ابراهيم بن عبد الله ، وفسره الفارابى أبو نصر كما يقول ابن النديم (١) .

لقد انتفع النقاد بهذا الكتاب كما انتفعوا بالكتاب الثانى لأرسطو وهو كتاب الشعر Poitikae الذى نقله أبو بشر متى بن يونس من السريانى إلى العربى (٢) .

والواقع أن أحداً من نقاد الأدب العربى لم ينتفع بهذين الكتابين كما انتفع قدامة فى كتابه « نقد الشعر » وقد عقد بعض العلماء بحوثا لدراسة أثر كتاب الخطابة لأرسطو فى البلاغة العربية « وبالرجوع إلى ما يحفظ الصورة الأصلية لخطابة أرسطو نجد أنه قد تصدى لأبحاث بلاغية كثيرة تكاد تكون جمهرة ما بأيدينا من أبحاث بلاغتنا أو هى على الأقل أنواع كثيرة من فنونها الثلاثة (٣) .

وأبو هلال الذى ألم بكل ثقافة من ثقافات عصره ألم بهذا الكتاب « نقد الشعر » فى جملة ما ألم به ، وظهر هذا الإلمام واضحاً جليا فى كتاب

---

(١) الفهرست ٣٤٩ . (٢) الفهرست ٣٤٩ .

(٣) البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ١٢ وبعد هذه الكلمة إيراد لموضوعات بلاغية مشتركة بين اليونان والعرب ، وانظر بلاغة أرسطو بين العرب واليونان.

الصناعتين إذا ووزن بكتاب « نقد الشعر » أى أن أبا هلال من مدرسة الكلاميين وإن صرح بأنه لم ينهج نهجهم ، ولم يذهب مذهبهم ، فليس ذلك إلا ليخفى هذه الحقيقة حين رأى هذه الحملات القوية على مذهبهم فى نقد الأدب نقداً يعتمد على معرفة الحدود وجودة التقسيم وأسلوب المناقشة والجدل ، وحين رأى جماعة الأدباء يتنكرون لمذهب قدامة . ويؤلفون التأليف فى نقده ، ورأى ما كتب ابن قتيبة فى معرض السخرية اللاذعة من هذا المذهب الفلسفى الذى يراه « ترجمة تروق بلا معنى واسم يهول بلا جسم . فإذا سمع الغمر والحدث الغر قوله : الكون والفساد وسمع الكيان والأسماء المفردة والكيفية والكمية والزمان والدليل والأخبار المؤلفة راعه ما سمع ، وظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة ، فإذا طالعها لم يحل منها بحائل ، إنما هو الجوهر يقوم بنفسه والعرض لايقوم بنفسه ، ورأس الخط النقطة ، والنقطة لا تقسم ، والكلام أربعة أمر وخبر واستخبار ورغبة ، ثلاثة لايدخلها الصدق والكذب وهى الأمر والاستخبار والرغبة ، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر ، والآن حد الزمانين ، مع هذيان كثير ، والخبر ينقسم إلى تسعة آلاف وكذا مائة من الوجوه ، فإذا أراد المتكلم أن يستعمل بعض تلك الوجوه فى كلامه كانت وبالا على لفظه ، وقيداً للسانه ، وعيًّا فى المحافل ، وغفلة عند المتناظرين [1] » .

هذه الأسباب هى التى حملت أبا هلال على أن يتنكر فيما يزعم لمذهب الكلاميين وأن يتبرأ من مذهبهم فى النقد وهو منهم فى الصميم .

أمثلة لأسلوبه الكلامى :

تدبر معى هذه العبارات التى اقتطفناها من الصناعتين ، وهى شىء قليل

(١) أدب الكاتب ٣ . (٢) الصناعتين ٨ .

إذا قيس إلى أمثاله من المنثور فى ثنايا الكتاب ، واحكم بعد ذلك على مبلغ صدق الرجل فى دعواه البراءة من مذهب المتكلمين .

(١) سميت البلاغة بلاغة لأنها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه (التكلم فى العلة والمعلول) .

(٢) تأييده رأيه يقول محمد بن الحنفية : البلاغة قول تضطر العقول إلى فهمه .

(٣) كل صامت ناطق من جهة الدلالة وذلك أن دلائل الصنعة فى جمع الأشياء واضحة .

(٤) فى صفات الخطيب « .. ونظر فى صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة فيها .

(٥) المعانى بعد ذلك على وجوه : منها ما هو مستقيم حسن نحو قولك رأيت زيداً ، ومنها ماهو مستقيم قبيح نحو قولك قد زيْداً رأيت ، وإنما قبح لأنك أفسدت النظام بالتقديم والتأخير ، ومنها ما هو مستقيم النظم وهو كذب مثل قولك حملت الجبل وشربت ماء البحر ، ومنها ما هو محال كقولك آتيك أمس ، وأتيتك غداً !

وكل محال فاسد ، وليس كل فاسد محالا ، ألا ترى أن قولك قام زيد فاسد وليس بمحال ، والمحال مالايجوز كونه البتة ، كقولك : الدنيا فى بيضة. وأما قولك : حملت الجبل وأشباهه فكذب وليس بمحال إن جاز أن يزيد الله فى قدرتك فتحمله .

ويجوز أن يكون الكلام الواحد كذبا محالا وهو قولك : رأيت قائما قاعدا ومررت بيقظان نائم فتصل كذبا بمحال، فصار الذى هو الكذب هو المحال بالجمع بينهما ، وإن كان لكل واحد منهما معنى على حياله ، وذلك

لما عقد بعضها ببعض حتى صارا كلاما واحدا .

ومنها الغلط وهو أن تقول : ضربنى زيد ، وأنت تريد ضربت زيداً فغلطت ، فإن تعمدت ذلك كان كذبا [1].

(٦) التقسيم الصحيح أن يقسم الكلام قسمة مستوية تحتوى على جميع أنواعه ولا يخرج منها جنس من أجناسه .

ولعلك موافق بعد هذا الأسلوب على أن أبا هلال كان متأثراً بأسلوب المتكلمين ، وأنه نهج نهج قدامة ، بل هو الذى أحيا مذهبه الكلامى فى النقد واستطاع أن يجعل موقفه من قدامة موقف الشارح للنص ، فيوضح ويفصل وينهج نهجاً تقريريا تعليميا ، واستطاع أن يخدع عن هذه الحقيقة من أمره بهذا الإكثار المسرف من شواهد القرآن والحديث والشعر والنثر بما له من دراية بها وسعة اطلاع عليها ، وربما كانت هذه الدراية ، وربما كانت تلك الإحاطة الشاملة تنقص قدامة المستعرب ، فجاء أبو هلال فأكمل هذا النقص ، ومكن لمذهب قدامة ، أو مكن للمذهب العلمى الفلسفى فى نقد الأدب ، بعد أن كانت الفنية هى الغالبة على أساليب النقد قبل أبى هلال .

وإذا كان الذى دفع أبا هلال إلى تأليف كتاب الصناعتين هو مارأى من تخليط العلماء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام ، فإن قدامة قد سبقه إلى تقرير مثل هذه العلة ، حين قرر أن علم جيد الشعر ورديئه قد تخبط فيه الناس منذ تفقهوا فى العلوم ، فقليلا مايصيبون ، ولما وجد الأمر على ذلك ، وتبين أن الكلام فى هذا الأمر أخص بالشعر من سائر الأسباب الأخر ، وأن الناس قد قصروا فى وضع كتاب فيه ، رأى أن يتكلم فى ذلك بما يبلغه الوسع [2] .

---

(١) الصناعتين ٧ . (٢) نقد الشعر ١٠ .

وإذا نحن تأملنا هذا القول مليا استطعنا أن نخرج بفائدة تلقى شيئاً من الضوء على علاقة كل من الرجلين بالآخر ، فإن الحافز لأبى هلال على تأليف الصناعتين هو تخبط العلماء الأعلام فى أحكامهم على الشعر والشعراء ، والحافز لأبى الفرج على تأليف نقد الشعر أنه رأى الناس يخبطون فى ذلك منذ تفقهوا فى العلوم فقليلا ما يصيبون ، فالفكرة من غير شك واحدة والموضوع الذى يدور حوله الكلام هو النقد ، وتكاد الألفاظ التى أديت بها الفكرة تكون واحدة وكل هذا يدل دلالة واضحة على الاطلاع بل على الاحتذاء والاقتفاء ، وأبو الفرج يعنى من غير شك بفقه الناس فى العلوم وقوفهم على أساليب التفكير اليونانى الطارىء على أسلوب النقد العربى ، ولعله كان يرى أنه أقدر منهم على فقه هذه العلوم والإفادة منها وإصدار الأحكام على مقتضاها ، وربما كان ذلك لإلمامه باللغة اليونانية واطلاعه بنفسه على آثارها ، أما خبط غيره من الناس فلأنهم ثقفوها بالواسطة والنقل من غيرهم ، وفرق بين العالم الخبير ، والآخذ عن العالم الخبير !

ومن كل هذا يتبين أن دعوى أبى هلال البراءة من مذهب المتكلمين وهم ومغالطة ، ولعلك لو رجعت قليلا إلى الوراء فتذكرت قوله عن كتاب الجاحظ « البيان والتبيين » إن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه ومنتشرة فى أثنائه ... لعرفت أن الرجل مغرق فى مذهب المتكلمين وأن الذى يعنيه بل إن جل غايته من تأليف كتابه إنما هو الإبانة عن الحدود والتعاريف ، وتصحيح الأقسام بالنظر العقلى والتنظيم العلمى . وما أسلوب المتكلمين غير ذاك ؟ !

والحقيقة الثانية أن أبا هلال كان عالما نحوياً ولغوياً أيضا ، وقد قدمنا نماذج من نقد ابن قتيبة فى كتاب الشعر والشعراء توضح خصائص هذا المذهب النقدى . أما أبو هلال فإن المنهج اللغوى يقوى عنده حتى يطغى على باب بأسره من أبواب كتابه ، ويظل سائداً بقية فصول الكتاب .

وسأعرض الآن لكيفية معالجته لمعنى البلاغة والفصاحة ، وهى معالجة لغوية محضة ، حتى ليخيل إلى القارىء أنه يقرأ معجماً من معاجم اللغة ، لا كتاباً يؤلفه صاحبه فى النقد ، ويشرع به التأليف فى علم البلاغة .

أمثلة لأسلوبه اللغوى :

البلاغة من قولهم بلغت الغاية إذا انتهيت إليها ، وبلغتها غيرى ، ومبلغ الشيء منتهاه ، والمبالغة فى الشيء الانتهاء إلى غايته ، فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه (١) .

ويقول بعد ذلك : والبلاغة من صفة الكلام لا من صفة المتكلم ، فلهذا لايجوز أن يسمى الله عز وجل بأنه بليغ ، إذ لايجوز أن يوصف بصفة كان موضوعها الكلام (وهذا أسلوب كلامى).. وتسميتنا المتكلم بأنه بليغ توسع، وحقيقته أن كلامه بليغ ، كما تقول فلان محكم ، وتعنى أن أفعاله محكمة ، قال الله تعالى : « حكمة بالغة » فجعل البلاغة من صفة الحكمة ولم يجعلها من صفة الحكيم .

إلا أن كثرة الاستعمال جعلت تسمية المتكلم بأنه بليغ كالحقيقة ، كما أنها جعلت تسمية المزادة رواية كالحقيقة ، وكان الراوية حامل المزادة وهو البعير وما يجرى مجراه ، ولهذا سمى حامل الشعر راوية .

(١) الصناعتين ٨ .

ولما صار تسمية البغى المتكسبة بالفجور القحبة حقيقة ، وإنما القحاب السعال ، وكانوا إذا أرادوا الكناية عن زنت وتكسبت بالفجور قالوا : قحبت أى سعلت . ومن ذلك النجو لأن الرجل إذا أراد قضاء الحاجة استتر بنجوة والنجوة الارتفاع ، فسمى ذلك الشيء نجواً مجازاً ، ثم كثر استعمالهم له فصار كالحقيقة وصرفوه فقالوا : ذهب ينجو ، كما يقال ذهب يتغوط إذا صار إلى الغائط ، وهو البطن من الأرض لقضاء الحاجة ، وسموا الشيء الغائط ، وصار كالحقيقة حين كثر استعمالهم له ، وقالوا إذا غسل ذلك الموضع من النجو يستنجى ، ومثل هذا كثير ليس هذا موضع استيعابه !

فأما الفصاحة فقد قال قوم إنها من قولهم أفصح فلان عما فى نفسه إذا أظهره ، والشاهد على أنها الإظهار قول العرب : أفصح الصبح إذا أضاء ، وأفصح اللبن إذا انجلت عنه رغوته فظهر وفصح أيضاً ، وأفصح الأعجمى إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين ، وفصح اللحان إذا عبر عما فى نفسه وأظهره على وجه الصواب دون أخطاء [1] .

وقوله : إن رجلا أراد أن يسأل بعض الأعراب عن أهله ، فقال كيف أهلِك ؟ بالكسر ، فقال له الأعرابى : صلباً ، إذ لم يشك أنه إنما يسأله عن السبب الذى يهلك به !

وقال الوليد بن عبد الملك لأعرابى شكا إليه ختناً له : من ختنَك ؟ (ففتح النون) فقال : معذر فى الحى ! إذ لم يشك فى أنه إنما يسأله عن خاتنه [2] (وهذا نقد نحوى) .

وهكذا نرى أبا هلال قد ضم إلى مذهب المتكلمين مذهب النحاة واللغويين وتلك ثقافات عصره اجتمعت لديه فجاء كتابه ملتقى لها .

---

(١) الصناعتين ٩ . (٢) المصدر السابق ١٢ .

٦

عزوفه عن المنهج التاريخى :

غير أن شيئاً واحداً يسترعى الانتباه ، ذلك أن أبا هلال لم يعمد فى دراسة الأدب ونقده إلى شىء من الأسلوب التاريخى ، أو مراعاة الزمان والمكان ، ولم يتحدث فى أثر البيئة فى النتاج الأدبى ، ولا فى تقسيم الشعراء إلى طبقات بحسب التاريخ أو بحسب القبائل ، أو بحسب النتاج الشعرى قلة وكثرة ، أو إجادة وتقصيراً ، كل ذلك لم يتحدث فيه العسكرى ولم يعرض له ، كما لم يعرض للعوامل المؤثرة فى الشعر والشعراء كما فعل ابن سلام فى « طبقات الشعراء » .

ونحن نسأل : أكان أبو هلال قد اطلع على كتاب « طبقات الشعراء » ووقف على منهج ابن سلام واتجاهه فيه أم فاته ذلك ؟

نرجح أن أباهلال العالم الأديب الواسع الاطلاع لم يفته هذا الكتاب كما لم يفته غيره من الآراء التى احتوتها كتب سابقيه ، بَله الأحكام الشفوية التى حكمها سابقوه ورواها الرواة .

إذن فلم أغفل أبو هلال مثل هذا الأسلوب ؟ وهو أسلوب جيد فى نقد الشعر والحكم على الشعراء ؟

الجواب على هذا السؤال : أن أبا هلال نهج فى كتاب الصناعتين نهجا علميا خالصا عالج فيه جوهر الشعر ، ودرس المعانى والألفاظ وفصل ما تسمو به وما تتضع ، دون أن يتعرض لعوامل الإجادة وبواعث المعانى ومنابع الألفاظ ، أو بعبارة أخرى نقول إن أبا هلال قد اتجه للمرة الأولى إلى تحويل أساليب النقد إلى مناهج بلاغية تعنى بالتقسيم والتحديد لأطراف الفن الأدبى .

أما الأسلوب التاريخى فلعله رأى فيما كتب ابن سلام الكفاية . . . أما جوهر الأدب فقد رأى تخليط العلماء كما يقول فى الحكم وفى الاختيار فأراد أن يضع الأسس لهذه الأحكام ، وأن يستدرك مافات الجاحظ من التنظيم العلمى .

لا شك أن هذه الرغبة فى تنظيم هذا العلم علم النقد الأدبى أو علم البلاغة كما أراد أبو هلال أن يسميه ، أو كما أراد أن يحول مجرى النقد الأدبى إلى أصول وقواعد تحتذى ، واضحة صريحة فى كتابة العسكرى نفسه ، فلم يدخل فى منهجه شيئاً له صلة بالمذهب التاريخى وعلاج الزمان والمكان . . وبعبارة أصرح نقول إن أبا هلال كان واضع قواعد ومنظم أحكام تتصل بجوهر الفن الأدبى أو هكذا كان يريد ، وتلك حقيقة واضحة ترفعه إلى مقام الأدباء المفكرين الذين ينظرون إلى الأدب فناً له خصائصه ومميزاته ، من غير مراعاة لقائله ، فنترك الجانب التاريخى للمؤرخين .

٧

ونسأل بعد ذلك : هل نجح العسكرى فى وضع أسس ومقاييس تقاس بها الآثار الأدبية ، ويوزن بها النتاج الأدبى ؟ وهل استطاع الرجل أن يصدر أحكاما قاطعة فى أحكام السابقين تبين صحتها أو خطأها ؟ وهل علّل هذه الأحكام تعليلا ترضاه القواعد التى وضعها ؟

كنا نؤثر أن ندخر القول كله فى هذا الأمر إلى الفصل الذى عقدناه لمقاييسه النقدية والبلاغية ، ولكنا لا نرى بأساً فى هذا المقام من أن نشير إلى أن أبا هلال فى بعض فصول الصناعتين ينسى شخصيته ، ويقف جهده عند ترسم خطا السابقين من النقاد والعلماء ، فيحصى أقوالهم فى حد الفصاحة

وحد البلاغة ، ثم ذهنه وحافظته فى شرح كل قول من هذه الأقوال ، وقد يكون الشرح أيضاً من ثمرات غيره .

وليته إذا أحصى هذه الحدود استطاع أن يستخلص منها الحد الذى يرضاه عقله ويطمئن إليه فكره ، أو أصدر حكما مفصلا معللا لها بل قد تعجب حين تراه يجمع الرأى إلى ضده دون أن يرجح أحد الرأيين ، بل ربما شرح الرأيين وأيدهما بما وعت حافظته من شواهد القرآن والحديث والشعر والنثر ، ولسنا نرمى الكلام على عواهنه ، ولسنا نظلم الرجل بل إن الإنصاف يقتضينا أن ندرس الرجل أو بعبارة أخرى نخدم الفكرة بإبرازها بما لها وماعليها ، وقد يزعم بعض الناس فى زماننا أن اختيار مؤلف لموضوع من الموضوعات أو شخصية من الشخصيات ، عامل من عوامل الانحياز والتعصب لما اختار ، وإن جانب الحق وبعد عن الصواب ، وما نرى هذا الرأى لمن يتصدون لمثل ما تصدينا له ، بل نرى أن خدمة العلم دائما ، تلتقى دائما بنصرة الحق وإن خالف الهوى ، وفيما يأتى الدليل على ما أسلفنا :

(١) فى مبحث الفصاحة :

(١) قال قوم : إذا كان الأمر على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما ، لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له .

(٢) وقال بعض علمائنا : « الفصاحة تمام آلة البيان » وعلق على هذا بقوله : فلهذا لايجوز أن يسمى الله تعالى فصيحا إذ كانت الفصاحة تتضمن معنى الآلة .

(٣) وسمعت قوما يذهبون إلى أن الكلام لايسمى فصيحا حتى يجمع مع هذه النعوت فخامة وشدة جزالة .. فيكون مثل قول النبى صلى الله عليه وسلم:

ألا إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، ومثل كلام الحسين بن على رضى الله عنهما : إن الناس عبيد الأموال والدين لغو على ألسنتهم يحوطونه مادرّت به معايشهم، فإن محصوا بالابتلاء قل الديانون ، ومثل المنظوم قول الشاعر :

ترى غاية الخطىّ فوق رءوسهم كما أشرقت فوق الصّوار قرونها [1]

(٤) قالوا : إذا كان الكلام يجمع نعوت الجودة ولم يكن فيه فخامة وفضل جزالة سمى بليغاً ولم يسم فسيحاً [2] .

(ب) فى بحث البلاغة :

(١) قال محمد بن الحنفية رضى الله عنه : البلاغة قول تضطر العقول إلى فهمه بأسهل العبارة . . فقوله تضطر العقول إلى فهمه عبارة عن إيضاح المعنى ، وقوله : بأسهل العبارة تنبيه على تسهيل اللفظ وترك تنقيحه[3] .

(٢) وقد جاء عن الحكماء أقوال أنا ذاكرها ومفسرها لتكمل فائدة الكتاب إن شاء الله : قال إسحق بن حسان : لم يفسر أحد البلاغة تفسير ابن المقفع : البلاغة اسم لمعان تجرى فى وجوه كثيرة ، منها ما يكون فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون خطباً ، وربما كانت رسائل . . ثم يأخذ فى الشرح .

(٣) وقال معاوية رضى الله عنه لابن أوس : ابغ لى محدثاً ، قال : أو تحتاج معى إلى محدث ؟ قال : أستريح منه إليك ومنك إليه ، وربما كان صمتك فى حال أوفق من كلامك . . وله وجه آخر[4] .

---

(١) الخطى : الرماح ، والصوار: بالضم والكسر القطيع من البقر ، أو أعالى الجبال والقرون قرون البقر ، وإذا أريدت الجبال كانت القرون أشعة الشمس .

(٢) الصناعتين ١٠ — ١١ (٣) ص ١٣ (٤) ص ١٥

(٤) وقال بعض الهند : جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواقع الفرصة ، ومن البصر بالحجة . . . الخ .

(٥) وقال الهندى أيضا : البلاغة وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة ، وقول عبيد الله بن عتبة : البلاغة دنوّ المأخذ وقرع الحجة ، وقليل من كثير . فأما البصر بالحجة فمثل ماأخبرنا به أبو أحمد[١]..الخ.

(٦) وقال حكيم الهند : أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح متخير اللفظ ، لايكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة[٢] .

فقوله : أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة . . . ويأخذ فى شرح هذه العبارة فى تطويل وإسهاب واستدلال ، حتى يستغرق شرح هذه العبارة الوجيزة والتمثيل لها ثمانى عشرة صفحة كاملة من كتاب الصناعتين[٣] .

(٧) وقول بعض الحكماء البلاغة قول يسير يشتمل على معنى خطير ، وهذا مثل قول الآخر : البلاغة حكمة تحت قول وجيز ، وقول الآخر : البلاغة علم كثير فى قول يسير ، ومثاله قول الأعرابى ...[٤]

(٨) وقال ابن الرومى : البلاغة حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة عند الإطالة . . . الاقتضاب أخذ القليل من الكثير وأصله من قولهم اقتضبت الغصن إذا اقتطفته من شجرته ، وفيه معنى السرعة أيضاً[٥] .

(٩) وقال جعفر بن يحيى : البلاغة أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويجلّى عن مغزاك ، وتخرجه من الشركة ، ولا تستعين عليه بطول الفكرة ،

---

(١) الصناعتين ١٧ (٢) ص ٢٠

(٣) الصناعتين من ص ٢٠ إلى ص ٣٨ (٤) ص ٣٩ (٥) ص ٤١

ويكون سليما من التكلف ، بعيداً من سوء الصنعة ، بريئاً من التعقيد ، غنياً عن التأمل . .

قوله : أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، فالاسم ها هنا اللفظ أى يحصر اللفظ جميع المعنى [1] .

(١٠) وقال العربى : البلاغة التقريب من المعنى البعيد، والتباعد من حشو الكلام ، وقرب المأخذ ، وإيجاز فى صواب ، وقصد إلى الحجة ، وحسن الاستعارة ومثله قول الآخر : البلاغة تقريب ما بعد من الحكمة بأيسر الخطاب . . . والتقرب من المعنى الغريب [2] . . . إلى أن يقول : والرواية الصحيحة أن العربى قال : البلاغة التقرب من المعنى البعيد ، ولكن رأيته فى بعض أصولى كما ذكرته قبل فأوردته ها هنا ، وفسرته على مارأيته فى الأصل!

هذا هو جهد أبى هلال فى باب الفصاحة والبلاغة اكتفينا بما أورده فيهما من هذه النصوص والآخذ فى شرحها وتوضيحها .

أما القول فى إعجاز القرآن وتفصيل وجوهه فلم يتعرض له العسكرى وكل ما فعله أنه ساق أمثلة من القرآن الحكيم إلى جانب شواهد من الحديث والشعر والنثر ، مع أنه ذكر فى أول كتابه ما يدل على أن الكلام فى الإعجاز من أهم الغايات التى ألف لها كتابه .

٨

اعترافه بأنه مفسر وشارح :

ونلاحظ أنه لم يستطع أو لم يحاول أن يستخلص تعريفاً واحداً من هذه التعريفات الكثيرة يرضاه ويتخذه غيره قاعدة . وهذا جل عمله ومدعاة فخره أنه جمع هذه الأقوال والتعريفات والحدود وفصلها وشرحها ،

(١) ص ٤٢ (٢) ص ٤٧

وهذه عبارته فى التباهى بنفسه والزهو بعمله : « ذكرت فى هذا الباب وهو ثلاثة فصول من نعوت البلاغة ووجوه البيان والفصاحة ما فيه كفاية ، وأتيت من تفسير مشكلها على ما فيه مقنع ، ولم يسبقنى إلى تفسير هذه الأبواب وشرح وجوهها أحد . وإنما اقتصر من كان قبلى على تلك النعوت عارية مما هى مفتقرة إليه من إيضاح غامضها ، وإنارة مظلمها ، فكانت المنفعة بها للعالم دون المتعلم والسابق دون اللاحق ، وربما اعترض الشك فيها للعالم المبرز فسقطت عنه معرفة كثير منها ، وأنت — أيدك الله — تعتمد ماذكرته من ذلك ، وتأتم بما شرحته منه ، وتستدل على ماألفيته من جنسه إذا عثرت به ، لتستغنى عن جميع ما صنّف فى البلاغة وسائر ما ذكر من أصناف البيان والفصاحة إن شاء الله (١) » .

والذى يبدو لنا أن العسكرى يعنى بمن كان قبله أبا عثمان الجاحظ الذى ذكر تلك النعوت عارية مما هى مفتقرة إليه ، ومن يقرأ البيان والتبيين يقف على تلك النعوت والحدود للبلاغة والفصاحة . ولم يكن أبو هلال أميناً فى إغفاله المصدر الذى أخذ عنه ، وإن ذكر الجاحظ وكتابه وعبر عن إعجابه به . ولسنا نعرف من أحصى تلك النعوت والحدود غير الجاحظ. فلم يكن من الأمانة العلمية ، ولا من أخلاق العلماء أن ينقل عالم كأبى هلال نقلا بيّناً من غير أن يشير إلى المصدر الذى استقى منه .

وليس يعنينا هذا الآن بقدر ما يعنينا أن أبا هلال فى أكثر هذه الأقوال لم يجهد نفسه فى تعرف قائلها ، وكان يفيدنا ذلك أن نرجع إليها فى مظانها ، وإنما أنت ترى كما نرى أن أبا هلال يجتزىء بقوله قالوا ، ومن قولهم فى ذلك . . . قال الهندىّ . . . قال العربىّ ، وتلك زيادة فى التعمية

(١) ص ٥٤ .

والإلغاز، وكان يرفعه الإنصاف عالماً، أكثر مما يهبط به الاعتساف مغتصباً.

منهج المعلمين

على أن منهج أبي هلال فى تناول هذه النصوص هو منهج المعلمين، وقد كان مثل هذا الأسلوب سائدا منذ عهد قريب فى أساليب التعليم، تناول المتون بالضبط، ثم الشرح والتحشية والتحليل والتمثيل، والاستطراد فى ذلك حتى تستنزف العبارة الواحدة شرحاً كثيراً وجهداً كبيراً ووقتاً طويلا، وهو أسلوب التفريع الذى ينطوى به الأصل بين الفروع. وهذا أسلوب الكتب القديمة التى كانت إلى عهد قريب مورد الثقافة فى مصر والبلاد العربية. وهو أسلوب تقريرى تعليمى يكون بعرض الكليات ثم تناول جزئياتها، ولكن هذا العرض وذلك البحث لا يؤديان إلى قاعدة توضع ولا إلى حكم يرتضى، وإنما اكتفاء بالشرح والتفسير، وزعم أن ذلك العلم كله الذى يرفعه على السابقين.

وقد يعييك البحث عن الجديد فى تناول الأصول ونقد الأحكام فى مثل هذا الباب فلا تكاد تجده.

ثم ما الذى يعنينا، وما الذى نفيد من أمثال التعريفات ومن شروحها هل يفيد منها الأديب؟ هل يفيد منها الناقد؟ هل يفيد منها المنشىء؟ هل يفيد منها الناظر فى إعجاز القرآن؟

نعتقد أن هذا الباب بأسره — الباب الذى عالج فيه معنى الفصاحة والبلاغة — لا يضيف إلى العلم ولا يضيف إلى النقد فى أى اتجاهاته فائدة جديدة. وإنما هو باب توقيفى أو باب تقريرى يفيد منه المتعلم لا العالم، ويدرك به اللاحق ما عند السابق من علم ومعرفة، وقد يفيد منه — كما يقول العسكرى — العالم المبرز إذا غاب عنه شىء منه كما يقول.

على أننا لانستطيع أن نجحد قيمة هذه الشروح التوضيحية من حيث الإفاضة فى التمثيل وعرض نماذج جيدة من ثمرات الأدب الشهية فى أثنائها .

منهج الصناعة

ومنهج أبى هلال بعد كل ما تقدم منهج الصنعة يحرص عليها ويصطنعها ولا يستطيع بعد ذلك أن يخفى إعجابه برجال الصنعة ، والمقياس الذى يقيس به الشعراء والأدباء هو إحكامهم للصنعة واقتدارهم على الإفادة من مذهب البديع ، واستخدام محسناته فى ضروب الكلام .

وأنت ترى ذلك بوضوح فيما أورد من أمثلة للتجنيس فيها التكلف الممقوت ، وفيها السجع المصنوع ، أوردها مورد الاستشهاد وخلطها بغيرها من الجناس المستحسن والسجع المقبول ، ومن ذلك : هشمتك هاشم ، وأمتك أمية ، وجمحت بك جمح ، وخزمتك مخزوم ، وأقصتك قصى[1] . . وجنس أبو تمام أربع تجنيسات فى بيت واحد ولعله لم يسبق إليه وهو قوله :

بحوافر حفر وصلب صلب ... وأشاعر شعر وخلق أخلق[2]

وقوله أيضاً :

لسلمى سلامان وعمرة عامر ... وهند بنى هند وسعدى بنى سعدى

ومما جنس فيه قوله :

ففصلن منه كل مجمع مفصل ... وفعلن فاقرة بكل فقار[3]

وأبو هلال مولع الولوع كله بهذه الصناعة العجيبة وهذا التزاحم الغريب

---

(١) الصناعتين ٣١٣ (٢) الأشعر ما استدار بالحافر من منتهى الجلد

(٣) الصناعتين ص ٣٢١ والفقار : جمع فقارة ما انتضد من عظام الصلب من لدن الكاهل إلى العجب ، والفاقرة : الداهية .

الذى لايستسيغه إلا ذوو الأذواق المعقدة والتكلف المقيت ، انظر إليه يقول فى بيت امرئ القيس فى وصف حصانه :

له أيطلا ظبيٍ وساقا نعامة وإرخاءُ سرحان وتقريب تَتْفُلِ

وهذا من بديع التشبيه لأنه شبه أربعة أشياء فى بيت واحد ، وكذلك قول المرقش :

النشر مسكٌ والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم[1]

فهذا تشبيه ثلاثة أشياء فى بيت واحد .

وليت أباهلال كان يجتزىء باستحسانه الصريح المبنى على ذوقه الخاص ، ولكنه لا يفعل ذلك حتى يدعو الشعراء إلى اقتفاء هذه الآثار فى تزاحم البديعيات والتشبيهات فيقول : ثم نورد هاهنا شيئاً من غرائب التشبيهات وبدائعها ليكون مادة لمن يريد العمل برسمنا فى هذا الكتاب .

ثم يعرض طائفة مما استحسن من الأبيات الموقرة بالتشبيهات حتى يقول : ومن بديع التشبيه قول الآخر :

نشرت إلى غدائرا من شعرها حذر الكواشح والعدو الموبق

فكأننى وكأنها وكأنه صبحان باتا تحت ليل مطبق[2]

فشبه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء مفصلة .

ولست بحاجة إلى أن أفصل موضع السخف فى البيتين فى قوله «فكأننى وكأنها وكأنه» ولن يشفع للشاعر ولن ينفع أبا هلال أن يأتى الشاعر بألف تشبيه !

وبعد لأى وكد يصل العسكرى إلى مثله الأعلى وغاية الغايات فى ذوقه الخاص فى قول الوأواء الدمشقى :

---

(١) الصناعتين ٢٣٨ . (٢) الصناعتين ٢٣٩ .

وأسبلت لؤلؤاً من نرجس فسقت ورداً وعضت على العناب بالبرد

فيجعله أتم التشبيه ، لأنه شبه خمسة أشياء بخمسة أشياء فى بيت واحد : الدمع باللؤلؤ ، والعين بالنرجس ، والخد بالورد ، والأنامل بالعناب ، لما فيهن من الخضاب ، والثغر بالبرد . . . ثم ينهى حكمه وإعجابه بهذا البيت فيقول : ولا أعرف لهذا البيت ثانيا فى أشعارهم [1] .

أرأيت أن العسكرى رجل صناعة قبل كل شىء يضع أسسها ويعجب بقائليها ، ويباريهم فى استخدامها فى شعره ونثره ، وكان من دعاتها الذين استجابت لهم القرون التالية ، فأحالت الأدب إلى طلاء زخرفى لا تكاد تتميز به جمال البناء ولا روعة الإنشاء ، وجعل الصناعة مقياس الأدباء ، ومقياس النقاد فى الحكم بالإساءة أو بالإحسان .

خلاصة الفصل:

نستطيع أن نستخلص مما فصلنا فى هذا البحث منهج أبى هلال فى دراسته البلاغية ونجمل هذا المنهج فيما يأتى :

١ — نهج أبو هلال منهج المتكلمين فى دراسة الأدب ونقده — وإن ادعى نفوره من مذهبهم ، وحاول أن يخفى سلوكه مسلكهم — فحول تيار النقد الأدبى الذى كان يعتمد أول ما يعتمد على تطبيق النصوص الأدبية على تقاليد العرب المأثورة ، وما درج عليه الشعراء القدامى فى مطالع قصائدهم وتشبيهاتهم واستعاراتهم وأغراضهم ومعانيهم إلى منهج عقلى يعنى بالحدود والتقاسيم .. حول القول فيما هو كائن إلى القول فيما يجب أن يكون .

٢ — عنى بالتنظيم العلمى وحصر الأحكام ، بعد أن كانت مبثوثة فى البيان والتبيين وغيره ، فشرع قواعد للفنون الأدبية ، أو بعبارة أخرى ،

(١) ص ٢٤٠ .

حول مجرى النقد الذى يعتمد على الذوق والموازنة إلى علم منظم واضح المعالم بين السمات هو علم البلاغة الذى وضع أساسه قدامة بن جعفر وأرسى قواعده ، وأتم بناءه أبو هلال .

٣ — ومنهجه منهج تقريرى من جهة أخرى إذ يتناول التعاريف والتقاسيم ، أو يضع القاعدة ويقسم الأقسام ، ثم يشرحها ويحللها ويمثل لها من محفوظه ويسرف فى التمثيل والاستشهاد إسرافا ظاهراً ، حتى لقد يكون من الممكن أن يعد كتاب الصناعتين بهذا كتاباً من كتب الأدب التى تحشد فيها النصوص البليغة والأقوال المأثورة فى كل فن من فنون الأدب .

٤ — وهو منهج تعليمى من ناحيتين :

(ا) للنقاد الذين يحرصون على تعلم أصول النقد ، وتعرف أسباب الحكم بزيفه أوأصالته ، وجيده ورديئه ، سواء منهم المبتدىء ، والآخذ منه بنصيب إذا غاب عنه وندّ عن فهمه شىء منه .

(ب) للأدباء المنشئين الذين يحرصون على جمال الفكرة وحسن الصورة يعلمهم قواعد الصناعة ، ويرسم لهم أساليب الإجادة والإتقان — كما تروق له — ليسلكوا سبلها .

(٥) منهج العسكرى هو منهج البحث عن الصناعة البلاغية بكل ما تحوى هذه الكلمة من معان ، سواء فى ذلك ما يتصل بأساليب البيان أو محسنات البديع ، يشيد برجالها ويدعو إلى اقتفائهم ، ويحذو هو نفسه حذوهم فى نثره وشعره ، وخير الأساليب الأدبية فى نظره ماحلاه البديع ، وكساه التصنيع .

المقاييس

نعالج فى هذا الفصل المقاييس التى وضعها أبو هلال لقياس الأدب ، ونوضح القواعد البلاغية التى رسمها لسلامة الأساليب الأدبية من العيوب ولتسلم من النقـــد لتكون البلاغة نحو الأدب تعصم الأديب من أخطاء الأساليب وعيوب التراكيب كما يجنب النحو الخطأ فى الأعاريب ، ويصون اللسان والقلم من اللحن . وسنجتهد فى عرض هذه القواعد والإشارة إلى منابعها الأولى إن كانت قد تهيأت لواحد من السابقين الذين عرضوا لعلاج فنون الأدب .

وأبو هلال — كما قدمنا — ينهج فى كتاب الصناعتين نهجا تعليمياً إذ كانت غايته أن يخضع صناعتى الشعر والنثر لقواعد ومقاييس ، ويلزم الأدباء التزام هذه القواعد والاقتداء بها . وهو الذى جنح بالنقد الأدبى الذى يعتمد على الذوق أكثر مايعتمد إلى علم ذى أسس وأصول وهو علم البلاغة الذى شرعه وبين معالمه .

ولست أحب أن يتبادر إلى الذهن من هذا أن تلك المقاييس والقواعد التى نجدها فى كتاب الصناعتين من صنع العسكرى وحده ابتكرها ابتكارا ، ولم يسبقه إليها واحد من الذين عرضوا لنقـــد الأدب ، فإننا سنجتهد أن نوضح مصادر هذه المقاييس ومآخذها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . وقد مر فى الفصل الثالث من هذا البحث الإشارة إلى منابع بلاغته بوجه عام ولكننا هنا سنقف القارئ على حظ العسكرى من الابتكار ، وحظ آرائه

ومعاييره من الجدة والأصالة فى كل مقياس من المقاييس التى نعرض لها بالبحث.

وضع أبو هلال للأدب مقاييس لاتكاد تدع ناحية من نواحى الكلام إلا تعرضت لها ورسمت لها سبيل الإجادة . ولقد اشتد الخلاف بين النقاد أنفسهم حول وضع المقاييس للفنون عامة والنقد بوجه خاص ، فمنهم من قال إن النقد مسألة ذاتية خالصة تعتمد على ماتبعثه النصوص فى نفوس القراء من انفعالات وما تؤثر فى أذواقهم من آثار مقبولة أومنكرة ، وهذه النفوس والأذواق مختلفة باختلاف الأفراد ، فكل يتلقى النصوص وآثارها بطبيعة ممتازة ، ويتذوقها بحس خاص ، ويقدرها تبعا لذلك . على أن هذه النصوص والأذواق تستحيل مع الأيام وسعة الثقافة وباستحالة الحياة الاجتماعية والطبيعية فتصبح أحكامها معرضة للنقض والتناقض . ومعنى ذلك تعدد الأحكام بتعدد النقاد ثم تغيرها بتغير الأحوال ، وليس هذا من طبيعة العلم ذى القوانين العامة الثابتة التى لاتتأثر بالملاحظات الفردية ولا المؤثرات الزمانية والمكانية ، ولكنها تمثل الموضوعية دون الذاتية التى هى طابع الفنون [1] . وكلمة « الصناعة » التى ذكرها أبو هلال ترجمة لكلمة الفن للتمييز بينها وبين العلم ، والفن هو المهارة سواء كانت تلك المهارة فيما تثقفه اليد أو يثقفه اللسان ، فهو صناعة ، فالدمية صناعة اليد ولا يزاولها إلا الفنان أو الصانع الصناع الذى يختار لها المادة الجيدة والأوضاع الجيدة ، وقديقصر بحسب تمكنه من صناعته ، فإذا اجتمعت جودة المادة إلى جودة الهيئة الحاصلة عدّ الفنان متمكنا من صناعته ، وكذلك سمى الأدب صناعة لما فيه من المهارة فى إصابة المعنى أو ابتكار الخيال أوجمال الفكرة وحسن الصياغة والتأنق فى الأسلوب .

---

(١) أصول النقد الأدبى ١٥٦

أما تاريخ هذا المصطلح فى الأدب العربى فلعل محمد بن سلام كان أول من فطن لذلك حين قرر أن الشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات [1] . . وأخذ العسكرى عنه ذلك فسمى كتابه «الصناعتين» كما ظهرت كلمة الصناعة على لسان غيره من النقاد كالآمدى الذى يذكر لفظ الصناعة ويردد قول ابن سلام ومانقله عن خلف [2]. والعمدة فى الصناعة على المرانة والدربة والممارسة والمهارة ، وكل أولئك يتفاوت بتفاوت الأدباء والنقاد ، وكذلك الفنون عامة مبنية على كثرة المزاولة ، ومن هنا كان الشك فى حاجة الفنون إلى قواعد تنظمها مع التسليم بأن الذوق لاغنى عنه فى هذا السبيل . وكان أبو هلال يتمتع من الذوق بحظ رفيع ، ولديه القدرة على إصدار أحكام صائبة فى كثير من الأحيان .

وكان يسعه أن يتمحض لذوقه وطول معاناته للأدب فيجيد إجادة ليس وراءها بغية لمستزيد ، ولكن رغبته فى الإحاطة بجميع المذاهب ، وجمع الآراء هى التى أفسدت عليه ذوقه ، فجعلته يؤثر مذهب الصنعة ، ويتابع المتكلمين فيعنى بأساليبهم فى الدرس والبحث ووضع الحدود وتنظيم الأقسام ، ولو أنه أسلم نفسه لفنه وأطلق العنان لذوقه وبصيرته النفاذة لسلم من التخبط بين المذاهب المختلفة ولكان له ولكتاب الصناعتين شأن أى شأن.

عالج العسكرى الكلام بشطريه الشعر والنثر ، وسمى كتابه الصناعتين الكتابة والشعر ، وكان الأجدر أن يسميه الشعر والنثر ليكون أقرب إلى الصواب ، وإن كان قد ذكر الكتابة وحدها فلأنها كانت أهم ألوان النثر فى العصر الذى عاش فيه وتبوأ الكتاب فى زمانه أعلى الدرجات ، وكانوا المرموقين من بين أصحاب الصناعات ، وتسنموا المناصب الرفيعة ولكن

---

(١) طبقات الشعراء ٦ (٢) الموازنة ١٧٧ — ١٧٨

على الرغم من هذه التسمية فإن الكتاب يعالج مسائل من فنون النثر الأخرى كالخطب والرسائل والمناظرات وغيرها .

قسم أبو هلال الكلام إلى قسميه المعروفين الشعر والنثر وتكلم فى أحكام تعمهما ، ووضع مقاييس يقاس بها كل منهما . وإذ كان اللفظ والمعنى ركنى الأدب اللذين جعلهما أبو هلال محوراً لدراسة الصناعتين ، وكان من السابقين فى علاجهما وبيان منزلة كل منهما فى بناء الكلام فقد آثرنا أن نتابعه فى جعل اللفظ والمعنى أساس دراستنا لاستخلاص مقاييسه .

الألفاظ

كان العسكرى من مدرسة الجاحظ التى تتشيع للصياغة وتتعصب للفظ وربما كان العسكرى أكثر من رأينا مغالاة فى تقدير قيمة اللفظ يجعله فى الأثر الأدبى كل شىء ، ويجحد المعنى فلا يجعله شيئاً . ونستطيع من غير جهد أن نقرأ هذا القول ونستخلص منه هذا الرأى فى الفصل الذى عقده فى تمييز الكلام، وهو الفصل الأول من الباب الثانى [1] الذى يؤكد فيه هذا الرأى حين يقرر أن الكلام إنما حسنه بما يكون فيه من سهولة ونصاعة . وتخير لفظ وإصابة معنى ، وجودة مطالع ، ولين مقاطع ، واستواء تقاسيم ، وتعادل أطراف ، وتشبه أعجازه بهواديه ، وموافقة مآخيره لمباديه ، مع قلة ضروراته بل عدمها أصلا ، حتى لايكون لها فى الألفاظ أثر ، فتجد المنظوم مثل المنثور فى سهولة مطلعه وجودة مقطعه ، وحسن رصفه وتأليفه ، وكمال صوغه وتركيبه ، فإذا كان كذلك كان بالقبول حقيقاً وبالتحفظ خليقاً ... إلى أن يقولها فى صراحة :

« ليس الشأن فى إيراد المعانى لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى

(١) كتاب الصناعتين ٥٤ .

والقروى والبدوى » . وإنما هو فى إجادة اللفظ وصفائه ، وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السّبك والتركيب ، والخلو من أود النظم والتأليف . . . وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً (وهو ما أراده من قوله « وإصابة معناه » فى عبارته الأولى) ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التى تقدمت .

فمدار البلاغة فى نظر العسكرى هو الصناعة اللفظية والتأنق فى صوغ اللفظ ، ويعدّ ذلك التأنق غاية الغايات من نظم الكلام أو هدف الأدب ، أما أن تكون الغاية إفهام القارىء أو السامع فحوى الكلام فذلك ما لا يراه العسكرى ، مستدلا بأن الخطب الرائعة والأشعار الرائقة ما عملت لإفهام المعانى فقط ، لأن الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها فى الإفهام . . . ولهذا تأنق الكاتب فى الرسالة ، والخطيب فى الخطبة ، والشاعر فى القصيدة يبالغون فى تجويدها ، ويغلون فى ترتيبها ليدلوا على براعتهم وحذقهم بصناعتهم . ولو كان الأمر فى المعانى لطرحوا أكثر هذا العناء فربحوا كداً كثيراً ، وأسقطوا عن أنفسهم تعباً كثيراً (١) .

وهذا الرأى الذى يذهب إليه من أن الأدب ليست غايته الإفهام ولا بسط المعلومات وتلقينها يشبه إلى حد كبير نظرية أرسطو فى الفن الأدبى : ذلك أن البحث فى الفنية هو بحث فى الابتكار وفى الوسائل التى تتخذ للوصول إلى شىء مبتكر قد يكون موجوداً وقد يكون غير موجود ، لأن الفنية موجودة فى نفس مبتكرها لا فى طبيعة الأشياء المتحدث عنها ، والفنان يستطيع أن يبتكر جمالا من شىء لا جمال فيه ، وأن يضفى جمالا على شىء ليس جميلا فى ذاته وليس موضعاً للجمال ، فإذا وصفنا الأشياء وصفاً مادياً كما هى فى الطبيعة

(١) الصناعتين ٥٧ — ٥٨ .

والواقع ، فليس هذا فناً لأنه لا ابتكار فيه ومن ثم لا فنية . وليست هناك فنية فى الأشياء الموجودة بالضرورة ولا فى الأشياء اللازمة لزوماً عقلياً لأن مثل هذه الأشياء لها عناصرها فى الطبيعة وما زدنا على الطبيعة شيئاً (١).

فإن كان الذى يريد أبو هلال من أن الأدب ليس غايته الإفهام ، وإنما الهدف العمل الفنى الذى يدل على ذاتية الأديب وتبرز فيه شخصيته ومقدرته على التصرف فى الصورة وإلباس الفكرة ثوباً من الخيال تسمو به عن الواقع المألوف ، فلا غبار على هذا الرأى .

ويؤيد أبو هلال هذا القول فى الفن بتقريره أن الأثر الأدبى قد يسمو باللفظ وحده إذا كان سامياً ، وحسب المعنى أن يكون وسطا ، فالكلام إذا كان لفظه حلوا عذبا وسلسا سهلا ومعناه وسطا دخل فى جملة الجيد ، وجرى مع الرائع النادر كقول الشاعر :

ولما قضينا من منى ..... الأبيات

ألست ترى أن العسكرى قد غلا واشتط ، ولم يقده إلى هذا الشطط سوى تعلقه بمذهب الصنعة هذا التعلق الذى أعماه عن تقدير المعنى ، وليس المعنى دون اللفظ منزلة فى تقدير القيمة الفنية للأدب ، ولا شك عند المنصفين أن وجوب مراعاة جانب المعنى لا يقل شأناً عن وجوب الاهتمام بالألفاظ ومانظن أحداً يقره على هذا الذى ذهب إليه من أن المعانى يعرفها الحضرى كما يعرفها البدوىّ ويعرفها العربىّ معرفة العجمىّ ، بل إن التفاوت بين طبقات الناس هو القاعدة ، ومن ذا الذى يجحد تفاوتهم فى المواهب ، وتفاوتهم فى الاستعداد وعوامل الوراثة ؟ بل من ذا الذى يستطيع أن يتنكر لأثر التجربة وأثر البيئة وأثر الثقافة فى العقليات ، وهى لا تنسى للناس بدرجة

(١) كتاب الخطابة لأرسطاطاليس : ٣٧ .

واحدة ؟ وليست المعانى إلا الأثر لهذه المقومات أجمع !

فأين الحقيقة من المجاز والاستعارة والكناية ؟ والخيال يلعب فيها دوراً خطيراً ، بل هو كل شيء فيها ، ومعانى الشعر ميزتها الكبرى أنها خيالية ، وهذه المعانى وهذا الخيال يختلف من شخص إلى شخص ، وخيال ساكن الصحراء غير خيال سكان الشواطىء ، غير خيال سكان الأودية ، وخيال العالم غير خيال الجاهل . والحقيقة أنه لم يعثر هذه العثرة إلا لإيثاره مذهب الصنعة وهذه الصنعة ميدانها من غير شك الألفاظ والأساليب .

إن العسكرى وأضرابه من الذين يذهبون مذهبه فى تقدير اللفظ وإنكار التفاوت بين الناس فى الإجادة فى المعنى فى تقدير البلاغة يتجاهلون عمداً عقليتهم ، بل ينكرون أثر الحضارة فى بناء هذه العقلية ، وكذلك شأن الذين يجحدون التفاضل بين الألفاظ ، لأنهما متصلان أشد اتصال ، لأن التفكير فى اللفظ والمعنى تفكير جملى يفكر فيه الأديب مرة واحدة وبحركة عقلية واحدة فإذا رتبت المعانى فى الذهن ترتيباً منطقياً ، وإذا تحددت فى الفكر تحديداً يجمعه ترابط المعانى وتداعيها ، هذا الترابط وهذا التداعى الذى يرضاه المنطق أو يرضاه حس الأديب ، انحدرت هذه المعانى على اللسان بألفاظها الملائمة لها خطابة وانحدرت على القلم بألفاظها المطاوعة لها كتابة وشعراً من غير تهذيب واختيار لهذه الألفاظ . وكبار الكتاب الذين ينقحون من ألفاظهم بعد كتابتها إنما يغيرون من هذه الألفاظ لأن معانيها قد تغيرت فى نفوسهم إما بالتحديد وإما بالزيادة والنقص فهم يستبدلون اللفظ باللفظ وفق ماغيّروا فى أنفسهم من المعانى ففصل اللفظ عن المعنى هذا الفصل الذى يريده أبو هلال مخالف لطبيعة الأشياء ولطبيعة العقل نفسه[1].

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ١٥١ — ١٥٢ .

على أن عالماً أديباً يسبق أبا هلال بنحو قرنين من الزمان يعرف منزلة اللفظ كما يفطن إلى منزلة المعنى فى الحكم على الأدب وتقدير قيمته الفنية ، ذلك هو بشر بن المعتمر[1] الذى كتب صحيفة ذكر فيها البلاغة ، ودل على مظان الكلام والفصاحة يقرر فيها أن التوعر يسلم إلى التعقيد والتعقيد هو الذى يستهلك المعانى ويشين الألفاظ ، والأديب الذى يريغ معنى كريما عليه أن يلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن يصانا عما يفسدهما ويهجنهما .

والمنزلة الأولى عند بشر للأديب الذى يكون لفظه رشيقاً عذبا ، ونخما سهلا ، ومعناه ظاهراً مكشوفا وقريباً معروفا ، إما عند الخاصة إن كان إليها قصد ، وإما عند العامة إن كان إياها أراد ، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معانى العامة . . والبليغ التام هو الذى يبلغ ببيان لسانه وبلاغة قلمه ولطف مداخله أن يفهم العامة معانى الخاصة ، ويكسوها الألفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء . ولا تجفو عن الأكفاء .

فالمعانى عند بشر ليست على درجة واحدة بل هى متفاوتة فيها الكريم وغير الكريم ، وفيها معانٍ للخاصة ومعانٍ للعامة ، كما أن الألفاظ كذلك . ولا شك أن هذا هو الصواب مع تقدمه فى الزمن ، وليس الأمر كما زعم أبو هلال أنها فى مستطاع الناس بدرجة واحدة مهما اختلفت مواهبهم ، وتعددت ألوانهم ، وتباينت ثقافاتهم ! والعجيب أن صحيفة بشر قرأها أبو هلال وسجلها فى كتابه .

وإذا تنكر العسكرى للمعانى على هذه الصورة فإن الحقيقة تغالبه

---

(١) توفى بشر بن المعتمر سنة ٢١٠ هـ .

فلا يلبث أن يقررها إن قصداً وإن عفواً فيقول[1]: الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها وتعبر عنها ، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين الألفاظ، لأنه المدار بعد إصابة المعنى، ولأن المعانى تحل من الكلام محل الأبدان والألفاظ تجرى معها مجرى الكسوة ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة . وتراه يقول فى موضع آخر[2] : لا خير فيما أجيد لفظه وسخف معناه ! وهذا هو الصواب الذى لاينازعه فيه أحد ، لأن الذى ينبغى أن يمنع هو أن يفكر الأديب فى معانيه تفكيراً سليما يقره العقل وتدفعه العاطفة ثم يورد هذه المعانى فى عبارات سقيمة متداعية . ولكن من قال إن هذا يسمى أديباً أو يستحق أن تطلق عليه هذه الكلمة ؟ إن الأديب هو الذى يملك اللغة التى ينشىء بها الأدب ، فإذا قصرت به لغته لم ينفعه عقله ولم تنفعه معانيه . فقبل الأدب لا بد أن يعرف الأديب اللغة التى يورد فيها الأدب ، والأمر لايعدو ماقال أرسطو مخاطبا الخطباء : يجب أن نعرف اللغة اليونانية[3] .

ولنا بعد هذا البيان كلمة ، هى أن هذه الظاهرة ظاهرة الخلاف فى تقدير اللفظ والمعنى ربّما ترجع فى أساسها إلى خلاف عنصرى ؛ ذلك أن أكثر الذين تشيعوا للألفاظ كانوا من العنصر العربى ، أو من الذين تفانوا فى العروبة وتلاشت فيها عصبيتهم ، وكان أكثر الذين تشيعوا للمعنى من غيرهم من الأمم، الذين سكنت ريحهم، ودالت دولتهم ، وبقى فى نفوسهم شعور مكبوت، وحنين خفى إلى مجدهم الغابر ، فاصطرع العداء السافر بين الشعوبية والعرب ، وكان هذا الصراع الخفى فى إبداء الرأى متنفساً لغيرهم ممن منعهم دينهم وحرصهم على وحدتهم عن المجاهرة بهوى النفوس، فاتخذ هذا الصراع الخفى مظاهر شتى،

---

(١) الصناعتين ٦٨ . (٢) الصناعتين ٥٥ . (٣) بلاغة أرسطو ١٥٢ .

لعل منها هذا الخلاف النظرى بين اللفظ والمعنى ، وهو فى أصله أكبر من خلاف بين اللفظ والمعنى، ولكنه فى حقيقته هتاف العرب : لنا لسان وبيان ، فيجيبهم لسان حال أولئك : ولنا فكر وعقل ! !

بعد هذا البيان ننتقل إلى القول فى مقاييس الألفاظ التى وضعها العسكرى ، وسنجده قد وفق فيها توفيقا يرضاه الذوق والإنصاف لأنه استوحى فيه ذوقه وطبعه الفنى . ولقد جمع العسكرى هذه المقاييس فى هذه العبارة : إن الشعر كلام منسوج ولفظ منظوم ، وأحسنه ما تلاءم نسجه ولم يسخف ، وحسن لفظه ولم يهجن ، ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام فيكون جلفا بغيضا ، ولا السوقى من الألفاظ فيكون مهلهلا دونا [1] . فالمقياس الذى يقيس به لغة الشعر أن يكون الأسلوب متلائم النسج فى غير سخف ، وأن يكون اللفظ حسنا فى غير ابتذال ، متوسطا بين البغيض والسوقى المهلهل . هذه هى القاعدة العامة أو المقياس العام للغة والشعر ، ثم قسم الألفاظ أقساما وبين مايستجاد منها ومايستهجن وفيما يأتى تفصيل ذلك :

الغريب

الغرابة تخل بالفصاحة ، وتباعد بين الأسلوب والوصف بالبلاغة ، هذا هو رأى العلماء والنقاد ، وهو رأى العسكرى الذى صرح بأن الغريب لم يكثر فى كلام إلا أفسده لما فيه من دلالة الاستكراه والتكلف [2] فالأديب الذى يميل إلى الإغراب فى اللفظ أديب ملتوى الحس لا يصدر عن ذوق ، ولا يعبر فيه صاحبه عن طبع ، بل يصرح بأن الاستعانة بالغريب عجز ، حتى النقاد والرواة الذين يعنون برواية الغريب لا يرضى العسكرى عن مسلكهم .

(١) الصناعتين ٥٩ (٢) الصناعتين ٥

فالمفضل الضبى وهو المعروف بحسن الرواية وصحة النقل ، وقد أكسبه هذا هيبة واحتراماً فى نفوس العلماء يعيب عليه أبو هلال أنه كان لايختار من الشعر إلا مايقل تداول الرواة له ويكثر فيه الغريب ، وهذا حظه فى الاختيار، فكان اختياره فاسدا وعلة هذا الفساد أنه اختار الغريب ، واختيار الرجل دليل على عقله ، ولم ينج الأصمعى وهو الثقة الصدوق من نقد العسكرى ، لأنّ هذه الغرابة تنافى الوضوح والظهور فى معنى البيان ، وإنما الكلام الفصيح هو الذى كانت ألفاظه مألوفة عند الأدباء شعرائهم وكتابهم لما اتصفت به من نعوت الجودة وصفات الجمال .

الوحشى :

إن العدول عن سلس الألفاظ وسهلها إلى الوحشى منها مما يمقته أبو هلال أشد المقت ، ويعده تعقيدا ويسميه إغلاقا وتقعيرا يؤدى إلى تغليق الكلام بعضه ببعض حتى يستبهم المعنى ، فزهير بن أبى سلمى الجاهلى معيب لأنه أورد لفظا حوشيا هو قوله فى المديح :

تقى نقى لم يكثر غنيمة بنهكة ذى القربى ولا بحقلد

فاستبشع لفظ (الحقلد) وهو السيء الخلق ، وليس فى لفظ زهير أنكر منه [1] .

أما الطريف فى هذا الباب فهو ما زعمه العسكرى من أن بعض الأمراء قد اعتلت، أمه فكتب رقاعاً وطرحها فى المسجد الجامع بمدينة السلام فيها : صين امرؤ ورعى دعا لامرأة انقحلة مقسئنة قدمنيت بأكل الطرموق فأصابها من أجله الاستمصال أن يمن الله عليها بالاطرغشاش والابرغشاش [2] .

---

(١) الصناعتين ٣٢ (٢) انقحلة : هكذا فى النسخ ولم نقف لها على معنى وإنما الذى وجدناه (انقحلة) بالقاف : قحل الشيخ يبس جلده على عظمه فهو قحل =

فكل من قرأ رقعته دعا عليه ولعنه ولعن أمه !

ويصف العسكرى بالجهل قوماً صاروا لا يستجيدون الكلام إلا إذا لم يقفوا على معناه إلا بكد ، ويستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه كزة غليظة وجاسية غريبة،ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلساً عذباً وسهلا حلواً ؛ ولم يعلموا أن السهل أمنع جانباً وأعز مطلباً وهو أحسن موقعاً، وأعذب مستمعا ولهذا قيل أجود الكلام السهل الممتع . . . وقيل للسيد ألا تستعمل الغريب فى شعرك ، فقال ذلك عىّ فى زمانى ، وتكلف منى لو قلته ! وقد رزقت طبعاً واتساعا فى الكلام فأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير ، ولا يحتاج إلى تفسير ، ثم أنشد :

أيارب إنى لم أرد بالذى به مدحت عليا غير وجهك فارحم

فهذا كلام عاقل يضع الشىء موضعه، ويستعمله فى إبانه . ليس كمن قال:

جفخت وهم لا يجفخون بهابهم

فأشمت عدوّه بنفسه (١)

لم يعرّف أبو هلال الحوشى أو الوحشى ، ومعناه اللغوى الغامض من الكلام(٢). وعرفه الآمدى فقال : هو الذى لا يتكرر كثيراً فى كلام العرب فإذا ورد ورد مستهجناً (٣). وقد يعيننا تعريف الآمدى للحوشى على التفريق بينه وبين الغريب ، فالغريب ما خفى معناه لأنه ليس من لغة العصر التى

= بالفتح وكتف وانقحل كجردحل (قاموس ج ٤ ص ٣٦) مقسئنة : عجوز . منيت : أصيبت . الطرموق : الطين . الاستمصال: الإسهال . الاطرغشاش : التماثل من المرض فعله اطرغش.الابرغشاش : الإبلال من المرض ، قال الجاحظ: ولوخاطب أحد الأصمعى بمثل هذا الكلام لظننت أنه سيجهل بعضه (صناعتين ٢٢)

(١) الصناعتين ٦١ (٢) القاموس ج ٢ ص ٢٧٠ (٣) الموازنة ١٢٥

تواضع عليها الأدباء، وليس لغة أوساط الناس فإذا ورد لم يفهم معناه بيسر وسهولة ، وقد يتسنى الفهم باستشارة خبير من العلماء أو الرجوع إلى معجم من معاجم اللغة . وهو لهذا يعوق القارىء أو السامع من متابعة اللذة الفنية التى يجدها فى الأثر الأدبى . أما الحوشى فإن استبشاعه ناشىء مما فيه من ثقل فى الحروف التى بنيت منها الكلمة فإذا نطق نطق مستكرهاً . ولذلك لم يتكرر فى كلام أصحاب اللغة، وإنما نطقه أجلافهم فإذا سمعه غيرهم كرهوه واستهجنوه ولعل من أوضح الأمثلة للحوشى أو الوحشى العكر قول ابن جحدر :

حلفت بما أرقلت حوله همرجلة خلفهـــا شيظم
وما شبرقت من تنوفيـة بها من وحى الجن زيزيزم (١)

ونستطيع أن نوجز القول فى التفريق بينهما فنقول : إن الغريب عيبه فى معناه والحوشى عيبه فى لفظه .

والأقدمون ـ ومنهم العسكرى ـ لم يفرّقوا بين الحوشى والغريب فخلطوا بينهما . ألست تراه يقول : غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكد (وهذا نعت للغريب) ثم يقول ويستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه كزّة غليظة وجاسية . . . (وهذا نعت للحوشى) وتراه يستدل على رأيه فى الحوشى بقوله: وقيل للسيد ألا تستعمل الغريب فى شعرك؟ المشـــ ك :

ومن الألفاظ ما تعدد معناه وهو المشترك ، فإذا أراد الأديب الإبانة عن معنى من المعانى فأتى بألفاظ لا تدل عليه خاصة بل تشترك معه فيه معان أخر فلا يعرف السامع أيها أراد فربما استبهم الكلام فى نوع من هذا الجنس

(١) أرقلت أسرعت. والهمرجلة الناقة النجيبة. والشيظم الفتى من الإبل والناس والشبرقة عدو الدابة . والتنوفية الفلاة . وزيزيزم حكاية أصوات الجن .

حتى لا يو قف على معنـاه إلا بالتوهم فذلك مما يخل بفصاحة الكلام .

فقول جرير :

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

من المشترك الذى يستبهم به الكلام ووجه الاشـــتراك فى هذا أن السامع لا يدرى إلى أى شىء أشار من أفعاله فى قوله ما لم أفعل :أأراد أن يبكى إذا رحلوا ؟ أو يهيم على وجهه من الغم الذى لحقه ؟ أو يتبعهم إذا ساروا ؟ أو يمنعهم من المضى على عزمة الرحيل ؟ أو يأخذ منهم شيئاً يتذكرهم به ؟ أو يدفع إليهم شيئاً يتذكرونه به ؟ أو غير ذلك مما يجوز أن يفعله العاشق عند فراق أحبته ، فلم يُبِن عن غرضه وأحوج السامع إلى أن يسأله عما أراد فعله عند رحيلهم . وليس هذا كقولهم (لو رأيت عليا بين الصفين) لأن دليل البسالة والنكاية فى هذا الكلام بيّن وأمارة النقصان فى بيت جرير واضحة ، فمن لم يسمعه إن لم يكن من أهل البلاغة يستبرده ويستغثه ويسترجع الآخر ويستعيده .

ومثله قول سعد بن مالك الأزدى :

فإنك لو لاقيت سعد بن مالك لاقيت منه بعض ما كان يفعل

فلم يُبِنْ عما أراد بقوله : أخيراً أراد أم شراً ؟ إلا أن يسمع ما قبله أو ما بعده فيتبين معناه ، وأما فى نفس البيت فلا يتبين مغزاه [1] ، ونقد الشعر على هذه الصورة مما يوافق رأى أبى هلال فى أن « التضمين » وهو افتقار البيت إلى ما قبله أو بعده من عيوب الشعر، ولنا فيه قول نذكره فيما بعد ، وعلى هذا لا يكون العيب فى هذا البيت آتيا من جهة الاشتراك فى معنى اللفظ ، بل من افتقاره إلى غيره من الأبيات .

(١) كتاب الصناعتين ٣٥ .

السهل والجزل :

نظر العسكرى إلى لغة الأدب وألفاظه المختارة الجديرة بالقبول نظرة العالم ذى الحس المرهف والذوق البارع القادر على التمييز بينها والتنبّه إلى الجدير بالاختيار منها ، واتبع لذلك سبيل التقسيم العلمى فجعل الألفاظ سهلة وجزلة ، ولكنه كغيره من العلماء الذين لا يعنون بتحديد مدلول الألفاظ لم يحدد كلا منهما التحديد الصريح الذى يستقل به ويميزه من غيره ، وإن كان فى الأمثلة التى مثل بها ما يكفى للتفريق بينهما بالذوق والنظرة الفاحصة .

إن أعلى ضروب اللفظ عند أبى هلال الجدير بالاحتذاء هو السهل المطبوع الجيد أو السهل الممتنع . والأديب المقتدر على تأليف هذه الألفاظ السهلة العذبة هو الأديب المطبوع سواء أكان شاعراً أم ناثراً .

فعمرو بن مسعدة أبلغ الناس ، ودليل بلاغته أن كل أحد يظن أنه يكتب مثل كتبه ، لما يجد فيها من اليسر فإذا رامها تعذرت عليه .

والعباس بن الأحنف أشعر الناس فى هذه الأبيات :

إليك أشكو ربّ ما حلّ بى ... من صد هذا التائه المعجب
إن قال لم يفعل وإن سيل لم ... يبذل وإن عوتب لم يعتب
صب بعصيانى ولو قال لى ... لا تشرب البارد لم أشرب

فهذا شعر حسن المعنى ، سهل اللفظ ، عذب المستمع ، قليل النظير ، عزيز التشبيه ، ممتع ممتنع ، بعيد مع قربه ، صعب فى سهولته[1] . . . هكذا وصفه أبو هلال ، وهكذا وصفه أبو أحمد .

ومن أمثلة النثر السهل اللفظ الذى يدل على طبع ما وقع به علىّ بن عيسى : قد بلّغتك أقصى طلبتك ، وأنلتك غاية بغيتك ، وأنت مع ذلك تستقل

(١) كتاب الصناعتين ٦٠ .

كثيرى لك ، وتستقبح حسنى فيك ، فأنت كما قال رؤبة :

كالحوت لا يكفيه شىء يلقمه ... يصبح ظمآن وفى البحر فمه

على أن هذا السهل قد يصبح مرذولا مردودا ، إذا كان معناه مكشوفا بينا فليست سهولة اللفظ وحدها مقياس القبول عند العسكرى، وإنما هى السهولة المقترنة بقوة المعنى . وقد نجده ها هنا يخفف من غلوائه فى تقدير اللفظ وجعله مدار البلاغة كما رأينا فيما سبق . فقول الشاعر :

يا رب قد قلّ صبرى ... وضاق بالحب صدرى
واشتد شوقى ووجدى ... وسيدى ليس يدرى
مغفل عن عذابى ... وليس يرحم ضرى
إن كان أعطى اصطبارا ... فلست أملك صبرى
أنا الفدا لغزال ... دنا فقبّل نحرى
وقال لى من قريب ... ياليت بيتك قبرى !

من هذا الردىء المرذول ، وليس فيه مع سهولته خير ، لاسيما إذا ارتكب فيه مثل هذه الضرورات .

يؤكد العسكرى نفوره من هذا الأسلوب، ويشترط فى السهل المقبول أن يكون بريئاً من الغثاثة ، عارياً من الرثاثة ، والكلام إذا كان غثا ومعرضه رثا كان من المردود ، ولو اشتمل على أجل معنى وأنبله وأرفعه كقول الشاعر :

لما أطعناكم فى سخط خالقنا ... لا شك سلّ علينا سيف نقمته

وقول الآخر :

أرى رجالا بأدنى الدين قد قنعوا ... وما أراهم رضوا فى العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما ... استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

لا يدخل هذا فى جملة المختار ومعناه كما ترى نبيل فاضل جليل [1] وقد تسأل عن موضع النبل والفضل فلا تجد له أثراً إلا مافيه من وعظ وإرشاد، وهو فى الحق معنى عامى ليس له حظ من الأصالة والابتكار.

وكما يكون السهل الجيد مقبولا، يكون الجزل مقبولا، ومقياس الجودة فى الجزل أن العامة تستطيع أن تدركه وتقف على معناه وإن كانت لا تستعمله فى محاوراتها، ومنه قول مسلم بن الوليد:

وردن رواق الفضل فضل بن خالد ... فحط الثناءَ الجزلَ نائلهُ الجزلُ
بكف أبى العباس يستمطر الغنى ... وتستنزل النعمى ويسترعف النصلُ
ويستعطف الأمر الأبىّ بحزمه ... إذا الأمر لم يعطفه نقض ولافتلُ

ومما هو أجزل من هذا قول المرار الفقعسى:

فظلّ يدير الموت فى مرجحنة ... تسف العوالى وسطها وتشول
وكائن تركنا من كرائم معشر ... لهن على أيامهن عويل
على الجرد يعلكن الشكيم كأنها ... إذا ناقلت بالدارعين وعول [2]

فهذا وإن لم يكن من كلام العامة فإنهم يعرفون الغرض فيه، ويقفون على أكثر معانيه.

ولقد مثل أبو هلال للجزل المختار من النثر بقول يحيى بن خالد: أعطانا الدهر فأسرف، ثم عطف علينا فعسف. وقول سعيد بن حميد: وأنا من لا يحاجك عن نفسه ولا يغالطك عن جرمه، ولا يلتمس رضاك إلا من جهته، ولا يستدعى برك إلا من طريقته، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجرم.

(١) كتاب الصناعتين ٩٧. (٢) المرجحنة: المتمايلة الثقيلة. تشول: تفرق. المناقلة: ضرب من السير. الدارعون: المتقدمون فى السير.

هذا ما مثل به العسكرى ، وعندى أن مثالى النثر ليسا من الجزالة فى شىء ، بل هما أجدر أن يكونا من السهل المطبوع .

والحق أن مفهوم الجزالة غير واضح وغير محدود ، فإن أبا هلال وغيره من العلماء لم يبينوا لنا حدود هذه الجزالة ، وإنما الذى رأيناه أنهم يذكرونها مقابلة السهولة والسلاسة ، والمقابل للسهولة الصعوبة والتعقيد ، فإن كان ذلك الذى يريد أبو هلال فإننا لانرى فى مثالى النثر شيئاً من العسر والتعقيد ، والعامة يفهمون مدلول هذه الألفاظ من غير استكراه ويستعملونها فى محاوراتهم من غير عنت ولا عناء .

والمعنى اللغوى للجزل الحطب اليابس أو الغليظ منه . . والجزل خلاف الركيك من الألفاظ[1] . ولعل هذا المعنى منقول عن المعنى الأول . ولعل هذا المعنى أيضاً (الجزل خلاف الركيك من الألفاظ) هو الذى ذهب إليه العسكرى فى تقسيمه ، بدليل أنه جمع الجزالة والسهولة فى وصف الكلام الجيد حين قال : وأجود الكلام ما كان جزلا سهلا لا ينغلق معناه ولا يستبهم مغزاه .

على أن هذا الجزل قد يحول فجا بغيضا إذا كان تمييز ألفاظه يحتاج إلى جهد ومشقة وإذا كان قبيح الرصف فاسد النسج كقول تأبط شرا :

إذا ما تركت صاحبي لثلاثة ... أو اثنين مثلينا فلا أبت آمنا
ولما سمعت العَوْض تدعو تنفرت ... عصافير رأسى من نوى فعواينا
وحشحشت مشعوف الفؤاد فراعنى ... أناس بفيفان فمزت القراينا
فأدبرت لا ينجو نجائى نقنق ... يبادر فرخيه شمالا وداجنا
من الحص هزروف يطير عفاؤه ... إذا استدرج الفيفاء مدّ المغابنا

(١) انظر القاموس ج ٢ ص ٣٤٨ .

أزج زلوج هزرفى زفازف هزف يبذ الناجيات الصوافنا[1]

* * *

هذه المقاييس التى فصلناها تتصل باللفظة المفردة ، وهناك مقاييس للتراكيب فى مجموعها منها :

١ — حروف الوصل والربط : يجب أن تتجنب إعادة حروف الصلات والرباطات فى موضع واحد فمن المعيب أن يكتب مثل قول القائل : منه له عليه . أو عليه فيه . أو به له منه . وأخفها له عليه . وسبيله أن تداويه حتى تزيله بأن يفصل ما بين الحرفين، مثل أن تقول : أقمت به شهيداً عليه . ولا يعرف العسكرى أحداً كان يتتبع العيوب فيأتيها غير مكترث إلا المتنبي فإنه ضمن شعره جميع عيوب الكلام حتى تخطى إلى هذا النوع فقال :

ويسعدنى فى غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد

فأتى من الاستكراه بما لا يطار غرابه [2] .

(١) العوض : قبيلة من العرب (بالضاد أو الصاد) . وعصافير الرأس : قطع فى مقدمة الدماغ . عوافنا : بمعنى الاستضعاف . الفيفان : موضع بالبادية . والقراين: جبال معروفة مقترنة ويروى البيت :

وحثحث مشغوف النجاء وراعنى أناس بفيفان فمرت القراينا

النقنق الظليم وهو ذكر النعام . الحص شدة العدو . الهزروف اسم الظليم . العفاء الغبار . الفيفاء المفازة التى لاماء فيها مع الاستواء والسعة . المغابن بواطن الأفخاذ عند الحوالب . الأزج المسرع فى مشيته ومثله الزلوج . الهزراف الخفيف السريع . الهزف : الجافى من الظلمان أو الطويل الريش . البذ السبق .

(٢) الصناعتين ١٥٣ .

٢ — السجع والازدواج : وإذا كان العسكرى من المولعين الولوع كله بالصناعة اللفظية فقد أدى به هذا الولوع إلى أن يجهد نفسه فيخترع بعض المحسنات البديعية ، وليس يعنينا هنا الآن إلا أن نسجل أن العسكرى يجعل هذه الصناعة مقياسه فى الحكم على الكلام بالجودة . ونشير هنا إلى مقياس جديد جعل له العسكرى من الاعتبار ما يفوق كل تقدير ، وذلك هو الازدواج الذى عقد له بابا مستقلا عن صنوف البديع ، ورأى أن منثور الكلام لا يحسن ولا يحلو حتى يكون مزدوجا ولا تكاد تجد لبليغ كلاما خلا من الازدواج ، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن ، لأنه فى نظمه خارج عن كلام الخلق ، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل فى أوساط الآيات ، فضلا عما تزاوج من الفواصل منه ، كقول الله تعالى : (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) وقوله تعالى (ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) وأما مازووج بينه بالفواصل فهو كثير ، مثل قوله تعالى (فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر) .

وكذلك السجع له من الاعتبار ما للازدواج والذى يجعله مقبولا ويجعل الكلام به ممتازاً أن يبعد عن التكلف والتعسف ، حتى لا يكون كسجع الكهان الذى ذمه الرسول عليه السلام ، لا السجع المطبوع الوارد فى الكتاب الكريم وحديث النبى [1] .

واعلم أن الذى يلزمك فى تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط ولا يلزمك فيها السجع فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن

(١) كتاب الصناعتين ٢٥٠ — ٢٥١ — ٢٥٢ . هذا وقد ذكر أبو هلال فى مقدمة الصناعتين أنه جعل السجع والازدواج فصلين ، ولكنهما فيما بين أيدينا فصل واحد أدمج الكلام عليهما معاً ، وقد ذكر الثانى قبل الأول .

مالم يكن فى سجعك استكراه وتنافر وتعقيد ، وكثيراً مايقع ذلك فى السجع ، وقلما يسلم إذا طال من استكراه وتنافر .

٣ — الإيجاز والإطناب :

العسكرى لا يحبذ الإطناب مطلقا ولا الإيجاز مطلقا ، بل أورد حجة كل من أنصار الفريقين :

قال أصحاب الإيجاز : الإيجاز قصور البلاغة على الحقيقة ، وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل يدخل فى باب الهذر والخطل ، وهما من أعظم أدواء الكلام ، وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصناعة ، وفى تفضيل الإيجاز يقول جعفر بن يحيى لكتّابه : إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا ، وقال بعضهم : الزيادة فى الحذ نقصان ، وقال محمد الأمين : عليكم بالإيجاز فإن له إفهاماً وللإطالة استبهاماً ، وقال شبيب بن شبة : القليل الكافى خير من كثير غير شاف ، وقال آخر : إذا طال الكلام عرضت له أسباب التكلف ، ولاخير فى شىء يأتى به التكلف ، وقيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ فقال : الإيجاز ، قيل : وما الإيجاز ؟ قال حذف الفضول وتقريب البعيد . . .

وقال أصحاب الإطناب : المنطق إنما هو بيان ، والبيان لا يكون إلا بالإشباع ، والشفاء لا يقع إلا بالإقناع ، وأفضل الكلام أبينه ، وأبينه أشده إحاطة بالمعانى ، ولا يحاط بالمعانى إحاطة تامة إلا بالاستقصاء ، والإيجاز للخواص ، والإطناب مشترك فيه الخاصة والعامة ، والغبىّ والفطن والرّيض والمرتاض . . .

وبعد هذا العرض الأدبىّ الممتع ، يقول الرأى الفصل فى هذا الموضوع الذى أعيا العلماء ، وأعجز البلغاء ، وهو أن القول القصد أن الإيجاز والإطناب يحتاج إليهما فى جميع الكلام ، ولكل واحد منهما موضع فالحاجة إلى

الإيجاز فى موضعه كالحاجة إلى الإطناب فى مكانه .

لم يكن فى استطاعة أبى هلال أو غيره أن يقول خيراً مما قال ، ولا أن يستخلص مقياساً عاما ثابتاً ، أو حداً جامعاً مانعاً . . فإن ذلك أقرب إلى الاستحالة فى هذا الباب ، ذلك أن هذه الأحكام أو تلك المقاييس مبنية على استقراء الأدب ، واستنباط المقاييس منه ، وفى هذا الأدب ، بل فى الجيّد منه وفى عيونه المختارة شواهد من الإطناب ، وأدلة للإيجاز ، وكلها رائق معجب يأخذ بمجامع القلوب ، بل إن القرآن الكريم وهو المثل الأعلى للأساليب ، قد نوّع بين طرفى الإيجاز والإطناب .

وهذا الخلاف بين الأدباء فى سلوك أحد السبيلين مرجعه إلى العامل النفسى ، وخصائص الشخصية ، فالأديب الموجز فى طبعه الدقة والتحفظ والحزم ، والأديب المطنب فى طبعه سماحة وسلاسة تدفعه إلى التدفق والإغزار ، فابن المقفع مثلا فيه الحفاظ العقلى ، بسبب الأفكار الدقيقة والثقافة العلمية التى اجتمعت لديه ، ومن هنا كان أسلوبه الموجز الذى يجتزىء بالإشارة الدقيقة واللمحة الدالة ، أما الجاحظ فإن خفة روحه وسلاسة طبعه وسماحة نفسه وعقله ، كل أولئك أطلق العنان لقلمه ، فبسط القول وأطنب فى التعبير . وخلاصة القول أن الأسلوب هو الرجل ، ومرجع اختلاف الأساليب هو فى الحقيقة اختلاف العقول التى تسلطت على الألسنة والأقلام !

لقد وجد العلماء والبلاغيون أنفسهم بين هذه الآثار الأدبية المتباينة المعجبة ، فلم يستطيعوا أن يقولوا أحسن مما قال أبو هلال : إن الإيجاز والإطناب يحتاج إليهما فى جميع الكلام . . والحاجة إلا الإيجاز فى موضعه كالحاجة إلى الإطناب فى موضعه ، ولعلهم فى الحقيقة يريدون : حسن

من البليغ كل ما يأتى به ! والدليل على ذلك أن يحيى بن خالد بن برمك أمر اثنين أن يكتبا كتاباً فى معنى واحد ، فأطال أحدهما واختصر الآخر ، فقال للمختصر وقد نظر فى كتابه : ما أرى موضع مزيد ، وقال للمطيل : ما أرى موضع نقصان !

وقد ألحق بالبحث بحث يتصل بالأدب وهو ذكر المواضع التى يحسن فيها الإطناب . .

(١) فى الكتب والرسائل الديوانية : فلا شك أن الكتب الصادرة عن السلاطين فى الأمور الجسيمة والفتوح الجليلة وتفخيم النعم الحادثة والترغيب فى الطاعة والنهى عن المعصية سبيلها أن تكون مشبعة مستقصاة تملأ الصدور وتأخذ بمجامع القلوب .

(٢) فى المواعظ : كقول الله تعالى (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) فتكرير ما كرر ها هنا فى غاية حسن الموقع .

(٣) فى خطب الصلح بين العشائر .

(٤) فى إنشاد الشعر فى مديح الملوك .

* * *

نستطيع بعد ذلك أن نجمل المقاييس التى وضعها أبو هلال للألفاظ المفردة وللتراكيب فيما يأتى :

(١) المختار من الكلام ما كان سهلا جزلا لايشوبه شىء من الكلام الحوشى ولا ينحدر إلى لغة العامة .

(٢) ينبغى البعد عن كل ما يستبهم به المعنى ، وأن تكون الألفاظ

نصاً فى الدلالة على المعنى المراد ، وأن تتجنب الألفاظ المشتركة التى تتحمل المعنى وغيره .

(٣) تخير الألفاظ وتنقيحها وإبدال بعضها من بعض حتى يلتئم الكلام ضرورة لابد أن يحفل بها الأديب المجيد ، ومن علامات إجادته أن تكون الألفاظ من حروف سهلة المخارج .

(٤) ذكر الأسماء البغيضة فى الشعر تفسده وإن كان جيداً ، وقد أنشد جرير بعض ملوك بنى أمية :

وتقول بوزع قد دَبَبْتَ على العصا ‏ ‏ هلا هزئت بغيرنا يا بوزعُ ؟

فقال له الملك : أفسدتها ببوزع ، وقد يستهجن هذا فى غير الشعر ، بل هو مستهجن فى لغة التخاطب .

(٥) يقبح الكلام بتكرار اللفظ الواحد فى كلام قصير .

(٦) ينبغى ألا يعدل الأديب عن جهة الاستعمال ، لأن الخروج عن الطريقة المسلوكة والنهج المعروف ردىء على كل حال ، وقد ضرب مثلا لهذا الخروج بما يأتى :

(ا) من الألفاظ مايستعمل رباعيه وخماسيه دون ثلاثيه ، ومنها ما هو بخلاف ذلك . فيجب ألا يعدل عن وجه الاستعمال ولا يغر الأديب أن أصولها مستعملة . ومن ذلك أن الناس يستعملون (التعاطى) فيكون منهم مقبولا ولواستعملوا (العطو) وهوأصل الكلمة وهو ثلاثى ، والثلاثى أكثر استعمالا لما كان مقبولا ولا حسناً . ولهذا المقياس الذى رآه أبو هلال أثر سىء فى تضيق نطاق اللغة ، ذلك أن الألفاظ محدودة والمعانى غير محدودة ، ويجىء العسكرى فيزيدها تحديداً وتضييقاً ، ولا يخفى أن الكلمات تتفاوت معانيها بالزيادة وإن كانت أصولها واحدة .

(ب) ومن الألفاظ ما إذا وقع نكرة قبح موضعه ، وحسن إذا وقع معرفة ، فلو خولف وجه الاستعمال فى ذلك فاستعمل النكرة فى مقام المعرفة أو المعرفة مكان النكرة قبح ذلك وفسد به الكلام كقول بعضهم :

لما التقينا صاح بينٌ بيننا يدنى من القرب البعاد لحاقا

فقوله (صاح بين بيننا) متكلف جداً . ولو قال (البين) كان أقرب على أن البيت كله ردىء وليس من رصف البلغاء .

ونحن نرى فى هذا المقياس تضييقاً لا معنى له . واللفظ إذا كان من حروف سهلة المخارج لان على اللسان وحسن فى السمع وعدّ فى ذاته فصيحاً . وإنما ينبغى أن ينظر فى تقدير اللفظ بعد ذلك إلى موضعه من التركيب الذى يبين فيه استساغته أو تنافره وقلقه . ألست ترى اللفظ يحسن فى موضع ويقبح فى موضع بحسب مكانه من التركيب . ولقد عقد عبد القاهر فصلا فى هذا الموضوع فى كتابه دلائل الإعجاز يدل على فهم وتذوق ، وهو يرى أن الكلمة تروق وتؤنس فى موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر ، فإنك تجد متى شئت الرجلين قد استعملا كلما بأعيانها ثم ترى هذا قد فرع السماك ، وترى ذلك قد لصق بالحضيض . فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هى لفظ ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك فى ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب فى ذاك حال لها مع أخواتها المجاورة لها فى النظم ، لما اختلف بها الحال ولكانت إما أن تحسن أبداً أو لا تحسن أبداً [1] .

فإن يكن فى نظم هذا البيت الذى استشهد به العسكرى قبح ، فإن هذا القبح لم يأت من سبيل تنكير كلمة (البين) وإنما جاء من مجاورتها لكلمة

---

(١) دلائل الإعجاز ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .

(بيننا) فحدث هذا التنافر الملحوظ فى البيت .

(٧) يجب أن يوضع كل لفظ موضعه ، وأن ترتب الألفاظ ترتيباً صحيحاً فيقدم منها ما يحسن تقديمه ، ويؤخر ما يحسن تأخيره ، ولا يقدم منها ما يكون التأخير به أحسن ، ولا يؤخر منها ما يكون التقديم به أليق . فمما أفسده سوء ترتيب ألفاظه قول بعضهم :

يضحك منها كل عضو لها من بهجة العيش وحسن القوام
ترفل فى الدار لها وفرة كوفرة الملط الخليع الغلام

كان ينبغى أن يقول (كوفرة الغلام الملط الخليع) أو (الغلام الخليع الملط) فأما تقديم الصفة على الموصوف فردىء فى صنعة الكلام .

(٨) الكلام الجيد ما اجتنب فيه ارتكاب الضرورات وإن جاءت فيها رخص من أهل العربية فإنها قبيحة ... وإن كان القدماء قد وقعوا فى شىء منها فذلك لعدم علمهم بقباحتها ، أوبسبب الارتجال لأن بعضهم كان صاحب بداية ، والبداية مزلة ، ولأن أشعارهم لم يتعرض لها النقاد كثيراً ، ولو قد نقدت وبهرج منها المعيب كما تنقد على شعراء هذه الأزمنة وبهرج من كلامهم ما فيه أدنى عيب لتجنبوها .

(٩) الشاذ ليس للمحدث أن يقيس عليه ، ولا أن يتخذ منه حجّة فإنه لايعذر فى شىء منه ، لاجتماع الناس اليوم على مجانبة أمثاله واستجادة ما يصح من الكلام واسترذال ما يشكل ويستبهم .

المعانى

العسكرى من الأولين الذين فطنوا إلى التجديد والتقليد ، وفرقوا بين الابتداع والاتباع ، فقسم المعانى قسمين :

١ — ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدى به

فيه ، أو رسوم قائمة فى أمثلة ماثلة يعمل عليها .

وقد يعرض هذا الضرب للشاعر عند الخطوب الحادثة ، ويتبينه عند الأمور النازلة الطارئة . . . وأبو هلال يتنبه هنا إلى العامل النفسى ، وأثر الانفعال فى ابتكار المعانى ، وتلك لفتة طيبة سابقة نسجلها للرجل .

٢ — أما الضرب الثانى فهو التقليدى ، الذى يحتذى على مثال سبق ورسم فرط .

وهو لا ينكر لأحد الضربين بل يضع مقياسا لاستحسان كل منهما وهو اشتراط الإجادة فيهما ، والإصابة فى توخى الصورة المقبولة والعبارة المستحسنة ، ولا يتكل المبتكر فيما يبتكر على فضيلة الابتكار ولا يغرنه أنه مبتدع ، وفى هذا إشارة إلى ضرورة لزوم الصناعة فى الصياغة والتأنق فى اختيار الألفاظ والأساليب ليوافق مذهبه الذى فرط .

الغلـــو

لا ينكر العسكرى الغلو ، بل يرضاه ويستحسنه مجاراة لأستاذه قدامة ابن جعفر الذى يفضل الغلو على الاقتصار على الحد الوسط ، ويعد الغلو أجود المذهبين ، وقدامة أيضاً يتابع المعلم الأول (أرسطو) فى هذا الرأى .

مثل العسكرى للغلو فى المعانى بقول الطمحان مولى بن أبى السمط :

فتى لا يبالى المدلجون بنوره ... إلى ما به ألا تضىء الكواكب

له حاجب عن كل أمر يشينه ... وليس له عن طالب العرف حاجب

وردد قول القدامى : أمدح بيت قالته العرب قول الأعشى :

فتى لو ينادى الشمس ألقت قناعها ... أو القمر السارى لألقى المقالدا

قال : وهذا وقول أبى الطمحان من الغلو ، والغلو عند بعضهم مذموم وليس كذلك ! ولو كان مذموما لما جعلوا هذين البيتين من أمدح ماقالت

العرب ، وهما من الغلو على ماهما عليه . ومن الغلو قول طريح بن اسماعيل :

أنت ابن مسلنطح البطاح ولم ... يضرب عليك الحنىّ والوجُ
لو قلت للسيل: دع طريقك والـ ... ـموج عليه كالهدب يعتلجُ
لا ارتدّ أوساخ أو لكان له ... فى جانب الأرض عنك منعرجُ

وهذا من أعلى الغلو لأن السيل لاترد وجهته هيبة ولا مخافة ، والعرب تقول أجرا من السيل فيهمز ولا يهمز من الجرأة وترك الهمزة من الجرى ، ويقال فى المثل : لا أفعل كذا حتى يرد وجه السيل !

ويعاود الرجل ذوقه الفنى الخالص ، فينقد هذا الشعر بأنه ليس مختار اللفظ والرصف ، وأنه إنما أتى به لمكانه من الغلو .

ومن الغلو المشهور المستفيض الذى قبله الناس واستحسنوه ، ورووه بكل لسان قول أبى تمام فى المعتصم :

بيمن أبى إسحق طالت يد العلا ... وقامت قناة الدين واشتد كاهلهْ
هو البحر من أى النواحى أتيته ... فلجته المعروف والجود ساحلهْ
تعود بسط الكف حتى لو انه ... أراد انقباضاً لم تطعه أنامله
ولو لم يكن فى كفه غير روحه ... لجـــاد بها فليتق الله سائلهْ

وقلت فى قريب منه :

وكيف يبيت الجار منك على صدى ... وكفك بحر لجة البحر ساحله [1]

وتراه لا يوضح فى هذا المقام كما رأيت علة استحسانه الغلو بغير استحسان العرب لأمثال هذه النصوص التى أوردها ، وقد سبقه إلى هذا الرأى فى تفضيل الغلو قدامة بن جعفر فى نقد الشعر[2] بقوله : « إن الغلو عندى أجود المذهبين (الغلو والاقتصار على الحد الوسط) وهو ماذهب

---

(١) ديوان المعانى ٤٢ . (٢) نقد الشعر ٥٥ .

إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً . وقد بلغنى عن بعضهم أنه قال : أحسن الشعر أكذبه ، وكذا نرى الفلاسفة اليونانيين فى الشعر على مذهب لغتهم ، فهذا المذهب متأثر بفلسفة اليونان ذكر ذلك قدامة فى صراحة ، وإن كان لا يصرح فى غير هذا المقام باقتفائه أثرهم وانتهاجه منهج صاحب « الخطابة » و « الشعر » وقد نبه العسكرى إلى أن من الناس من يكره الإفراط الشديد ويعيبه ويذكر الوسيلة التى تجعل الغلو مقبولا ، وهى أن يتحرز المبالغ ويستظهر فيورد شرطا أو يجىء بلفظ (يكاد) وما يجرى مجراها فبذلك يسلم من العيب مثل قول الأول :

لو كنت من شىء سوى بشر ... كنت المنور ليلة البدر

ومن عيوب الغلو أن يخرج فيه إلى المحال ويشوبه بسوء الاستعارة وقبيح العبارة كقول أبى نواس :

توهمتها فى كأسها فكأننى ... توهمت شيئا ليس يدرك بالعقل
وصفراء أبقى الدهر مكنون روحها ... وقد مات من مخبورها جوهر الكل
فما يرتقى التكييف منها إلى مدى ... تحد به إلا ومن قبله قبل

فجعلها لاتدرك بالعقل وجعلها لاأول لها، وقوله جوهر الكل والتكييف فى غاية التكلف ونهاية التعسف. ومثل هذا من الكلام مردود ، لايشتغل بالاحتجاج عنه له ، والتحسين لأمره ، وهو بترك التداول أولى ، إلا على وجه التعجب منه ومن قائله [1] .

الوحدة

مقياس الشعر عند العسكرى هو وحده وحدة البيت لا وحدة القصيد فقد عد احتياج البيت الى مابعده ليكمل معناه عيبا من العيوب التى ينبغى أن

(١) الصناعتين ٣٥٥ — ٣٥٦ .

يتجنبها الشاعر وسماه التضمين وقد سبقه قدامة فسماه المبتور، قال : أبو هلال « والتضمين أن يكون الفصل الأول مفتقرا إلى الفصل الثانى ، والبيت الأول محتاجا إلى الأخير كقول الشاعر :

كأن القلب ليلة قيل يُغدى بليلى العامرية أو يراح
قطاة غرها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح

فلم يتم المعنى فى البيت الأول حتى أتمه فى البيت الثانى وهو قبيح . ومثاله من النثر قول بعضهم : وجعل سيدنا آخذا بكل مادعى ويدعى به من الأعياد بأجزل الأقسام وأوفر الأعداد[1] .

ولست أرى علة العيب عند العسكرى وغيره لأن احتياج بعض الكلام إلى بعض لاعيب فيه، ما لم يكن بينهما بعد ينسى علاقة الكلام بعضه ببعض والقول الصواب ما قال ابن الاثير : لأنه إن كان سبب عيبه أن يعلق البيت الأول على الثانى فليس ذلك بسبب يوجب عيبا، إذ لافرق بين البيتين من الشعر فى تعلق أحدهما بالآخر وبين الفقرتين من الكلام المنثور فى تعلق إحداهما بالأخرى ، لأن الشعر هو كل لفظ موزون مقفى دل على معنى، والكلام المسجوع هو كل لفظ مقفى دل على معنى، فالفرق بينهما يقع فى الوزن لاغير . والفقر المسجوعة التى يرتبط بعضها ببعض قد وردت فى القرآن الكريم فى مواضع منه .فمن ذلك قوله عز وجل فى سورة الصافات (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قال قائل منهم إنى كان لى قرين . يقول أئنك لمن المصدقين . أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون) فهذه الفقر الثلاث الأخيرة مرتبط بعضها ببعض فلا تفهم واحدة منهن إلا بالتى تليها . وهذا كالأبيات الشعرية فى ارتباط بعضها ببعض ، ولو كان عيبا لما ورد فى كتاب الله عز وجل . ومما ورد من ذلك شعرا قول بعضهم .

(١) الصناعتين ٣٧

ومن البلوى التى ليس لها فى الناس كنه
أن من يعرف شيئاً يدعى أكثر منه

وقد استعملته العرب كثيراً وورد فى شعر فحول شعرائهم ، فمن ذلك قول امرىء القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأرف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل[1]

الإطالة :

قوة الكلام بقوة نظمه وتمام رصفه لا بكثرة لفظه ، والمعانى التى تنشأ الكتب فيها من الأمر والنهى سبيلها أن تؤكد غاية التوكيد بجهة كيفية نظم الكلام ، لا بجهة كثرة اللفظ[2] .

ويعد العسكرى التوسط من حيث الكم وهو الغاية المثلى ، ويرى أن الإكثار يورث الإملال ، وقلما ينجو صاحبه من الزلل والعيب والخطل وعرض لقول إياس لمن نقدوه على إطالته : « الزيادة من الخير خير » فخطأه العسكرى « لأن للكلام غاية ، وللنشاط السامعين نهاية ، وما فضل عن مقدار الاحتمال دعا إلى الاستثقال وصار سبباً للملال ، فذلك هو الهذر والإسهاب والخطل وهو معيب عند كل لبيب » !

صحة المعانى :

رأينا فيما سبق أن أبا هلال لا يتطلب فى المعنى إلا أن يكون صواباً ، ولكنه لم يضع مقياساً صحيحا واضحا يستطيع به الناقد أن يحكم على المعنى بالخطأ أو الصواب من الناحية البلاغية ،فيكون هذا المعنى صواباً لأنه وافق هذه القاعدة أو خضع لمقياس بعينه ، ويحكم عليه بالخطأ لأنه خالف القاعدة

(١) المثل السائر ٥٨ ، ٤٥٩٤ . (٢) الصناعتين ١٤٩ .

المصطلح عليها ؛ ولكنه على الرغم من ذلك ألف بابا طويلا فى التنبيه على خطأ المعانى وصوابها ليتبعه من يريد العمل برسمه مواقع الصواب فيرتسمها ويقف على مواقع الخطأ فيجتنبها ، وفى هذا الباب قد يكون من الممكن العثور على بعض أسباب الخطأ فى المعانى ، ومنها أن يكون الأديب فيما أتى به كاذباً ، وإن كان كلامه مستقيم النظم مثل قول القائل : حملت الجبل وشربت ماء البحر . ومنها أن يعمد الأديب إلى المحال فيصوره ببيانه ، كقوله : آتيك أمس ، وأتيتك غداً ، وكل محال فاسد ، ومنها أن يطلق الشيء على غير ماهو له ، ومن ذلك قول الراعى :

يكسو المفارقَ واللبات ذا أرج من قُصْب معتلف الكافور درّاج

أراد المسك فجعله من قصب الظبى ، والقصب المعى ، وجعل الظبى يعتلف الكافور فيتولد منه المسك ، وهذا من طرائف الغلط ! وقريب منه قول زهير :

يخرجن من شَرَبات ماؤها طَحِلٍ على الجذوع يخفْن الغمّ والغرقا

ظن أن الضفادع يخرجن من الماء مخافة الغرق !

والذى يبدو أن الخطأ فى هذين المثالين آت من عدم المعرفة بخصائص المسك فى البيت ، أو أن الشاعر جهل أن المسك بعض دم الغزال ، وجهل زهير فى البيت الثانى أن الضفادع تحيا فى الماء فلا تغرق فيه كما زعم ! ولقد أصاب أبو هلال فى هذا النقد لأنه فى الحقيقة يريد للأديب أن يكون واسع الثقافة والمعرفة ، أو فى المعنى الذى يتعرض له فى الأقل .

وعليه أيضاً أن يعرف طبائع النفوس وماتحب وماتكره ، حتى لايجىء بما يخالف هذه الطباع زعماً منه أن ذلك هو المألوف فيرمى بالغفلة والجهالة ، لقد أخطأ الأعشى حين قال فى حبيبته :

وما رابها من ريبة غير أنها رأت لمتى شابت وشابت لداتيا

فأى ريبة عند امرأة أعظم من الشيب ؟ ومثله قوله :

وأنكرتنى وما كان الذى نكرت ... من الحوادث إلا الشّيبَ والصلعا

وأعجب منه قوله أيضاً :

صدت هـــريرة عنا ما تكلمنا ... جهلا بأم خُلَيْدٍ حبلَ من تصلُ

أ إن رأت رجلا أعشى أضرّ به ... ريب الزمان ودهرٌ خاتل خبلُ

فأى شيء أبغض عند النساء من العشا والضرّ يتبينه فى الرجل ؟ وأعجب مافى هذا الكلام أنه قال : حبل من تصل هذه المرأة بعدى ، وأنا بهذه الصفة من العشا والفقر والشيب ؟

أما أبو هلال فإنه يحذر مغالطة النفس ، فلا يقع فيما وقع فيه الأعشى حين يقول :

فلا تعجبا أن يعبن المشيب ... فما عبن من ذاك إلا مَعيبا

إذا كان شيبي بغيضاً إلىّ ... فكيف يكون إليها حبيباً ؟

ومن عيوب المعانى أيضاً أن يقع الأديب فى الاستحالة والتناقض ، بالجمع بين المتقابلين ، اللذين يستحيل اجتماعهما ، فيزيد بن مالك العامرى فى قوله :

أكفّ الجهل عن حلماء قومى ... وأعرض عن كلام الجاهلينا

يخبر أنه يحلم عن الجهال ولا يعاقبهم ، ثم ينقض ذلك فى البيت الثانى حيث يقول :

إذا رجل تعرض مستخفاً ... لنا بالجهل أوشك أن يحينا

فذكر أنه كاد أن يفتك بمن جهل عليه ، وهكذا ناقض الشاعر نفسه فوقع فى الخطأ . وقريب من هذا قول عبد الرحمن بن عبيد الله القس :

أرى هجرها والقتل مثلين فاقصروا ... ملامكم فالقتل أعفى وأيسر

فأوجب أن الهجر والقتل سواء . . ثم ذكر أن القتل أعفى وأيسر ، ولو أتى ببل استوى وسلم من الاستحالة والتناقض . وأبو هلال فى وصفه

العامرى والقس بالخطأ فى وقوعهما فى الاستحالة والتناقض يتابع قدامة الذى تكلم فى الاستحالة والتناقض كلاماً شافياً ، وعقد لهذا الكلام فصلا خاصاً من فصول نقد الشعر ، ليس هذا موضع الكلام فيه .

وضع العسكرى بعد كل أولئك مقياساً لكل فن من فنون الشعر بأسلوبه التعليمى الذى أوضحناه فيما سبق متأثراً إلى حد كبير بمقاييس قدامة ، ونجمل تلك المقاييس فيما يأتى :

(١) المديح : ينبغى ألا يعدل المادح عن الفضائل التى تختص بالنفس من العقل والعفة والعدل والشجاعة إلى ما يليق بأوصاف الجسم من الحسن والبهاء والزينة ، كما قال ابن قيس الرقيات فى عبد الملك بن مروان :

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

فغضب عبد الملك وقال : لقد قلت فى مصعب :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظلم ، وأعطيتنى من المدح ما لا فخر فيه ، وهو اعتدال التاج فوق جبينى الذى هو كالذهب فى النضارة .

(٢) الهجاء : ومقياسه أنه إذا لم يسلب الصفات المستحسنة التى تختصها النفس ويثبت الصفات المستهجنة التى تختصها أيضاً لم يكن مختاراً والاختيار أن ينسب المهجوّ إلى اللؤم والبخل والشره ، وما أشبه ذلك ، وليس بالمختار فى الهجاء أن ينسبه إلى قبح الوجه وضؤل الجسم يدل على ذلك قول القائل :

فقلت لها ليس الشحوب على الفتى بعار ولا خير الرجال سمينها

وقول الآخر :

تنال الخير ممّن تزدريه ويخلف ظنك الرجل الطرير (١)

(١) الطرير : ذو المنظر والرواء .

وقول الآخر :

رأوه فازدروه وهو خِرْقٌ ... وينفع أهله الرجل القبيح[1]

وذكر السموءل أن قلة العدد ليست بعيب فقال :

تعيرنا أنّا قليـــل عديدنا ... فقلت لها إن الكرام قليل

ومن الهجاء قول بعضهم :

اللؤم أكبر من وبر ووالده ... واللؤم أكرم من وبر وما ولدا

قوم إذا ما جنى جانيهم أمنوا ... من لؤم أحسابهم أن يقتلوا قودا

وقول أعشى باهلة :

بنو تيم قرارة كل لؤم ... كذاك لكل سائلة قرار

ولسنا ندرى علة استمساك العسكرى بهذا المقياس ، ولم لا يوصف المهجو بالعيوب الجسمية ؟ وذلك كثير فى الشعر والنـــثر ومنه الحسن المستجاد ! بل هو من الأهاجى الطبيعية المعروفة عند كل الناس من سائر الأجناس من البدو والحضر ، والأميين والعالمين ، والماديات أقرب إلى الذهن من المعنويات ، ولحواس الإنسان أثرها فى الاستحسان والاستهجان ، وقديما قالوا « تسمع بالمعيدىّ خير من أن تراه » مخافة أن يقع عليه الطرف فتزدريه النفس ، فالعيب بالقصر المفرط والطول المفرط ، والبياض والسواد ، ودمامة الوجه . . من عيوب الجسم طبيعى قديم ومعروف ، كما أن المدح بأوصاف الجسم من الجمال والبهاء والزينة قديم طبيعى معروف ، وإذا كان الملك استنكر ما استنكر من قول ابن قيس الرقيات ، فلسبب سياسى، هو أنه سبق أن مدح عدواً من أعدائه، ولسبب آخر يحذقه العارفون : أنه جعل جمال مصعب هبة طبيعية منحه الله إياها ، فهو شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء ، وجعل بهاء عبد الملك صناعياً ، وعبارة عبد الملك التى

(١) الخرق بكسر الخاء : السخى من الرجال الذى يتوسع فى العطاء

لم يوردها صاحب الصناعتين : يابن قيس تمدحنى بالتاج والصولجان كأنى من ملوك العجم، وتقول فى مصعب . . .

ولم يذهب العسكرى هذا المذهب إلا متابعة لقدامة فى رأيه فى المديح والهجاء كما مرّ .

(٣) الوصف: أجود الوصف مايستوعب أكثر معانى الموصوف حتى كأنه يصور الموصوف لك فتراه نصف عينك .. كقول يزيد بن عمر الطائى:

ألا من رأى قومى كأن رجالهم ... نخيل أتاها عاضد فأمالها (١)

فهذا التشبيه كأنه يصور لك القتلى مصرعين . وقال العتابى فى السحاب :

والغيم كالثوب فى الآفاق منتشر ... من فوقه طبق من تحته طبقُ

تظنه مصمتاً لا فتق فيه فإن ... سالت عزاليه قلت الثوب منفتقُ

إن معمع الرعد فيه قلت منخرق ... أو لألأ البرق فيه قلت محترق (٢)

وهو أيضاً مقياس قدامة ، وعبارة قدامة : ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعانى كان أحسنهم من أتى فى شعره بأكثر المعانى التى الموصوف مركب منها ثم بأظهرها فيه وأولاها حتى يحكيه بشعره ويمثله بنعته (٣)، وكما استشهد قدامة ببيت الشماخ فى وصف النبالة تمثل به أبو هلال كما مرّ بنا .

(٤) التشبيب : ينبغى أن يكون دالا على شدة الصبابة وإفراط الوجد ، والتهالك فى الصبوة ، ويكون بريئا من دلائل الخشونة والجلادة وأمارات الإباء والعزة ، ومن أمثلة ذلك (جيد التشبيب) قول أبى الشيص :

(١) عضد الشجر من باب ضرب قطعه .

(٢) العزالى جمع عزلاء مصب الماء من الراوية . المعمعة بوزن المزرعة صوت الحريق فى القصب ونحوه . (٣) نقد الشعر ١١٨ .

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدمُ
أجد الملامة في هواك لذيذة حباً لذكرك فليلمني اللوّمُ
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم إذ كان حظي منك حظي منهمُ
وأهنتني فأهنت نفسي صاغراً ما من يهون عليك ممن أكرمُ

فهذا غاية التهالك في الحب ، ونهاية الطاعة للمحبوب .

ويستجاد التشبيب أيضاً إذا تضمن ذكر التشوق والتذكر لمعاهد الأحبة بهبوب الرياح ولمع البروق وما يجرى مجراها من ذكر الديار والآثار ، فمن أجود ما قيل في الديار قول الأزدي :

فلم تدع الأرياح والقطر والبلى من الدار إلا ما يشفّ ويشغف

وأبو هلال في هذا المقياس ، وقبله قدامة ، مقلدان للأقدمين في بكاء الأطلال والوقوف على الآثار والدّمن ، ولئن صح ذلك في الأطلال الدائرة ، لقد يمتنع في الحواضر العامرة ، ومثل الرجلين عاش الحواضر بعيداً عن هذه الظواهر ، وإنما دفعهما إلى هذا المقياس تقليد الشعراء الأقدمين ، ومجاراة النقاد السابقين ، قال ابن قتيبة : وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتقالهم عن ماء إلى ماء ، وانتجاعهم الكلأ ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق . .

وفي ذكر البرق قول الأول :

سرى البرق من نحو الحجاز فشاقني وكل حجازيّ له البرق شائقُ

بدا مثل نبض العرق والبعد دونه وأكناف لبنى دوننا والأسالقُ
نهارى بأشراف التلاع موكل وليلى إذا ما جنّنى الليل آرقُ
فواكبدى مما ألاقى من الهوى إذا حنّ إلف أو تألق بارقُ

وكذلك ينبغى أن يكون التشبيب دالا على الحنين والتحسر وشدة الأسف كقوله :

وليست عشيات الحمى برواجع إليك ولكن خل عينيك تدمعا
وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى على كبدى من خشية أن تصدّعا

وقول ابن مطير :

وكنت أذود العين أن ترد البكا فقد وردت ما كنت عنه أذودها
خليلى ما فى العيش عيب لو أننا وجدنا لأيام الحمى من يعيدها

وهذا يدل على تحسر شديد وحنين مفرط .

وينبغى أن يظهر الناسب الرغبة فى الحب ، وألا يظهر التبرم به كأبى صخر حين يقول :

فياحبها زدنى جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

وقول الآخر :

تشكى المحبون الصبابة ليتنى تحملت مايلقون من بينهم وحدى
فكانت لنفسى لذة الحب كلها ولم يلقها قبلى محب ولا بعدى

وينبغى أن يكون فى النسيب دليل التوله والتحير كقول الشاعر :

فوالله ما أدرى أزيدت ملاحة وحسناً على النسوان أم ليس لى عقل؟

وقيل لبعضهم ما بلغ من حبك لفلانة ؟ فقال : إنى أرى الشمس على حيطانها أحسن منها على حيطان غيرها !

* * *

ترك أبو هلال من أغراض الشعر المراثى والفخر ، لأنهما داخلان فى المديح ، وذلك أن الفخر هو مدحك نفسك بالطهارة والعفاف والحلم والعلم والحسب، ومايجرى مجرى ذلك .

والمرثية مديح الميت، والفرق بينها وبين المديح أن تقول كان كذا وكذا وتقول فى المديح هوكذا وأنت كذا . فينبغى أن يتوخى فى المرثية مايتوخى فى المديح .

إلا أنك إذا أردت أن تذكر الميت بالجود والشجاعة تقول : مات الجود وهلكت الشجاعة ، ولا تقول : كان فلان جواداً وشجاعا ، فإن ذلك بارد غير مستحسن . وما كان الميت يكدّه فى حياته فلا ينبغى أن يذكر أنه يبكى عليه مثل الخيل والإبل وما يجرى مجراها ، وإنما يذكر اغتباطها بموته ، بل يوصف بالبكاء عليه من كان يحسن فى حياته إليه ، كما قال الغنوى :

ليبكك شيخ لم يجد من يعينه وطاوى الحشا نائى المحل غريب

وهكذا يرسم العسكرى أصولا ويضع مقاييس لمعانى الشعر بأسلوبه التعليمى الذى أوضحناه فى الفصل الماضى .

أما معانى الشعر من حيث الحقيقة والخيال فإن العسكرى تكلم فيها وعالجها أيضاً علاجا شافياً فعقد بابا للتشبيه، وآخر للاستعارة ، وثالثاً للكناية وجعل لكل منها مقياساً للجودة والاستحسان وكلها تتصل بناحية الخيال كما يسميه المعاصرون .

وجعل العسكرى أبلغ التشبيه وأجوده ما يقع على أربعة أوجه .

(١) أحدهما إخراج مالا تقع عليه الحاسة إلى ماتقع عليه ، وهو قول الله عز وجل : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء »

فاخرج ما لا يحس إلى ما يحس . والمعنى الذى يجمعهما بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة .

(٢) والوجه الآخر إخراج ما لم تجربه العادة إلى ما جرت به العادة كقوله تعالى : « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلّة » والمعنى الجامع بين المشبه والمشبه به الانتفاع بالصورة .

(٣) والوجه الثالث إخراج ما لا يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها فمن قوله عز وجل : « وجَنَّة عرضها السموات والأرض » فقد خرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بها والجامع بين الأمرين العظم ، والفائدة فيه التشويق إلى الجنة بحسن الصفة .

(٤) والوجه الرابع إخراج ما لاقوة له فى الصفة إلى ماله قوة فيها كقوله عز وجل : « وله الجوار المنشئات فى البحر كالأعلام » والجامع بين الأمرين العظم ، والفائدة البيان عن القدرة فى تسخير الأجسام العظام فى أعظم ما يكون من الماء . .

ثم ذكر بعد هذه الوجوه المستحسنة التشبيه الجيد وهو التشبيه التقليدى

كما فعل المبرد فقال : وأما الطريقة المسلوكة فى التشبيه والنهج القاصد فى التمثيل عند القدماء والمحدثين فتشبية الجواد بالبحر والمطر ، والشجاع بالأسد ، والحسن بالشمس والقمر ، والسهم الماضى بالسيف ، والعالى الرتبة بالنجم ، والحليم الرزين بالجبل ، والحيّ بالبكر ، والفائت بالحلم ، ثم تشبيه اللئيم بالكلب ، والجبان بالصفرد ، والطائش بالفراش ، والذليل بالنقد والنعل والفقع والوتد ، والماضى بالحديد والصخر ، والبليد بالجماد [1] .

ويقبح التشبيه لعدة أمور :

---

(١) الصناعتين ٢٢٩ .

(١) إخراج الظاهر إلى الخافى .

(٢) إخراج المكشوف إلى المستور .

(٣) إخراج الكبير إلى الصغير .

ينبغى أن يكون المشبهان قريبين فى الجنس ، أما التشبيه البعيد فردىء مردود فى رأى أبى هلال ، فمن ردىء التشبيه قول لبيد :

فمتى ينقع صراخ صادق ... يحلبوها ذات جرس وزجل
فخمة دفراء ترتى بالعرا ... قردمانيا وتركا كالبصل (١)

فشبه البيضة بالبصل وهو بعيد ، وإن كانا يتشابهان من جهة الاستدارة لبعد ما بينهما فى الجنس .

والخلاصة أن مقياس الحسن فى التشبيه كثرته وتركيبه . ومقياس القبح فيه الخفاء وعدم الملاءمة بين الطرفين، كأن تشبه الظاهر بالخفىّ والمكشوف بالمستور والكبير بالصغير .

الاستعارة :

أما الاستعارة فهى عند العسكرى أعلى ضروب البيان وهى تفضل الحقيقة بأن فيها شرح المعنى وفضل الإبانة عنه أو توكيده والمبالغة فيه والإشارة إليه بالقليل من اللفظ أو يحسن المعرض الذى يبرز فيه .

وهذه الأوصاف كلها موجودة فى الاستعارة المصيبة ، ولولا أن الاستعارة المصيبة تتضمن ما لا تتضمن الحقيقة من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالا .

---

(١) ينقع من نقع الصارخ بصوته إذا رفعه أوتابعه وأدامه . يحلبونها من أحلبوا الحرب إذا جمعوا لها متى سمعوا صراخاً . الزجل الجلبة ورفع الصوت . الدفراء النتنة. ترتى من الرتو وهو الشد . القردمانية الدروع الغليظة. الترك: جمع تركة بيضة الحديد .

لم يحدد العسكري معنى الاستعارة المصيبة، ولكن هذه الأوصاف تشير إلى المعنى فهي التي تحقق الأغراض المذكورة آنفاً .

ولكنه عاب الاستعارة البعيدة ، والاستعارة البعيدة ما بعد فيها المستعار عن المستعار له كقول أحد شعراء بني عبد القيس :

ولما رأيت الدهر وعراً سبيله وأبدى لنا ظهراً أجبّ مُسَلّما
ومَعْرَفَةً حصّاء غير مفاضة عليه ولوناً ذا عثانين أنزعا
وجبهة قرد كالشراك ضئيله وصعّر خدّيه وأنفاً مجدّعا

ولا يعرف أبو هلال متى رأى هذا للدهر جبهة كالشراك مع هذا الذي عدده فجاء بما يضحك الثكلى [1] .

ومن الاستعارة الرديئة قول الأخطل :

إكسير هذا الخلق يلقى واحد منه على ألف فيكرم خيمهُ

وقول أبي تمام (حتى اتقته بكيمياء السؤدد) .

فلا ترى شيئاً أبعد من إكسير الخلق وكيمياء السؤدد . وقد أكثر أبو تمام من هذا الجنس اغتراراً بما سبق منه في كلام القدماء وأسرف فنعى عليه ذلك وعيب به . وتلك عاقبة الإسراف [2] .

(١) قال الآمدي في الموازنة (١١٨) : إن هذا الأعرابي جعل للدهر ظهراً أجب ومعرفة حصاء ولوناً ذا عثانين وشبه جبهته بجبهة قرد وجعل أنفه مجدعا . . . ومثل هذا في كلامهم قليل جداً ليس مما يعتمد ويجعل أصلا يحتذى عليه ويستكثر منه.

أجب مسلع : الأجب الغليظ والمسلع الجبل ذو الشقوق . معرفة حصاء : المعرفة كمرحلة موضع العرف من الفرس والحصاء قليلة الشعر . عثانين جمع عثنون اللحية أو مافضل منها بعد العارضين . والأنزع : ذو النزع وهو انحسار الشعر من جانبي الجبهة .

(٢) كتاب الصناعتين ٢٩٥ .

وقول العسكرى فى الاستعارة المصيبة لعله هو الذى أخذه الشيخ عبد القاهر فيما بعد ، ففصل القول وقسم الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة وبين مزايا الأولى وعيوب الثانية، ويكاد كلامه فى الاستعارة المفيدة يطابق كلام العسكرى فى الاستعارة المصيبة ، فهى عنده ما بان لك باستعارته فائدة ومعنى من المعانى وغرض من الأغراض لولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل ذلك (١) .

السرقات :

ومما يتصل بالمعانى وتقسيمه إياها إلى مبتكرة ومقلدة ، ذلك الباب الذى عقده لحسن الأخذ وحل المنظوم ، وهو المسمى عند علماء الأدب ونقاده « باب السرقات » .

وفى كتاب الصناعتين دراسة فريدة فى بابها ،لأن أباهلال تابع فيها حسه الفنى ، وسايرذوقه الأدبى ، وتخلص فيها من أساليب العلماء ومناهج المتكلمين، ولهذا حالفه التوفيق فى أكثر ماقال ، فاهتدى إلى أحكام فنية خالصة اهتدى بهديها تابعوه ممن كتبوا فى البلاغة .

(١) قرر أبو هلال أن الناس لا غنى لهم عن تناول معانى المتقدمين يأخذونها ويكسونها ألفاظاً من عندهم ، ويبرزونها فى معرض من تأليفهم ويوردونها فى غير حلتها الأولى ، ويزيدونها حسن تأليف وجودة تركيب وكمال حلية ، فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبق إليها . وهو بهذا يرى أنه لا مناص من التقليد ، مستدلا بأن الطفل إنما ينطق بعد استماعه من البالغين وتقليده أصواتهم .

(٢) ويؤكد ما سبق أن قرره من اشتراك الناس فى المعانى ، فهى

(١) أسرار البلاغة : ٢٤ .

سواء بين العقلاء ، وربما وقع المعنى الجيد للسوقىّ والنبطىّ والزنجى وإنما تتفاضل الناس فى الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها . وقد يقع للمتأخر معنى سبقه إليه المتقدم من غير أن يلم به ، ولكن كما وقع للأول وقع للآخر ، ويتخذ العسكرى من نفسه شاهداً ودليلا ، فيروى أنه قال فى صفة النساء :

سفرن بدورا وانتقبن أهلة

ثم ظن أنه سبق إلى جمع هذين التشبيهين فى نصف بيت، إلى أن وجده بعينه لبعض البغداديين ، فكثر تعجبه وعزم ألا يحكم على متأخر بالسرقة من المتقدم حتما .

(٣) عالج أبو هلال بعد ذلك ضروب الأخذ ووسائله ، فقسمه قسمين الأخذ الحسن والأخذ القبيح :

(١) فالأخذ الحسن الذى يحبذه العسكرى ، أن تأخذ المعنى فتكسوه لفظا جديداً أجود من لفظه الأول ، ومن فعل مثل ذلك كان أحق بالمعنى من صاحبه الأول . أخبرنا بعض أصحابنا قال : قيل للشعبى : إنا إذا سمعنا الحديث منك نسمعه بخلاف مانسمعه من غيرك ، فقال إنى أجد المعنى عاريا فأكسوه من غير أن أزيد فيه حرفا . أى من غير أن أزيد فى معناه شيئاً . فالذى يأخذ معنى غيره فيكسوه بألفاظ جديدة ، ويصوغه صياغة جيدة جدير بأن ينسب إليه المعنى . كان دعبل فى حلقته فجرى ذكر أبى تمام ، فقال دعبل: كان يتتبع معانىّ فيأخذها ! فقال له رجل فى مجلسه : مامن ذلك أعزك الله ؟ فقال : قلت :

وإن أمرا أسدى إلىّ بشافع ... إليه ويرجو الشكر منى لأحمقُ
شفيعك فاشكر فى الحوائج إنّه ... يصونك عن مكروهها وهو يُخْلقُ

وقال وهو يمدح يعقوب بن أبى الربعى :

إن الأمير بلاك فى أحواله فرآك أهزعه غداة نضاله [1]
فمتى أقوم بحق شكرك إذ جنت بالغيب كفك لى ثمار نواله
فلقيت بين يديك حلو عطائه ولقيت بين يدى مرّ سؤاله
وإذا امرؤ أسدى إليك صنيعة من جاهه فكأنّها من ماله

فقال الرجل : أحسن والله ! فقال دعبل : كذبت قبّحك الله ! قال : لئن كان سبق بهذا المعنى فتتبعته لما أحسنت ، وإن كان أخذه منك لقد أجاد فصار أولى به منك ! ولما قال بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

تبعه سلم الخاسر فقال :

من راقب الناس مات غمًّا وفاز باللذة الجسور

فلما سمعه بشار قال . ذهب ابن الفاعلة ببيتى !

فصل العسكرى وسائل الأخذ الحسن ، وشرط لاستحسانها جميعا المهارة فى إخفاء الأخذ ، والحاذق هو الذى يخفى دبيبه إلى المعنى بأخذه فى سترة فيحكم له بالسبق إليه أكثر من يمرّ به ، ووسائل الأخذ :

(ا) أخذ معنى منظوم وإيراده فى كلام منثور ، أو من نثر فيورد فى نظم .

(ب) النقل من غرض إلى غرض ، فالمعنى المستعمل فى صفة خمر يؤخذ فيجعل فى مديح ، أو فى مديح ينقل إلى وصف وهكذا.. وذلك كثير، بشرط كسوة المعنى حلة جديدة لتخفى آثار التتبع ، كقول أبى نواس :

أعطتك ريحانها العقار وحان من ليلك انسفار

(١) الأهزع : آخر سهم فى الكنانة رديئاً كان أو جيداً أو هو أفضل سهامها لأنه يدخر لشديدة .

إن كان أخذه من قول الأعشى على ما حكوا فقد أخفاه غاية الإخفاء وبيت الأعشى :

وسبيئة مما تعتق بابل كدم الذبيح سلبتها جريالها [1]

سئل الأعشى عن (سلبتها جريالها) فقال : شربتها حمراء وبلتها بيضاء ، فبقى حسن لونها فى بدنى ، ومعنى (أعطتك ريحانها العقار) أى شربتها فانتقل طيبها إليك .

وهكذا قوله :

لا ينزل الليل حيث حلَّت فدهر شُرَّابها نهارُ

من قول قيس بن الخطيم :

قضى الله حين صورها الـ ـخالق ألا تكنّها السُّدَفُ [2]

وهذا المعنى منقول من الغزل إلى صفة الخمر فهو خفىّ . ومن هذا ما نقله من أوس بن حجر فى صفة الفرس فجعله فى صفة امرأة :

فجردها صفراء لا الطول عابها ولا قصر أزرى بها فتعطلا

وقول أبى نواس :

فوق القصيرة والطويلة فوقها دون السمين ودونها المهزول

وقد يكون من وسائل الإخفاء أن يؤخر المتأخر فى عبارة المتقدم كقول الشاعر :

---

(١) السبيئة : الخمر . جريالها : لونها ، وقال ثعلب الجريال صفوة الخمر .

(٢) السدف : الظلمة ، قال الأصمعى : وذلك فى لغة نجد ولغة غيرهم هو الضوء فهو من الأضداد ، والبيت أورده فى الموازنة هكذا :

وقضى الله حين صورها الـ ـخالق ألا يكنها سدف

وفى إحدى نسخ الأصل « وقضى لها الله . . . . » عن هامش الصناعتين .

أفناهم الصبر إذ أبقاكم الجزع

وهو من قول السموءل :

يقرب حبّ الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول

أورده أبو تمام فى نصف بيت واستوفى التطبيق .

ومن هذا الضرب قوله :

علّمنى جودك السماح فما ... أبقيت شيئاً لدىّ من صلتك !

من قول الشاعر :

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفه يعدى

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدت، وأعدانى فأتلفت ماعندى!

ويزيد الأخذ حسناً أن يزيد المتأخر فى معنى المتقدم كقول أبى نواس:

يبكى فيذرى الدّر من نرجس ... ويلطم الورد بعناب

أخذه من قول الأسود بن يعفر :

يسعى بها ذو تومتين كأنما ... قنأت أنامله من الفرصاد [1]

وأخذ بعض المتأخرين بيت أبى نواس فزاد عليه زيادة عجيبة فقال :

وأسبلت لؤلؤاً من نرجس فسقت ... ورداً وعضت على العناب بالبرد

فجاء بما لا يقدر أحد أن يزيد عليه . وهكذا يردد أبو هلال إعجابه بهذا البيت فى كل مناسبة !

ومن ذلك أيضاً قوله وقد زاد فيه عن الأول :

فتمشت فى مفاصلهم ... كتمشى البرء فى السّقم

أخذه من قول مسلم :

تجرى محبتها فى قلب عاشقها ... مجرى المعافاة فى أعضاء منتكس

(١) التومتان : مثنى تومة وهى الحبة من الدر . والفرصاد : الحمرة .

وجميع ذلك ماخوذ من قول بعض ملوك اليمن :

منع البقاء تقلب الشمس ... وطلوعها من حيث لا تمسى
تجرى على كبد السماء كما ... يجرى حمام الموت فى النفس

وأخبرنا أبو أحمد قال : سمعت أبا العيناء يقول : سمعت أبا نواس يقول : والله ما أحسن الشماخ حيث يقول :

إذا بلغتنى وحملت رحلى ... عرابة فاشرقى بدم الوتين

هلا قال كما قال الفرزذق :

علام تلفتين وأنت تحتى ... وخير الناس كلهم أمامى ؟
متى تردى الرصافة تستريحى ... من التهجير والدبر الدوامى !

وكان قول الشماخ عيباً عندى ، فلما سمعت قول الفرزدق تبعته فقلت :

وإذا المطىّ بنا بلغن محمدا ... فظهورهن على الرجال حرام
قربننا من خير من وطىء الحصى ... فلها علينا حرمة وذمام

يعترف أبو نواس كما ترى بالمتابعة ويقر بالأخذ ، ولكنه على كل حال أسلس من قول الشماخ وأوجز من قول الفرزدق .

أما حل المنظوم ونظم المنثور فقد عدّه بعضهم من البلاغة فقال : الكتابة نقض الشعر . وقيل للعتابى : بم قدرت على البلاغة ؟ قال : بحل معقود الكلام . وقد قسمه أبو هلال أربعة أقسام :

(١) أن يعمد الآخذ إلى ألفاظ الشعر فيدخل بين هذه الألفاظ ألفاظا من عنده ، ومن ذلك أن قليبا المعتزلى سمع أبياتا للعتبى وهى :

أفلت بطالته وراجعه ... حلم وأعقبه الهوى ندما
ألقى عليه الدهر كلكله ... وأعاره الإقتارَ والعدما
فإذا ألمّ به أخو ثقة ... غضّ الجفون وبحمج الكلما

فقال لبعض الملوك يستعطفه على رجل من أهله : جعلنى الله فداءك ، ليس هو اليوم كما كان ، إنه وحياتك أفلت بطالته إى والله ! وراجعه حلمه ، وأعقبه — وحقّك — الهوى ندما ، أنحى الدهر والله عليه بكلكله ، فهو اليوم إذا رأى أخائقة غضّ بصره ، ويجمج كلامه . وبهذا يعرف أن حل المنظوم ونظم المحلول أسهل من ابتدائهما ، لأن المعانى إذا حلت منظوماً أو نظمت منثوراً حاضرة بين يديك تزيد فيها شيئاً فينحل أو تنقص منها شيئاً فينتظم ، وإذا أردت ابتداء الكلام وجدت المعانى غائبة عنك فتحتاج إلى فكر يحضرها .

(٢) والضرب الثانى ينحل بتأخير لفظة منه وتقديم أخرى فيحسن محلوله ويستقيم ، ومثاله ماذكره بعض الكتاب من قول البحترىّ :

نطلب الأكثر فى الدنيا وقد نبلغ الحاجة فيها بالأقل

ثم قال : فإذا نثرت ذلك ولم تزد فى ألفاظه شيئاً قلت : نطلب فى الدنيا الأكثر وقد نبلغ منها الحاجة بالأقل .

(٣) والضرب الثالث أن يفعل الآخذ مثل ذلك التقديم والتأخير فلا يحسن الكلام ولا يستقيم إلا بالالتجاء ضرورة إلى الزيادة فيه أو النقص منه ، ومن النظم ما لا يمكن حله أصلا بتأخير لفظة وتقديم أخرى منه حتى يلحق به التغيير والزيادة والنقصان مثل قول الشاعر :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

فالمصراع الأول يمكن أن يؤخر بعض ألفاظه ويقدم ، فيصير نثراً مستقيما وهو أن تقول: فؤاد الفتى نصف ولسانه نصف . ولا يمكن فى المصراع الثانى ذلك، حتى تزيد فيه أو تنقص منه ، فتقول: لسان الفتى نصف وفؤاده نصف، وصورته من اللحم والدم فضل لاغناء بهما دونهما ولا معول عليهما إلا معهما.

(٤) والضرب الرابع أن تكسو ما تحله من المنظوم ألفاظاً من عندك ، وهذا أرفع درجاتك ، وهكذا يلقى أبو هلال على مزاولى صناعة الكتابة درساً فى وسائل الإفادة من أدب سابقيهم ، ويوطىء لهم السبيل فى الانتفاع بآثار غيرهم ، مبيّناً لهم ما يحسن وما يقبح ، وما هو ممكن أو غير ممكن ، وهكذا تبقى للرجل أهم صفاته ، وهى صفات المعلم ، الذى يرود لتلاميذه طرق الإجادة والإحسان .

ولأول مرة يطلق العسكرى لفظ السرقة على هذا الأخذ وفى معرض الاستجادة والاستحسان أيضاً .

وكما يستطيع الناثر أن يفيد من الشاعر بحل منظومه بإحدى الوسائل التى ذكرها ، فإن فى استطاعة الشاعر أن يفيد من نصوص النثر الكلامية أو الكتابية ، فيعمد إلى هذه النصوص فيدخل معانيها فى شعره ، وهكذا يكون أبو هلال وفياً لرجال الصناعتين .

ومن أجود ما مثل به للنثر يورد فى الشعر قول بعضهم للربيع بن خيثم وقد رأى اجتهاده فى العبادة : أتعبت نفسك ، قتلت نفسك ! فقال : راحتها أطلب ! أخذه الشاعر فقال :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

وقال غيره « عروة بن الورد » :

تقول سليمى لو أقمت بأرضنا ولم ولم تدر أنى للمقام أطوّف

ومثل ذلك أن بعضهم رأى أعرابياً مقبلا إلى مكة ، ليصوم فيها شهر رمضان والحر شديد ، فقال له : أتجمع على نفسك الصوم وحرّ تهامة ؟ فقال : من الحرّ أفرّ ! وقيل لروح بن قبيصة بن المهلب ، وهو واقف فى الشمس على باب الخليفة : لقد طال وقوفك فى الشمس ! فقال : الظلّ أريد .

فقال أبو تمـام :

آآلفة النحيب كم افتراق أظل فكان داعية اجتماع
وليست فرحة الأوبات إلا لموقوف على ترح الوداع

وسمع أبو تمام قول على بن أبي طالب رضى الله عنه للأشعث بن قيس: إنك إن صبرت جرى عليك قضاء الله وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك أمر الله وأنت موزور، فإنك إن لم تسلُ احتسابا سلوت كما تسلو البهائم . فحكاه حكاية حسنة فى قوله :

وقال علىّ فى التعازى لأشعث وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلوى رجاءً وحسبةً فتؤجر أم تسلو سلوّ البهائم
خلقنا رجالا للتجلد والأسى وتلك الغوانى للبكا والمآتم

ولم يكن لأبى هلال أن يعدّ هذا من السرقة ، ولا أن يذكره فى بابها لأن أبا تمام سمع المعنى فأعجبه فنظمه ، ولم ينسبه إلى نفسه ، أو يخفى دبيبه إليه . ولكنه أسنده إلى قائله صراحة ، وذكر المقول له ، ومناسبة القول ، وإن كان البيت الأخير من قول عبد الله بن الزبير لما قتل أخوه مصعب : وإنما التسليم والسّلوة لحزماء الرجال ، وإن الهلع والجزع لربات الحجال :

إن الأخذ والنقل يحتاجان كما يرى أبو هلال إلى الحذق وإلى الفطنة ، حتى يكون من الممكن أن يسلم المعنى للآخذ ، ويكون من العسير على القارىء أو السامع أن يفطن إلى النقل ، أو يتنبه إلى الأصل . وناقد الأدب أكثر حاجة من الشاعر أو الناثر إلى الحذق والفطنة وسعة الاطلاع . حتى يستطيع بكل أولئك أن يعرف المصادر والموارد ، وأن يرد المعنى إلى صاحبه والقول إلى قائله . مهما استطاع الأديب بمهارته إخفاء الأخذ أو النقل ، بتغيير الغرض الأصلى ، ووضع المعنى فى معرض آخر ، أو كسوته ثوباً

جديداً من الألفاظ أو غير ذلك مما يعمل الأديب فيه جهده مبالغة فى التعمية والإخفاء .

ولهذا كان علينا أن نعرف لأبى هلال قدره ، وأن نحكم له بالقدرة الفائقة وطول الباع وسعة الاطلاع ، من هذا الباب النقدىّ الذى وفق فيه إلى حشد هذه النصوص والفطنة إلى أصولها ، فمن ذلك مارواه أن أبا تمام سمع قول زياد لأبى الأسود وقد سأله ولاية : لولا أنك ضعيف لاستعملتك ! فقال أبو الأسود : إن كنت تريدنى للصراع فإنى لا أصلح له ، وإلا فغير شديد أن آمر وأنهى ! فقال أبو تمام ، وقد نقله إلى الغزل :

تعجَّبُ أن رأت جسمى نحيفاً كأنّ المجدَ يدرك بالصراعِ

ومن أمثلة نقض الشعر وإيراده فى النثر أن امرأ القيس قال :

فبعض اللوم عاذلتى فإنى ستكفينى التجارب وانتسابى

يقول لا أنتسب إلا إلى ميّت ، فقال لبيد :

فإن لم تجد من دون عدنان والدا ودون معد فلتزعك العواذل

فأخذه الحسن البصرى فقال نثراً : إن امرأ لم يعد بينه وبين آدم عليه السلام إلا أبا ميتاً لمعرق له فى الموت . فأخذه أبو نواس فقال :

وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب فى الهالكين عريق

(ب) والأخذ القبيح يكون بأحد سبيلين أولهما أن يعمد الآخذ إلى المعنى فيتناوله بلفظه كله أو أكثره[1] كقول طرفة :

وقوفاً بها صحبى على مطيّهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

وهو قول امرىء القيس :

---

(١) سئل أبو عمرو بن العلاء عن الشاعرين يتفقان على لفظ واحد ومعنى فقال عقول رجال توافقت على ألسنتها .

وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتحمل

فغيّر طرفة القافية .

وقال الحارث بن وعلة :

الآن لما ابيضّ مَسْرُبتي وعضضت من نابي على جذِم[1]

وقال غسان السليطي :

الآن لما ابيضَ مَسْرُبتي وعضِضْتُ من نابي أجذامي

وقال البعيث :

أترجو كليب أن يجيء حديثها بخير وقد أعيا كليباً قديمها ؟

وقال الفرزدق :

أترجو ربيع أن يجيء صغارها بخير وقد أعيا ربيعاً كبارها ؟

وهذا كثير فى أشعارهم . .

والعسكرى الذى يرى اشتراك الناس فى المعانى يعد الأخذ على هذه الصورة قبيحاً معيباً ، وإن ادعى أن الآخر لم يسمع قول الأول بل وقع لذا كما وقع لذاك فإن صحة ذلك لا يعلمها إلا الله عز وجل ! ، والعيب لازم للآخر[2] .

ويبدو من هذا أن أبا هلال يناقض نفسه حين يلزم الآخر العيب ، وقد سبق له أن جوّز وقوعه ، واستدل على جواز الاتفاق بما أورد لنفسه مما وافق فيه قول غيره وإن كان لم يره . وبقوله إن عمر بن أبى ربيعة أنشد ابن عباس رضى الله عنه :

---

(١) المسربة : الشعر وسط الصدر إلى البطن . والجذم : أصل الشىء ، وجذم الأسنان منابتها ، والمعنى : كبرت حتى أكلت على جذم نابى .

(٢) الصناعتين ٢١٩ .

تشط غداً دار جيراننا

فقال ابن عباس : ولَلدّارُ بعد غدٍ أبعدُ .

فقال عمر : والله ما قلت إلا كذلك !

والجميل فى هذا البحث أن يتنبه أبو هلال بفطرته إلى أثر البيئة فى اتفاق المعانى وجواز توارد الخواطر ، ونعتقد أنه من السابقين إلى التنبيه إلى أثر البيئة فيما يصدر عن أصحابها بقوله : وإذا كان القوم فى قبيلة واحدة ، وفى أرض واحدة ، فإن خواطرهم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة ، ويروى قصة له مع الصاحب ابن عباد تماثل قصة ابن أبى ربيعة وابن عباس . فيروى أنه أنشد الصاحب :

كانت سراة الناس تحت أظلّه

فسبقه الصاحب فقال :

فغدت سراة الناس فوق سراته

وكذلك كان قال : وبهذا يجوز الادعاء بالاتفاق ، وإن كان الظاهر الأخذ والنقل .

أما الضرب الثانى من الأخذ القبيح فهو أن يأخذ المتأخر المعنى فيفسده أو يعوّصه أو يخرجه فى معرض قبيح ويكسوه كسوة مسترذلة .

وقد مثل العسكرى لهذا الضرب بأمثلة كثيرة منها :

(١) قول أبى كريمة :

قفاه وجه ثم وجه الذى   قفاه وجه يشبه البدرا

وإنما أخذها من قول أبى نواس :

بأبى أنت من مليح بديع   بذّ حسنَ الوجوه حسنُ قفاكا

وأحسن ابن الرومى فيه فقال :

ما ساءنى إعراضه عنّى ولكن سرّنى
سالفتاه عوض من كل شيء حسن

وأخذه أبو نواس من قول النابغة للنعمان بن المنذر : أيفاخرك ابن جفنة ؟ واللات لأمسك خير من يومه ، ولقذالك أحسن من وجهه ، وليسارك أسمح من يمينه . ولعبيدك أكثر من قومه ، ولنفسك أكبر من جنده ، وليومك أشرف من دهره ، ولوعدك أنجز من رفده ، ولهزلك أصوب من جدّه ، ولكرسيّك أرفع من سريره ، ولفترك أبسط من شبره . ولأمك خير من أبيه !

والنابغة أحذق الجماعة لأنه ذكر القذال ، وهؤلاء قالوا القفا ، ولا يستحسن أن يخاطب الرجل فيقال له : قفاك حاله كذا وكذا ..

(٢) ومن ذلك قول الحسن بن وهب ، وقد سمع قول أعرابى اجتمع مع عشيق له فى بعض الليالى : اجتمعت معها فى ظلمة الليل وكان البدر يريفيها ، فلما غاب أرتنيه ، فقال :

أرانى البدر سنتها عشاء فلما أزمع البدر الأفولا
أرتنيه بسنتها فكانت من البدر المنور لى بديلا

فأطال الكلام ، وجعل المعنى فى بيتين ، وكرر السنّة والبدر !

(٣) وقول البحترى :

من غادة منعت وتمنع نيلها فلو أنها بذلت لنا لم تبذل

أخذه من قول عبد الصمد بن المعذّل :

ظبى كأنه بخصره من دقة ظمأ وجوعا
ومن البلية أننى علقت ممنوعاً منوعا

بيت عبد الصمد أبيَن معنى مع شدة الاختصار ، وبيت البحترى

كالعويص ، لا يقام إعرابه إلا بعد نظر طويل .

ومن هذا يتضح أن مقياس قبح الأخذ واحد من عدة أمور :

(١) أخذ المعنى بلفظه كله .

(٢) أخذ المعنى بجل لفظه .

(٣) عرض المعنى الجميل فى معرض مستهجن .

(٤) أخذ البين الواضح بإخفائه .

(٥) أخذ الموجز المختصر بإطالته من غير زيادة فى معناه .

ولقد كان فى هذا الباب موفقاً كما أسلفنا لأنه عالجه بروح أديب ذى ذوق سليم واطلاع واسع ، فجمع ووازن ، وبيّن فضل السابق على اللاحق ، أو مهارة المتأخر على المتقدّم ، وكان له أن يفخر على من تقدمه بقوله : وقد أتيت فى هذا الباب على الكفاية . ولا أعلم أحداً ممن صنف فى سرق الشعر فصّل بين قول المبتدىء وقول التالى ، وبين فضل الأول على الآخر والآخر على الأول غيرى . وإنما كانت العلماء قبلى ينبهون على مواضع السرق فقط ، فقس بما أوردته على ما تركته [1] .

---

(١) الصناعتين ٢٢٥ .

بلاغة أبي هلال

وأثرها في البلاغة والبلاغيين

هذه المقاييس التي استنبطناها في الفصل السابق ، منها ما كان رائده العقل والفكر ، ومنها ما كان رائده الحسّ المرهف والذوق الأدبي ، ولم يكن هنا لك بد من الجمع بين المذهبين لما سلف في التقديم . والمقياس في الحالين له حظه من الاعتبار في نظر الذين يؤثرون قياس الأدب ونقده بالدربة والذوق والممارسة ، وله أيضاً حظه من الاعتبار عند الذين جنحوا إلى تقنين الأدب ليكون كغيره من العلوم التي نظمت مسائلها ، وذللت مسالكها بقوانين العلم الثابتة .

وضع العسكري هذه المقاييس بأسلوبه التقريري ومنهجه التعليمي ، ليقتفيها من يريد أن يكون بليغاً سواء كان شاعراً أم ناثراً أم ناقداً يعالج الشعر والنثر ، وقد كان لهذا الأسلوب أثره في تحويل مجرى النقد الأدبي من الاحتكام إلى البصيرة الواعية والذوق المستقيم ، يعضدهما الاطلاع الواسع على آثار فحول الكتاب والشعراء الذي يعين على وزن الكلام وموازنة بعضه ببعض ، لتبين أسباب القوة وتظهر عوامل الضعف ، إلى علم منظم ذي قواعد وأصول هو علم البلاغة .

والعسكري من غير شك أول من وضع اللبنات الأولى في هذا العلم ، وأول من كتب في البلاغة بحثاً مستفيضاً مبنياً على قواعد العلم ومتأثراً بمنطق العقليين ، حتى عدّ علم البلاغيين ، اتخذوا بحوثه نواة لدراستهم وأصلا لتفريعاتهم ، فلا تكاد تجد بحثاً استقصى فيه صاحبه منابعه وموارده إلا ذكر

العسكرىّ بين أوائل الواردين ، وقد وصفه العلوى فى طرازه بأنه كان متقدماً فى علم البلاغة على غيره ، آخذاً منها بحظ وافر[1]، كما أن عبد القاهر ذكر آراءه كثيراً فى كتابيه . وإن يكن الجاحظ قد سبق العسكرى إلى القول فى الفصاحة والبلاغة ، وأورد كثيراً من أقوال الناس فيها على اختلاف مواطنهم وأجناسهم فى كتابه البيان والتبيين ، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان الفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه ومنتشرة فى أثنائه ، فهى ضالة بين الأمثلة لاتوجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير ، كما قال أبو هلال[2] الذى تناول التعريفات والحدود التى أوردها الجاحظ وغيره ، ففصلها وشرحها وحللها وأضاف إليها من علمه ورأيه شيئاً كثيراً .

* * *

فالبحث فى الفصاحة والبلاغة الذى شغل علماء البلاغة منذ كانت نبتاً صغيراً حتى أفرغوا ما فى جعبتهم فى محاولة فهمها ، وبيان أسباب ائتلافهما ونواحى اختلافهما ، كل ذلك مدين بتنظيمه لأبى هلال واقتفاه المؤلفون فى البلاغة ممن جاءوا بعده ، فجعلوا هذا الباب أول موضوعات البلاغة تكلموا فى أصل اشتقاقهما اللغوىّ ، وأيهما يكون فى اللفظ أو فى المعنى ، أو فى الكلمة أو الكلام أو المتكلم ، كما فعل أبو هلال تماماً .

* * *

ولئن كان اللفظ عند أبى هلال هو كل شىء ، والتجلية فيه مدار البلاغة فى رأيه مجاراة للجاحظ فيما ذهب إليه ، لقد تصدّى لهذا الموضوع « اللفظ والمعنى » كل من عرض لموضوع البلاغة من الذين جاءوا بعد العسكرى بين متحيز اللفظ هائم بالصناعة ، ومتعصب للمعنى هاله هذا التيار من الإعجاب

---

(١) الطراز : ج ٢ ص ٣٢٠ . (٢) الصناعتين ٧ .

بالصياغة ، فكان خلاف شديد ، ولكن هذا الخلاف لم يتخذ شكلا أدبياً بقدر ما اتخذ شكلا كلامياً وسلك أسلوباً جدلياً ، لا غنية فيه لناقد الأدب أو لطالب البلاغة .

بينا فى الفصل السابق كيف كان العسكرى أشد العلماء تغالياً فى تقدير اللفظ. وأرجعنا ذلك إلى مذهب الرجل وإيثاره مذهب الصنعة ، ومن المقرر أن كل مذهب من المذاهب جنح دعاته إلى المغالاة فيه والتعصب له ، لابد أن يجد تياراً مناهضاً يسير فى عكس الاتجاه الذى سار فيه ، ولهذا وجدنا فريقاً من المغالين أيضاً فى تقدير المعنى يجعلونه كل شىء ، ويجحدون اللفظ فلا يجعلونه شيئاً . وقد تزعم هذا الفريق إمام من أئمة البلاغة وعلم من أعلام الفكر هو عبد القاهر الجرجانى ، الذى عالج الموضوع بأسلوبه الكلامىّ ومنطقه الجدلىّ ، لقد تشيَّع للمعنى ، ورأى أن الأديب لا يتطلب جهداً فى اختيار اللفظ أو إجادة الصياغة ما دام المعنى حاضراً فى الذهن ، ولا يتصور أن يصعب مرام اللفظ بسبب المعنى ، وأنت إذا أردت الحقّ لا تطلب اللفظ بحال ، ولكنك إذا ظفرت بالمعنى فاللفظ معك وإزاء ناظرك [1] ، حتى الألفاظ إن جاز وصفها بالفصاحة فليس ذلك لسبب فى ذاتها ، وإنما جاز وصفها بالفصاحة لاعتبار مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها . حتى نظم الكلام فى نظر عبد القاهر لا أثر فيه للعناية بالألفاظ ورصفها ، وليس للأديب جهد فى تلك الناحية ، وإنما تكون جودة الرصف نتيجة لجودة ترتيب المعانى فى النفس ، والأديب يقتفى فى نظم الألفاظ آثار المعانى ، ويرتبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس ، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ،

---

(١) دلائل الإعجاز ٤٩ .

وليس هو النظم الذى معناه ضم الشىء إلى الشىء كيف جاء واتفق ، وليس الغرض بنظم الكلم أن تتوالى ألفاظها فى النطق ، بل أن تتناسق دلالتها ، وتتلاقى معانيها على الوجه الذى يقتضيه العقل ، ولو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعانى فى النفس ، ثم النطق بالألفاظ على حدودها، لكان ينبغى ألا يختلف حال اثنين فى العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه، لأنهما يحسان بتوالى الألفاظ فى النطق إحساساً واحداً ، ولا يعرف أحدهما فى ذلك شيئاً يجهله الآخر (١) .

أما ما قد يكون فى الكلام من تقديم أو تأخير فمردّه إلى حصول هذا التقديم أو التأخير فى النفس ، فإن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعانى فإنها لا محالة تتبع المعانى فى مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا فى النفس وجب فى اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا فى النطق (٢) .

لقد أراد الجرجانى بهذا الأسلوب الذى اقتطفنا فقرات منه أن يحصر الكلام كله فى المعنى ، وجعله مناط الإجادة ومدار البلاغة ، وللرجل عذره فهو رجل من رجال العلم والعقل والتفكير ، وليس يرضى بالذوق وحده هادياً حتى يهديه العقل ، ويأخذ بيده التفكير إلى أبعد حدوده ، ولم يكن فى هذا البحث الذى استنفد ما رأيت من الجهد غناء لطالب البلاغة أو طالب البيان ، ذلك أن هذا الجدل الذى رأيت بعض صوره هو الذى غلب هذا الأسلوب فيما بعد فى دراسة البلاغة ، بل تجاوزها إلى سائر العلوم لسانية أو غير لسانية .

ويجىء بعد عبد القاهر عالم من طراز آخر ، ليس عنده هذا التعمق فى التفكير وإقامة الحجة ، ولكنه لا ينقصه الذوق ولا يعوزه الاطلاع

---

(١) المصدر السابق ٤١ . (٢) المصدر نفسه ٤٣ .

على رأى هذا أو ذاك ، لا يتقبّل هذا المنطق والقياس ، وإن كان يسلم إلى نتائج يرضاها العقل ويطمئن إليها ، لا يرضى هذا الرأى ، بل يؤثر جانب اللفظ على جانب المعنى فى تقدير البلاغة أو تقدير القيم الفنية للأدب ، ذلك العالم هو ضياء الدين بن الأثير الذى يرى النظم والنثر إنما يكون الحسن فيهما من الألفاظ ، ويستدل بالذوق شاهداً ، والصياغة والتجاء الأديب إلى التغير والتأنق فى الألفاظ ، وهذا من الأمور المحسوسة التى شاهدها من نفسها ، لأن الألفاظ داخلة فى حَيّز الأصوات ، فالذى يستلذّه السمع منها ويميل إليه هو الحسن، والذى يكرهه وينفر عنه هو القبيح . ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور ويميل إليهما ، ويكره صوت الغراب وينفرعنه ، وكذلك يكره نهيق الحمار، ولايجد ذلك فى صهيل الفرس ، والألفاظ جارية هذا المجرى ، فإنه لاخلاف فى أن لفظة المزنة والديمة حسنة يستلذها السمع ، وأن لفظة البعاق قبيحة يكرهها السمع ، وهذه اللفظات الثلاثة من صفه المطر، وهى تدل على معنى واحد ، ومع ذلك فإنك ترى لفظتى المزنة والديمة وماجرى مجراهما مألوفة الاستعمال وترى لفظ (البعاق) وما جرى مجراه متروكا لا يستعمل ، وإن استعمل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو من ذوقه غير سليم ، لاجرم أنه ذم وقدح فيه ولم يلتفت إليه ، وإن كان عربياً محضاً من الجاهلية الأقدمين[1]».

ما قول الجرجانى فى هذا البيان ؟ وما رأيه فى هذه الحجة الصحيحة التى تتمشى مع الذوق ، وتتمشى مع العقل ؟

بل ما قوله فى الذى يحكى عن المبرد رحمه الله تعالى ، أنه قال : ليس أحدفى زمانى إلا وهو يسألنى عن مشكل من معانى القرآن أو مشكل من معانى

---

(١) المثل السائر ٤١ .

الحديث النبوى ، أو غير ذلك من مشكلات علم العربية ، فأنا إمام الناس فى زمانى هذا ، وإذا عرضت لى حاجة إلى بعض إخوانى وأردت أن أكتب إليه شيئاً فى أمرها أحجم عن ذلك ، لأنى أرتب المعنى فى نفسى، ثم أحاول أن أصوغه بألفاظ مرضية فلا أستطيع ذلك ! ولقد صدق فى قوله هذا وأنصف غاية الإنصاف . ولقد رأيت كثيراً من الجهال الذين هم من السوقة أرباب الحرف والصنائع ، وما منهم إلا من يقع له المعنى الشريف ، ويظهر من خاطره المعنى الدقيق ، ولكنه لا يحسن أن يزاوج بين لفظتين ، فالعبارة عن المعانى هى التى تخلب بها العقول . وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون فى استخراج المعانى،فإنه لايمنع الجاهل الذى لايعرف علما من العلوم أن يكون ذكياً بالفطرة ، واستخراج المعانى إنما هو بالذكاء لا بتعلم العلم[1] .

إن المعنى الذى يخطر فى النفس أولا كما يقول الجرجانى هو معنى السحابة أو هذا الجرم بين السماء والأرض يسقط منه المطر . وهذه الألفاظ ، وقد يكون إلى جانبها غيرها مما يدل دلالتها مما يخطر على الذهن أيضاً ، ويأتى عمل الأديب بعد استواء المعنى لديه فيميّز بين الألفاظ . ويفاضل بين لفظ وآخر ، ثم يختار لنظمه ما يلائم ذوقه وما يظن أن أذواق الناس ترتضيه ، إذ كان عمله الفنى يحاول به إشراك غيره ، فيما أثار نفسه وهاج شاعريته من انفعالات وأحاسيس .

ولو كانت الفصاحة لأمر يرجع المعنى لكانت هذه الألفاظ فى الدلالة عليه سواء ، ليس منها حسن ومنها قبيح ، ولما لم يكن كذلك علمنا أنها «الفصاحة» تخص اللفظ دون المعنى ، وليس لقائل ها هنا أن يقول : لا لفظ إلا بمعنى فكيف فصلت أنت بين اللفظ والمعنى ؟ فإنى لم أفصل بينهما ،

---

(١) المثل السائر ٤٥ ، ٤٦ .

وإنما خصصت اللفظ بصفة هى له ، والمعنى يجىء فيه ضمناً وتبعاً [1] .

والعلوىّ [2] يأخذ فى الطراز بنظرية عبد القاهر فى دلائل الإعجاز ، وإن كان لايصرح بهذا الأخذ فيقول : إياك أن يعتريك الوهم ، أو يستولى على قلبك غفلة ، فتظن أنا لما قلنا إن الألفاظ دالة على المعانى فتعتقد من أجل ذلك أن المعانى تابعة للألفاظ وأنها مؤسسة عليها ، فهذا أو أمثاله خيال باطل وتوهم فاسد ، فإن الألفاظ فى أنفسها هى السابقة للمعانى ، وإن المعانى هى السابقة بالتقرير والثبوت ، والألفاظ تابعة لها [3] .

لئن كان الجاحظ وغيره ممن سبقوا العسكرى تكلموا فى اللفظ أوآثروه بوجوب الرعاية له والاهتمام به ، لقـــد كان علاجهم أدبياً موجزاً ، أما الإفاضة فى منزلة اللفظ ومنزلة المعنى وإقامة الحجة والدليل على أن أحدهما مدار البلاغة فإن العسكرى هو أول من نصب لذلك ، فتعصب للفظ وجعله الأدب كله ، وفتح مثل هذا البحث الجدلىّ الذى لا يخرج منه صناع الأدب بطائل ، وقفاه الجرجانى ، فنقض قوله وآثر المعنى وجعل اللفظ

(١) المصدر السابق .

(٢) أمير المؤمنين يحيى بن حمزة بن على بن ابراهيم العلوى اليمنى ، وكتابه « الطراز ، المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز » يعد من الموسوعات التى ألفت فى البلاغة ، لسعة موضوعه ، وغزارة مادته ، وإحاطته بجل ما كتب فى البلاغة والنقد قبله . وله غيره : كتاب الانتصار على علماء الأمصار فى تقرير المختار من مذاهب الأئمة وأقاويل الأمة . وقد صاغه فى ثمانية عشر مجلداً . وكتاب الحاصر لفوائد مقدمة طاهر ، وهو شرح على مقدمة أبى الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ ابن داود المصرى . ولد سنة تسع وستين وستمائة وقد تقلد باليمن إمارة المؤمنين ، وقضى نحبه سنة تسع وأربعين وسبعمائة .

(٣) الطراز ج ١ ص ١٨٦ .

تابعاً بأسلوبه العلمى المنطقى الذى قرأت فقرات منه ، وآثر صاحب المثل السائر مذهب الجاحظ وأبى هلال ، وتابع العلوى عبدالقاهر فيما ذهب إليه ، وتتابع البلاغيون فى الانتصاف لهذا الرأى أو لذاك .

على أن هؤلاء جميعاً لم يحسنوا علاج هذا الباب من الناحية الأدبية بل التزموا الناحية العقلية المنطقية ، فلم يفد الأديب من دراسة هذا الرأى أو ذاك شيئاً يعود على إنتاجه الأدبى بعائدة ، ولم يفد الناقد كذلك شيئاً يعود على صناعته بفائدة .

ما جدوى أن اللفظ يجر المعنى ؟ . وما جدوى أن المعنى يستدعى اللفظ وأنه إذا تهيأ للأديب فاللفظ بين يديه وطوع أمره ؟

* * *

لقد كان ما فعل أبو هلال حين قسم الألفاظ إلى طبقات وبين المقبول منها والمردود خير ما يقدم لطالب الأدب ، كما كان علاجه للمعانى وتقسيمه إياها إلى جديدة مبتكرة ومسبوق إليها مقلدة واشتراط الصواب فى كليهما بحثاً أدبياً نقدياً ناجعاً . ولو أن هؤلاء الأعلام اجتزءوا بمثل هذا البحث وقصروا جهودهم عليه لكان ذلك أولى من الجدل العقيم الذى كدوا أنفسهم فيه ، ولم يخرجوا منه بطائل .

* * *

نعم ، فتح أبو هلال القول فى كثير من موضوعات الأدب ، وكان له أتباع أخذوا عنه ما قال ، ومن جملة ذلك أن العسكرى قسم المعانى قسمين أحدهما ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدى به فيه أو رسوم قائمة فى أمثلة مماثلة يعمل عليها ، وقد يعرض هذا الضرب للشاعر عند الخطوب الحادثة ، ويتنبه له عند الأمور النازلة الطارئة . وثانيهما

ضرب يحتذى على مثال سبق ورسم فرط . .

ويأخذ صاحب المثل السائر هذا القول ، فيقسم المعانى هذين القسمين ويكاد يعبر عنهما بعبارة العسكرى نفسه فيقول : المعانى على ضربين أحدهما يبتدعه مؤلف الكلام من غير أن يقتدى فيه بمن سبقه ، وهذا الضرب ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة، ويتنبه له عند الأمور الطارئة[1] ثم أفاض القول فى هذه الأمور الطارئة وما استدعته من معان جديدة .. أما الضرب الآخر من المعانى . وهو الذى يحتذى فيه على مثال سابق ومنهج مطروق ، فذلك جل ما يستعمله أرباب الصناعة ، ولذلك قال عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم [2]

وكذلك تابع ابن الأثير أبا هلال فى تقسيم الألفاظ ، قسمها أبو هلال إلى جزلة وسهلة وقسمها ابن الأثير إلى جزلة ورقيقة ، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه ، فالجزل منها يستعمل فى وصف مواقف الحروب وفى قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك . أما الرقيق منها فإنه يستعمل فى وصف الأشواق وذكر أيام البعاد وفى استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك ، وربما كان معنى الجزل عند صاحب المثل السائر أقرب إلى الفهم من معناه عند العسكرى . وتعبيره بالرقة بدل السلاسة فيه من الوضوح ما ليس فى الثانى فلا يعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً عليه عنجهيّة البداوة بل يعنى بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته فى الفم ، ولذاذته فى السمع ، وليس يعنى بالرقيق أن يكون سفسفا وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس[3] ، وكلامه فى هذا قريب

---

(١) المثل السائر ١٨٧ . (٢) المصدر السابق ٢٠٩ .

(٣) المصدر السابق ١٠٠ .

من قول العسكرى، إلا أنه أقرب إلى الوضوح منه ، فليست الجزالة التوعر وإنما هى المتانة مع استساغة السمع واللسان فمرجع تقديرها إلى الذوق وحده .

كذلك فتح أبو هلال باب القول فى السرقات على الوجه الذى رأيت فى الباب السابق ، وتبعه بعض علماء البلاغة ، فاحتذوه وزادوا عليه فى الأقسام وفى الألقاب ، وممن فعل هذا ضياء الدين بن الأثير فإنه تكلم فى السرقات فقسمها ثلاثة أقسام :

(١) النسخ : وهو أخذ المعنى برمته من غير زيادة عليه ، مأخوذاً ذلك من نسخ الكتاب .

(٢) السلخ : وهو أخذ بعض المعنى ، مأخوذاً ذلك من سلخ الجلد الذى هو بعض الجسم المسلوخ .

(٣) المسخ : إحالة المعنى إلى ما دونه ، مأخوذاً ذلك من مسخ الآدميين قردة .

ثم زاد على هذه الأقسام الثلاثة قسمين : أحدهما أخذ المعنى مع الزيادة عليه ، والآخر عكس المعنى إلى ضده ، وهذان القسمان ليسا بنسخ ولا سلخ ولا مسخ .

وعنى ابن الأثير بعد ذلك بالتفريعات، فجعل النسخ ضربين ، وجعل السلخ اثنى عشر ضربا ، والمسخ ضربين ، وزاد عليه المتأخرون ما شاءوا من الأنواع والتقاسيم ، وهذه الأنواع كلها ، والضروب التى أتوا بها ، منتزعة من كلام أبى هلال ، وأكثر ما مثلوا به لهـــذه الأقسام مما أورد فى كتاب الصناعتين .

* * *

كان تحيّز أبى هلال للفظ وما كتب فى تفضيله هو الذى دعا عبدالقاهر

إلى أن يتعصب للمعنى على الوجه الذى سلف ، ويدفعه هذا التعصب إلى أن يكتب فى تعلق الكلم بعضها ببعض ، وهى كما يراها معانى النحو وأحكامه ، فجعل النحو عمدة دراسته ، وما ينشأ عن وضع الكلمة وموضعها الإعرابى فى التركيب ، من تغير فى المعنى قوة وضعفا ، وفصلا ووصلا ، وإيجازاً وإطناباً وقصراً ، وهذه الدراسة النحوية يبنى عليها دراسة المعانى ، وسميت دراسة معانى النحو علم المعانى عند البلاغيين ، وجعل علماً مستقلا من علوم البلاغة الثلاثة .

وقد سبق عبد الله بن المعتز صاحبى الصناعتين ودلائل الإعجاز إلى تحديد علم البديع وسمى كل محسن باسمه ، وإن كان أدخل فيه مالم يجعله البلاغيون منه كالاستعارة والتشبيه ، فتميز هذا العلم على يديه وكان همّ من بعده الوقوف على ضروب جديدة من ضروب تحسين الكلام .

أما علم البيان فإن أكثر أهل الفن يسمى جميع فنون البلاغة علم البيان لتعلقها جميعاً بالبيان وهو المنطق الفصيح المعرب عما فى الضمير ، وبعضهم أطلقه على البيان والبديع معا ، تغليبا للبيان المتبوع على البديع التابع .

وبعض علماء البلاغة يسمى العلوم الثلاثة (المعانى والبيان والبديع) علم البديع ، لأن البديع هو الشىء الذى يستحسن لظرافته وغرابته وعدم وجود مثاله من جنسه وهذه العلوم كذلك [1] .

لقد كان البيان من قبل اسما شاملا لكل مايتصل ببناء الكلام وتأليفه سواء منه ما يتصل بالألفاظ والمعانى أو بوجوه التحسين اللفظى والتحسين المعنوى ، وبهذا المعنى فهمه العلماء والأدباء والنقاد إلى عهد عبد القاهر ، وجاء السكاكى ونظم العلوم الثلاثة ، وحدد مباحثها التحديد الذى لايزال أساس

(١) مواهب الفتاح ، شروح التخليص ج ١ ص ١٥١ .

دراستها إلى اليوم فى الجزء الخاص بالبلاغة من كتابه « مفتاح العلوم »

* * *

ومع أن العسكرى لم يكن له يد فى تقسيم العلوم التى تعالج فن الكلام هذا التقسيم التقليدى، إلا أنه عالج من مباحث هذه العلوم موضوعات كثيرة كانت أساس موضوعات كثيرة من مباحث علوم البلاغة كما يأتى :

(١) فعلم البيان : الذى عرفه البلاغيون بأنه العلم الذى يبحث فى التعبير عن المعنى الواحد بأساليب مختلفة فى وضوح الدلالة على المعنى المراد ، عالج أبو هلال من مباحثه التشبيه فعرفه تعريفا لا يختلف كثيرا فى دلالته عن تعريف المتأخرين ، وأفاض القول فيه وفى صنوفه ، وفى الجيد والقبيح منه ، وذكر أركانه ، وتعرض للنوع الذى حذفت منه الأداة ووجه الشبه (التشبيه البليغ) وإن كان لم يسمّه بهذا الاسم الذى لا معنى له فى نظرنا ، لأن هذا التشبيه البليغ قد يكون غير بليغ ، وقد يكون التشبيه كامل الأركان أكثر بلاغة منه فى موضعه ، والتشبيه أكثر أبواب الخيال ورودا فى أشعار العرب وكلامهم وربما كان هذا الأسلوب أكثر الأساليب البيانية قربا من الطبيعة الحاجة إليه فى التوضيح والتزيين والتقبيح ، وهو جار كثير فى كلام العرب حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد [1] »

ومن أقدم الذين عالجوا التشبيه باعتباره أسًّا من أسس البيان أبو العباس المبرد، فقد عقد له فى كتابه « الكامل » بابا طويلا استغرق نحو ثمانين صفحة ، ويقول فى أخريات هذا الباب « والتشبيه كثير وهو باب كأنه لا آخر له، وإنما ذكرنا منه شيئا لئلا يخلو هذا الكتاب من شىء من المعانى [2] »

ولكن كان علاج المبرد لهذا الموضوع علاجا استقرائيا تقليديا

---

(١) الكامل ج ٣ ص ٤٢ (٢) الكامل ج ٣ ص ٧٨

يعرض فيه ألواناً من تشبيهات القدامى والمحدثين ، ويعلق عليها بالاستحسان أو بالاستهجان .. وقد يورد فى أثناء عرضه الاستطرادى شيئاً من التشبيهات التقليدية ، ولا غرو فإنه من أعلام المحافظين فيقول « والعرب تشبه المرأة بالشمس والقمر والغصن والغزال والبقرة الوحشية والسحابة البيضاء والدرة والبيضة [1] . . . وشبهوا عين المرأة والرجل بعين الظبي أو البقرة الوحشية والأنف بحد السيف ، والفم بالخاتم ، والشعر بالعناقيد ، والعنق بإبريق فضة والساق بالجمار [2] .

ومن النادر أن تجد للمبرد شيئاً فى الحدود والتقاسيم كقوله : والعرب تشبه على أربعة أضرب ، فتشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه وهو أخس الكلام [3] وعالجه أبو الفرج قدامة علاجا موجزاً فى التحديد على غير عادته ،وأكثر من سرد الشواهد وتوضيح التشبيه فيها ، وعرفه بأنه يقع بين شيئين بينهما اشتراك فى معان تعمهما ، ويوصفان بها ، وافتراق فى أشياء ينفرد كل واحد منهما بصفتها [4] .

أما أبو هلال فقد عرض التشبيه عرضاً شاملا ، عرّفه ، وذكر وجوهه وأنواع الجيد منه ، وعقد بابا لبيان قبح التشبيه وعيوبه .

عرفه بأنه الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه وقسمه إلى ثلاثة أقسام :

(١) تشبيه شيئين متفقين من جهة اللون ، مثل تشبيه الليلة بالليلة والماء بالماء .

---

(١) الكامل ج ٣ ص ١٨ . (٢) المصدر نفسه ص ٦٦ .
(٣) المصدر نفسه ص ٦٣ . (٤) نقد الشعر ١٠٨ .

(٢) تشبيه شيئين متفقين يعرف اتفاقهما بدليل، كتشبيه الجوهر بالجوهر والسواد بالسواد .

(٣) تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما ، كتشبيه البيان بالسحر ، والمعنى الذى يجمعهما لطافة التدبير .

ثم قسم التشبيه تقسيما آخر من حيث الصورة، واللون، والحسن، والحركة والمعنى . عرض أبو هلال للتشبيه البليغ ، وجعله ضرباً مستقلا ، وإن لم يسمّه بهذا الاسم الاصطلاحى ، وهو الذى يحذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه . قال : وضرب منه آخر ومنه قول امرىء القيس :

سموت إليها بعد مانام أهلها سموّ حباب الماء حالا على حال

فحذف حرف التشبيه .

وما هو جدير بالنظر أنه جعل بعض الاستعارات تشبيهات ، مع أنه عقد فصلا مستقلا للاستعارة وعدها من البديع . أورد فى باب التشبيه هذا البيت للوأواء الدمشقى :

وأسبلت لؤلؤاً من نرجس وسقت وردآ وعضت على العناب بالبرد

وقال إنه شبه خمسة أشياء بخمسة أشياء[1] . . . ولم يذكر الخطوة التالية وهى استعارة لفظ المشبه به للمشبه . وعندنا أن هذا لا غبار عليه ، فإن التشبيه أصل الاستعارة ، لولا أنه خصص للاستعارة باباً خاصاً ، وكذلك استشهاده ببيتى أبى نواس :

يا قمر أبصرت فى مأتم ينـدب شجواً بين أتراب
يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعنـــاب

وقول العسكرى :

---

(١) الصناعتين ٣٢٩ .

وكئوس إذا دجا الليل دارت تحت سقف مرصع باللجين
وكأن الهـــلال مرآة تبر ينجلى كل ليـــلة أصبعين

وعكس ذلك تماماً ماذهب إليه من عد بعض التشبيهات من الاستعارة ، وهذا الذى نقله صاحب الطراز عن أبى هلال والغانمى والآمدى والخفاجى وغيرهم من علماء البيان ولهم حجتان :

الحجة الأولى : قولهم الاستعارة ليس لها آلة والتشبيه له الآلة ، فما كانت فيه آلة التشبيه ظاهرة فهو تشبيه ، وما لم تكن فيه ظاهرة فهو استعارة فقوله « زيد الأسد » لا آلة فيه فوجب كونه استعارة .

الحجة الثانية : هو أن المفهوم من قولنا « زيد الأسد » مثل المفهوم من قولنا « لقيت الأسد » و « أتانى أسد » فإن كان مفهومهما واحداً فى المبالغة فى المجاز ، فإذا قضينا بكون أحدهما استعارة وجب أن يكون الآخر كذلك من غير تفرقة بينهما .

ولقد اعترض على مثل هذا الخلط إمام من أئمة النقد فى القرن الرابع هو القاضى الجرجانى ، صاحب الوساطة ، فقال : وربما جاء ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل ، فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عد فيهما قول أبى نواس :

والحب ظهر أنت راكبه فإذا صرفت عنانه انصرفا

ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة ، وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه . فهو إما ضرب مثل أو تشبيه شىء بشىء .

وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ، ونقلت العبارة فجعلت فى مكان غيرها . وملاكها تقريب الشبه ومناسبة المستعار له

للمستعار منه وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة ، ولا يتبين فى أحدهما إعراض عن الآخر[1] .

والوجه الذى يقتضيه القياس فى رأى عبد القاهر ، وعليه يدل كلام القاضى فى الوساطة ألا تطلق الاستعارة على نحو قولنا « زيد أسد وهند بدر » ولكن نقول هو تشبيه ، فإذا قال « هو أسد » لم تقل استعار له اسم الأسد ، ولكن تقول شبهه بالأسد ، وتقول فى الأول إنه استعارة لا تتوقف فيه ولا تتحاشى ألبتة ، وإن قلت فى القسم الأول إنه تشبيه كنت مصيباً من حيث تخبر عما فى نفس المتكلم وعن أصل الغرض . وإن أردت تمام البيان قلت : أراد أن يشبه المرأة بالظبية فاستعار لها اسمها مبالغة . إنك فى القسم الأول قد عزلت الاسم الأصلى عنه واطرحته وجعلته كأنه ليس باسم له ، وجعلت الثانى هو الواقع عليه والمتناول له ، فصار قصدك التشبيه أمراً مطوياً فى نفسك ، مكنوناً فى ضميرك ، وليس كذلك القسم الثانى لأنك قد صرحت فيه بالمشبه ، وذكرك له صريحاً يأبى أن تتوهم كونه من جنس المشبه .. وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يفصل بين القسمين . فيسمى الأول استعارة على الإطلاق ، ويقال فى الثانى إنه تشبيه ، فأما تسمية الأول تشبيها فغير ممنوع ولا غريب ، إلا أنه على أنك تخبر عن الغرض وتنبىء عن مضمون الحال ، فأما أن يكون موضوع الكلام وظاهره موجباً له صريحاً فلا[2] .

وقد تحدث أرسطو عن الاستعارة Metaphor فى أكثر من موضع من كتاب الخطابة كما أنه يحيل على ما قاله عنها فى كتاب الشعر ، فيقول (ج ٣ باب ٤) التشبيه استعارة ، وذلك أنه قليل الاختلاف عنها

(١) الوساطة ٤٠ . (٢) راجع دلائل الإعجاز ص ٢٧٧ وما بعدها .

فعند مايقول الشاعر عن رجل انطلق الأسد يكون تشبيها وأما عندمايقول : انطلق هذا الأسد فيكون هذا استعارة [1] . .

وكلام أرسطو مع هذا هو أساس ما عرف فى البلاغة الاصطلاحية ، فالاستعارة أصلها التشبيه ، أو كما يقول علماء البلاغة العربية : الاستعارة مجاز علاقته المشابهة ،ولكن ضياء الدين أبا الفتح بن الأثير وهو بعد صاحب الصناعتين، لايكاد يفرق بين التشبيه والاستعارة ، فيجعلهما جنساً واحداً بعد أن يجعل المجاز قسمين أولهما توسع فى الكلام وثانيهما التشبيه . ثم يجعل التشبيه ضربين أحدهما التشبيه التام ، وثانيهما التشبيه المحذوف . فالتشبيه التام أن يذكر المشبه به . والتشبيه المحذوف أن يذكر المشبه دون المشبه به وسمى استعارة ، وهذا الاسم وضع للفرق بينه وبين التشبيه التام ، وإلا فكلاهما يجوز أن يطلق عليه اسم التشبيه ، ويجوز أن يطلق عليه اسم الاستعارة لاشتراكهما فى المعنى [2] .

وذكرها أيضاً الجاحظ وعرفها بأنها تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه [3] .

وكما عد ابن المعتز الاستعارة أول البديع فكذلك جعلها أبو هلال أول أبوابه ، وجاراهما ابن رشيق القيروانى فى ذلك فقال : الاستعارة أفضل المجاز وأول أبواب البديع، وليس فى حلى الشعر أعذب منها [4].

وظلت الاستعارة كذلك حتى ميزها المتأخرون ، وجعلوها فى موضعها من علم البيان حين استواء التقاسيم واستقرارها .

ونحن نرى أن الاستعارة من محاسن الكلام لا شك ، ولكنها ليست

---

(١) النقد المنهجى ٤٠ . (٢) المثل السائر ٢١٤ .
(٣) البيان والتبيين ج ص ١١٥ . (٤) العمدة ج ١ ص ١٨٠ .

حسنا بديعياً فى الوسع الاستغناء عنه ، وفى استطاعتنا أن نعد ضروب التحسين اللفظى والمعنوى كما حدها علماء البلاغة ووضحوا فنونها ضرباً من الترف البيانى ، الذى يسع الأديب أن ينساه ويبقى الأدب بعد ذلك ، وقد اجتمعت فيه شروط الجودة والإبداع ، وليست كذلك الاستعارة ، بل هى من أهم أركان الشعر وعنصر من العناصر الأصيلة فيه ، فليس يسع الأديب أن يستغنى عنها ، إذ كانت مزية معانى الشعر أنها مصبوبة فى قالب خيالى ، والاستعارة هى الوسيلة اللغوية الوحدة لتحقيق هذا العنصر الخيالى ، فكيف عد ابن المعتز الأديب الشاعر الاستعارة بديعاً ؟ أو كيف عدها ترفاً ؟ وكيف جاراه فى هذا المضمار أبو هلال على غير هدى ؟

والعجيب أن العسكرى يفطن إلى أن التشبيه ليس من البديع ، فيجعله بابا مستقلا من أبواب البلاغة ، ثم يصر على أن يجعل الاستعارة أول أبواب البديع ، مع قرب أحدهما من الآخر ، ومع أنه جعل بعض الاستعارات تشبيها ، وبعض التشبيهات استعارة ، والاستعارة منتزعها التشبيه لا محالة بالإجماع الذى لا يجحد ولا ينقده عقل ولا ذوق ولا اطلاع .

لئن كان ابن المعتز أخطأ لقد كان له عذره فى هذا الخطأ ، فقد كان يكتب فى أمثال هذه الموضوعات للمرة الأولى بحثاً بكراً ، وكان بينه وبين أبى هلال قرن من الزمان يتيح إعادة النظر فيما سبق إليه الوهم .

ولابن المعتز عذر آخر ذلك أنه ألحق الاستعارة وأصلها التشبيه بالبديع فكأن خطأه فى أحدهما جرّ خطأه فى الآخر ، فإذا كان العسكرى قد فطن إلى أن التشبيه ليس بديعاً ، وليس من الترف البيانى ، فأنّى له أن يعد الاستعارة (وأساسها التشبيه) بديعاً ؟

أما الكناية فإن العسكرى قد عقد بابين من البديع سمى أولهما

(المماثلة)[1] وسمى الآخر (الكناية والتعريض)[2] وما أورد فى تعريف المماثلة ينطبق على ما حدّ به المتأخرون الكناية ، قال : المماثلة أن يريد المتكلم العبارة فيأتى بلفظة تكون موضوعة لمعنى آخر ، إلا أنه ينبىء إذا أورده عن المعنى الذى أراده ، كقولهم : فلان نقى الثوب يريدون لا عيب فيه ، وليس موضوع نقاء الثوب البراء من العيوب ، وإنما استعمل فيه تمثيلا ، قال امرؤ القيس :

ثياب بنى عوف طهار نقيّة وأوجههم غر المشاهد غرّان[3]

ويقولون : فلان أوسع من أبيه ثوباً (أى أكثر منه معروفا) وفلان غمر الرداء[4] (إذا كان كثير المعروف) قال كثير :

غمر الرداء إذا تبسّم ضاحكا غلقت لضحكته رقاب المال

وفى الفصل الثانى عشر من البديع « الكناية والتعريض » قال : هو أن يكنى عن الشىء ويعرض به ، ولا يصرح ، على حسب ما عملوا باللحن

---

(١) الصناعتين ٣٤٤ . (٢) الصناعتين ٣٦٠ .

(٣) هكذا فى الأصول ، وفى ديوانه :

ثياب بنى عوف طهارى نقية وأوجههم عند المشاهد غران

قال أبو على : غران مثل سودان وحمران ، والأغر الأبيض (هامش الصناعتين ٢٧٧ طبعة الآستانة) .

(٤) الغمر بالفتح : السخى الكثير العطاء . وإنما قال : غمر الرداء ، لأنه أراد بقوله سخى الرجال ، والعرب تفعل هذا فتقول : فدى لك ردائى ، وفدى لك إزارى ، ويريدون بذلك أبدانهم . وقال الأصمعى : إذا قالت العرب الثوب والإزار فإنهم يريدون البدن ، وأنشد :

ألا أبلغ أبا حفص رسولا فدى لك من أخى ثقة إزارى

والتورية عن الشيء، كما فعل العنبرى إذ بعث إلى قومه بصرة شوك وصرّة رمل وحنظلة ، يريد جاءتكم بنو حنظلة فى عدد كثير كثير الشوك ، وفى كتاب الله عز وجل (أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء) فالغائط كناية عن الحاجة ، وملامسة النساء كناية عن الجماع ، وقوله تعالى (وفرش مرفوعة) كناية عن النساء .

ومن التعريض الجيد ما كتب به عمرو بن مسعدة إلى المأمون : أما بعد فقد استشفع بى فلان إلى أمير المؤمنين ، ليتطول فى إلحاقه بنظرائه من المرتزقين فيما يرتزقون ، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفع بهم . وفى ابتدائه بذلك تعدّى طاعته ، والسلام . فوقع فى كتابه « وقد عرفنا تصريحك له ، وتعريضك بنفسك . وأجبناك إليهما ، وأوقفناك عليهما » .

ولعلك رأيت الخلط بين المماثلة والكناية والتعريض ، وقد فطن لهذا الخلط ضياء الدين بن الأثير وحاول أن يفصل بين الكناية والتعريض ، وقد تكلم علماء البيان فيه ، فوجدتهم قد خلطوا الكناية بالتعريض ، ولم يفرقوا بينهما ، ولا حدّوا كلا منهما بحد يفصله عن صاحبه ، بل أوردوا لهما أمثلة من النظم والنثر ، وأدخلوا أحدهما فى الآخر ، فذكروا للكناية أمثلة من التعريض وللتعريض أمثلة من الكناية ، فمن فعل ذلك الغانمى وابن سنان الخفاجى والعسكرى[1] . . . والذى عندى فى ذلك أن الكناية إذا أوردت تجاذبها جانباً حقيقة ومجاز وجاز حملها على الجانبين معا . ألا ترى أن اللمس فى قوله تعالى « أو لامستم النساء » يجوز حمله على الحقيقة والمجاز، وكل منهما يصحّ به المعنى ولا يختل . فاللمس مصافحة الجسد

(١) المثل السائر ٣٧٦ .

للجسد ، أو المراد باللمس الجماع وذلك مجاز فيه ، وهو الكناية ، وكل موضع ترد فيه الكناية فإنه يتجاذبه جانباً حقيقة ومجاز، ويجوز حمله على كليهما معاً [1] ، على أنه إذا صح فى بعض الكنايات الحمل على الحقيقة والمجاز ، فإننا لا نراه صحيحاً فى كل أقسامها ، وكيف يمكن الحمل على الحقيقة فى كناية النسبة فى مثل قولهم (المجدبين ثوبيه) ؟

أما التعريض « فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقى ، ولا المجازى ، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته بغير طلب : والله إنى لمحتاج وليس فى يدى شيء وأنا عريان والبرد قد آذانى ، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب ، وليس هذا اللفظ موضوعا فى مقابلة الطلب حقيقة ولا مجازاً [2] » .

وقد لخص العلوى الفروق بين الكناية والتعريض فى ثلاثة أمور :

(١) أن الكناية واقعة فى المجاز معدودة منه ، بخلاف التعريض فلا يعد منه ، وذلك من أجل كون التعريض مفهوماً من جهة القرينة ، فلا تعلق له باللفظ ، لا من جهة حقيقته ولا من جهة مجازه .

(٢) أن الكناية كما تقع فى المفرد [3] ، فقد تكون واقعة فى المركب بخلاف التعريض، فإنه لا موقع له فى باب اللفظ المفرد .

(٣) أن التعريض أخفى من الكناية ، لأن دلالة الكناية مدلول عليها من جهة اللفظ بطريق المجاز ، بخلاف التعريض فإنما دلالته من جهة القرينة والإشارة [4] .

---

(١) المثل السائر ٣٧٨ . (٢) المصدر نفسه ٣٨٠ .

(٣) من أمثلة وقوع الكناية فى المفرد قول الله تعالى (إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ..) فقد كنى بالنعجة عن المرأة .. (٤) الطراز ج ١ ص ٣٨٩

(٢) وعلم المعانى : كان نشاط العسكرى فى مباحثه الاصطلاحية ضئيلا، وكان عبد القاهر أول من فصل مسائله تفصيلا فى (دلائل الإعجاز) ، وقد عالج أبو هلال من موضوعات علم المعانى باب الإيجاز والإطناب والمساواة عالجه علاجاً شافياً ، ولم يزد البلاغيون الذين أتوا بعده على مافعل العسكرى شيئاً فى هذا الباب ، اللهم إلا تفصيل ضروب الإطناب ، التى ذكر العسكرى منها صراحة التكرير ، وذكر الخاص بعد العام بالمثال ، وذكر من أنواعه التى عددها المتأخرون الإيغال[1] والاعتراض[2] ، والتكميل والتتميم[3] ،

(١) الإيغال : هو أن يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه ثم يأتى بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحاً وشرحاً وتوكيداً وحسناً. مثل قول ذى الرمة

قف العيس فى أطلال مية فاسأل رسوما كأخلاق الرداء المسلسل

فتم كلامه بالرداء ، ثم قال المسلسل فزاد به شيئاً ثم قال :

أظن الذى يجدى عليك سؤالها دموعا كتبذير الجمان المفصل

فتم كلامه بالجمان، ثم قال المفصل فزاد شيئاً . وكقول الأعشى :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

فتم كلامه بيضرها . فلما احتاج إلى القافية قال (وأوهى قرنه الوعل) فزاد معنى .

(٢) الاعتراض : هو اعتراض كلام فى كلام لم يتم ثم يرجع إليه فيتمه كقول النابغة الجعدى :

ألا زعمت بنو سعد بأنى ألا كذبوا كبير السن فان

(٣) التتميم والتكميل : هو أن توفى المعنى حظه من الجودة وتعطيه نصيبه من الصحة ثم لاتغادر معنى يكون فيه تمامه إلا تورده أو لفظاً يكون فيه توكيده إلا تذكره كقوله تعالى (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) فبقوله (وهو مؤمن) تم المعنى ، ومثل قول عمرو بن براق :

فلا تأمنن الدهر حرا ظلمته فما ليل مظلوم كريم بنائم =

ذكرها فى أنواع البديع ، وهو يقصد من غير شك أن هذه تفيد الكلام حسناً وتزيد البيان جمالا .

قسم العسكرى الإيجاز التقسيم الاصطلاحى الذى لا يزال حتى اليوم وأكبر الظن أنه لم يعالجه أحد قبله ممن تكلم فى النقد ، وإن كان النحاة قد تكلموا فى إيجاز الحذف وأنواع المحذوف فى أبواب متفرقة من النحو .

عرف أبو هلال إيجاز القصر بأنه تقليل الألفاظ وتكثير المعانى ووازن بين أسلوب القرآن فى قوله تعالى « ولكم فى القصاص حياة » وقول العرب « القتل أنفى للقتل » [1] وهو أثر من آثار مذهب المتكلمين

= فقوله (كريم) تتميم. وقد جعل العسكرى التتميم والتكميل شيئاً واحداً وقال غيره: التتميم هو أن يؤتى فى كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة مثل مفعول أو حال مما ليس بجملة مستقلة ولا ركن كلام ، وهذه الفضلة تفيد نكتة كالمبالغة فى قوله تعالى (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً) « أى مع حبه » والضمير للطعام أى مع اشتهائه والحاجة إليه . وعندهم أن التكميل هو الاحتراس وهو أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع هذا الإيهام كقول الشاعر :

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمى

فلما كان المطر قد يئول إلى خراب الديار وفسادها أتى بقوله (غير مفسدها) دفعاً لذلك .

(١) قال أبو هلال: ويتبين فضل هذا الكلام إذا قرنته بما جاء عن العرب فى معناه وهو قولهم (القتل أنفى للقتل) فصار لفظ القرآن فوق هذا القول لزيادته عليه فى الفائدة، وهو إبانة العدل لذكر القصاص ، وذكر العوض المرغوب فيه لذكر الحياة ، واستدعاء الرغبة والرهبة لحكم الله به ، ولإيجازه فى العبارة، فإن الذى هو نظير قولهم القتل أنفى للقتل إنما هو (القصاص حياة) وهذا أقل حروفا من ذلك ، ولبعده من الكلفة بالتكرير وهو قولهم: القتل أنفى للقتل، ولفظ القرآن برىء من ذلك، وبحسن التأليف وشدة التلاؤم المدرك بالحس، لأن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة .

والقائلين فى إعجاز القرآن ، ولعل ما عرض أبو هلال فى هذا الباب من النصوص القرآنية ، وعلاجه ما فيها من الإيجاز ، وبيان بلاغتها فى العبارة والدلالة ، أهم النواحى التى عالج بها إعجاز القرآن فى كلام مستقيم مفصل فى كتاب الصناعتين ، على أنه مع ذلك لم يقصر الكلام فى آى الكتاب الكريم ، بل إنه أورد إلى جانبها كثيراً من موجز القـــول فى الحديث الشريف وكلام العرب منظومه ومنثوره .

ثم عرض بعد ذلك للقسم الثانى وهو إيجاز الحذف فذكر أنواعه ، ولاتزال هذه الأنواع عمدة التقسيم إلى اليوم فى أبواب البلاغة الاصطلاحية وهذه الأنواع :

(١) حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مكانه ، ويجعل الفعل له كقوله تعالى (واسأل القرية) أى أهلها ، وقوله تعالى (وأشربوا فى قلوبهم العجل) أى حبه . وقوله عز وجل (الحج أشهر معلومات) أى وقت الحج . . وقال المتنخل الهذلى :

يمشّى بيننا حانوتُ خمـــر من الخرس الصراصرة القطاط[1]

يعنى صاحب حانوت ، فأقام الحانوت مقامه . وقال الشاعر :

لهم مجلسٌ صهبُ السِّبال أذلة سواسية أحرارها وعبيدها

يعنى أهل المجلس .

(٢) وقوع الفعل على شيئين وهو لأحدهما ويضمر للآخر فعله ، وهو قول الله تعالى (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) معناه وادعوا شركاءكم ، وكذلك هو فى مصحف عبد الله بن مسعود . وقال الشاعر :

(١) الخرس الصراصرة : هم خدم من العجم لايفصحون فلذلك جعلهم خرساً ، والقطط : شعر الزنجى لقصره وتجعده ، وقيل الصراصرة نبط الشام .

تراه كأن الله يجدع أنفه وعينيه إنْ مولاه ثاب له وَفْرُ

أى ويفقأ عينيه . . وقول الآخر :

إذا ما الغانيات برزْنَ يوماً وزججْن الحواجب والعيونا

العيون لا تزجج ، وإنما أراد وكحلن العيون .

(٣) أن يأتى الكلام على أن له جواباً ، فيحذف الجواب اختصاراً ، لعلم المخاطب كقوله عز وجل (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعا) أراد لكان هذا القرآن فحذف. وقوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم) أراد لعذّبكم . وقول الشاعر :

فأقسم لو شيء أتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

أى لرددناه . .

(٤) حذف الكلمة والكلمتين ، كقوله تعالى (وأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم) أى : فيقال لهم . وقوله تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) أى : ووصى بالوالدين إحسانا . وقال النمر :

فإن المنية من يخشها فسوف تصادفه أينما

أى : أينما ذهب . .

(٥) ومنها القسم بلاجواب، كقوله تعالى (ق ، والقرآن المجيد، بل عجبوا) معناه والله أعلم : ق ، والقرآن المجيد لتبعثن ! .

(٦) ومن الحذف إسقاط (لا) من الكلام فى مثل قوله تعالى (يبين الله لكم أن تضلوا) أى : لئلا تضلوا . وقوله تعالى (أن تحبط أعمالكم) أى : لئلا تحبط أعمالكم . وقال امرؤ القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى : لا أبرح قاعداً . .

(٧) ومن الحذف إضمار غير مذكور ، كقوله تعالى (حتى توارت بالحجاب) يعنى الشمس بدأت فى المغيب . وقوله تعالى (ما ترك على ظهرها من دابة) يعنى على ظهر الأرض . وقوله (فأثرن به نقعاً) أى بالوادى . وقال لبيد :

حتى إذا ألقت يداً فى كافر وأجنّ عورات الثغور ظلامها[1]

يعنى الشمس تدأب فى المغيب .

(٨) وضرب منه آخر ، لم يسمه أبو هلال وهو الذى يمكن أن يسمى نزع الخافض ، ومثل له بقوله تعالى (واختار موسى قومه سبعين رجلا) أى من قومه .

(٩) وضرب منه أن يحذف الشىء أولا ثم يذكر آخراً ، كقول الله تعالى فى أول سورة الرحمن (فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) وذكر قبل ذلك الإنسان ولم يذكر الجان ثم ذكره . ومثله قول المثقب :

فما أدرى إذا يمّمتُ أرضاً أريد الخير أيّهما يليني

أألخير الذى أنا أبتغيه أم الشرّ الذى هو يبتغينى

فكنى عن الشر قبل ذكره ثم ذكره . .

وأكثر هذه التقاسيم كما رأينا مستق من ثقافة الرجل النحوية ، وقد

---

(١) الكافر: الليل ، وأجن : أظلم ، والثغور : كل فرجة فى جبل أو بطن واد أو طريق مسلوك . قال ابن السكيت : إن لبيداً سرق هذا المعنى من قول ثعلبة ابن صعيرة المازنى يصف الظليم والنعامة ورواحها إلى بيضها عند غروب الشمس :

فتذكرا ثقلا رثيداً بعدما ألقت ذكاء يمينها فى كافر

عولج بعضها فى أبواب من النحو متفرقة ، ولكن العسكرى استطاع أن ينظمها وأن يجمع شملها ، وأخذها عنه علماء البلاغة وشراحها فيما بعد .

ثم انتقل إلى الطرف الثانى وهو الإطناب فعالجه بما عالج به الإيجاز فأورد حجة أصحابه بأن المنطق إنما هو بيان . . . الخ

ولم يعرض من أنواع الإطناب الاصطلاحية سوى التكرير والإتباع بقصد التوكيد ، وذكر الخاص بعد العام ، وإن لم يسمه بهذا الاسم ، ولكنه مثل له بقول حسان بن ثابت :

إن شرخ الشباب والشعر الأسـ ـود ما لم يعاض كان جنونا

فالشعر الأسود داخل فى شرخ الشباب ، وكذلك قول أبى تمام :

رب خفض تحت السرى وغناء من عناء ونضرة من شحوب

الغناء داخل فى الخفض والعناء داخل فى السرى ... ومما هو أجل من هذا كله قول الله عز وجل (إن الله يأمر بالعـــدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) فالإحسان داخل فى العدل ، وإيتاء ذى القربى داخل فى الإحسان ، والفحشاء داخل فى المنكر ، والبغى داخل فى الفحشاء .

تكلم أبو هلال عن الحد الوسط وهو المساواة وعرفها بأن تكون المعانى بقدر الألفاظ والألفاظ بقدر المعانى لا يزيد بعض عن بعض ، وهو المذهب المتوسط بين الإيجاز والإطناب ، وإليه أشار القائل بقوله « كأن ألفاظه قوالب لمعانيه » أى لا يزيد بعضها عن بعض ، فمما فى القرآن من ذلك قوله عز وجل (حور مقصورات فى الخيام) وقوله تعالى (ودّوا لو تدهن فيدهنون) وفى الحديث قوله صلى الله عليه وسلم (لا تزال أمتى بخير ما لم تر الأمانة مغنما والزكاة مغرماً) . ولم يستطع أحد من العلماء

أن يزيد على ما قال أبو هلال فى المساواة شيئاً .

ولعل أبا هلال كان أول من تكلم من علماء البلاغة فى الفرق بين الإطناب والتطويل ، ولهذا كان من الخطأ أن ينسب العلوىّ فى الطراز [1] إلى أبى هلال ما ليس من رأيه ، فيدعى أنه لا يفرق بينهما فى قوله : وأما التفرقة بينه (الإطناب) وبين التطويل فاعلم أن علماء البيان لهم فى ذلك مذهبان : المذهب الأول أن الإطناب هو التطويل ، وهذا هو المحكى عن أبى هلال العسكرى ، وعن الغانمى أيضا ، وقالا إن كتب الفتوح والتقاليد كلها ينبغى أن تكون مطولة كثيرة الإطناب ، لأنها مما يقرأ على عوام الناس ، لافتقارها إلى البيان ، فكلامهما يقضى بأنه لا تفرقة بين الإطناب والتطويل .

وهذا الذى ذكره العلوى منقول عن المثل السائر لابن الأثير مع عدم الدقة فى النقل ، ذلك أن ابن الأثير يرى أن علماء البيان قد اختلفوا فى الإطناب ، فمنهم من ألحقه بالتطويل الذى هو ضد الإيجاز ، وهو عنده قسم غيره فأخطأ من حيث لا يدرى ، كأبى هلال العسكرى والغانمى حتى إنه قال إن كتب الفتوح وما يجرى مجراها مما يقرأ على عوام الناس ينبغى أن تكون مطولة مطنبا فيها [2] .

والذى صرح به أبو هلال أن العبارة عن المعنى بكلام طويل لا فائدة فى طوله ويمكن أن يعبر عنه بأقصر منه معيب ومثل له بقول النابغة :

تبينت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع

كان ينبغى أن يقول لسبعة أعوام ويتم البيت بكلام آخر يكون فيه فائدة ، فعجز عن ذلك فحشا البيت بما لا وجه له [3].

(١) الطراز ج ٢ ص ٢٣١ (٢) المثل السائر ٣٣٢

(٣) انظر الصناعتين : ٣٥ (طبعة الآستانة)

وأنت ترى أن هذا القول ينسبه ابن الأثير إلى الغانمى وحده (فالضمير للمفرد وهو يعود على أقرب مذكور) وأخذ العبارة صاحب الطراز فسواها وجعلها (وقالا) ونسب إلى الرجل رأيا لم يقل به !

أما ربط أجزاء الكلام بعضها ببعض ، وهو الذى سماه العسكرى الفصل والوصل ، كما سماه غيره وعدّ معرفته البلاغة كلها ، فقد نقل ما أورد غيره فيه ، وبين ضرورة معرفة مواضع كل منهما للكاتب والخطيب والشاعر ، وعالجه علاجا أدبياً لا أثر فيه لتنظيم ولا تقسيم ، ولا اهتمام بتحديد ولا تعريف . .

وإنما الباب كله تحذير من الخلط وبيان لوسيلة اتقاء هذا الخلط . ولكننا نستطيع أن نستخلص من ثنايا كلامه بعض المقاييس البلاغية التى استضاء بها تابعوه فى تآليفهم فى البلاغة ، وجعلوا لها الألقاب والمصطلحات .

فمن ذلك قول أكثم بن صيفى لكتابه إذا كاتبوا ملوك الجاهلية « افصلوا بين منقضى كل معنى ، وصلوا إذا كان الكلام معجوناً بعضه ببعض[1] » وقول الحارث بن شمر الغسانى لكاتبه المرقش « إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ماأنت فيه فافصل بينه وبين تبعيته من الألفاظ ، فإنك إن مذقت ألفاظك بغير ما يحسن أن تمذق نفرت القلوب عن وعيها ، وملته الأسماع ، واستثقلته الرواة » وكان بزرجمهر يقول : « إذا مدحت رجلا وهجوت آخر فاجعل بين القولين فصلا ، حتى تعرف المدح من الهجاء ، كما تفعل فى كتبك إذا استأنفت القول ، وأكملت ماسلف من اللفظ » فالفصل بين منقضى كل معنى ، والفصل إذا نزع الكاتب الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما هو فيه ، والفصل بين المديح والهجاء ، وعند استئناف القول . . كل هذا

(١) الصناعتين ٤٢٥

من المقاييس الصحيحة التى اعتمد عليها وأخذ بها مقننو البلاغة ، أليسوا يقولون : إن التباين التام بالاختلاف بين الجملتين خبراً وإنشاء ، أو بألا تكون بينهما مناسبة مايوجب الفصل ؟ وهذا الذى سماه علماء البلاغة بعد أبى هلال كمال الانقطاع ، وإن لم يضع له أبو هلال اسما ؟

ثم أليس وصل أجزاء الكلام بعضها ببعض إذا كان معجوناً بعضه ببعض فى عبارة أكثم بن صيفى هو الذى قرره البلاغيون فيما بعد من وجوب الوصل إذا قصد إشراك الجملتين فى الحكم الإعرابى . أو إذا اتفقتا خبراً وإنشاء وكانت بينهما مناسبة تامة ، ولم يكن هناك سبب يقتضى الفصل ؟

(٣) وعلم البديع : كان أول من ألف فيه عبد الله بن المعتز وجمع فى مؤلفه ما وقع من ضروب تحسين الكلام فى كتاب الله وحديث الرسول وكلام بلغاء العرب ، وأطلق على كل ضرب منها اسماً خاصاً ، ولكنه لم يحدد معانى بعضها كما حد معانى بعضها الآخر ، فهو فى بعضها يكتفى بأن يفيض فى التمثيل ، أما العسكرى المولع بالتقسيم والقول فى الحدود فهو الذى أوضحها ، وحدد معالمها ، وعرف كل ضرب منها التعريف الذى أخذه من جاء بعده ممن كتب فى البلاغة ، ولايزال أكثر هذه التعاريف عمدة البلاغة إلى اليوم .

جعل ابن المعتز البديع خمسة أضرب هى الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، ورد أعجاز الكلام على ماتقدمها ، والمذهب الكلامى . وحدد بعضها تحديدا غير كاف ، واقتصر فى بعضها على المعنى اللغوى ولم يزد شيئا ، وفى الباقى اقتصر على التمثيل ، فيقول :

الباب الأول من البديع هو الاستعارة قال الله تعالى (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب) وقال (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) وقال (واشتعل الرأس شيباً) وقال (أو يأتيهم

عذاب يوم عقيم) وقال (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار[1]) . . . ولا يورد فى تعريفها شيئا إلا كلمة عارضة فى المقدمة : من الكلام البليغ قول الله تعالى (وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) ومن الشعر البديع قوله :

والصبح بالكوكب الدرى منحور

وإنما هو استعارة الكلمة لشىء لم يعرف بها من شىء قد عرف بها[2]

الباب الثانى من البديع وهو التجنيس : وهو أن تجىء الكلمة تجانس أخرى فى بيت شعر وكلام ، مجانستها لها أن تشبهها فى تأليف حروفها على السبيل التى ألف الأصمعى كتاب الأجناس عليها[3] ثم يتكلم فى أنواع التجنيس .

الباب الثالث من البديع وهو المطابقة . قال الخليل رحمه الله : يقال طابقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحد . وكذلك قال أبو سعيد : فالقائل لصاحبه : أتيناك لنسلك بنا سبيل التوسع فأدخلتنا فى ضيق الكتمان ، قد طابق بين السعة والضيق فى هذا الخطاب[4] .

الباب الرابع من البديع هو رد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

(١) فمن هذا الباب ما يوافق آخر كلمة فيه آخر كلمة فى نصفه الأول مثل قول الشاعر :

تلقى إذا ما الأمر كان عرمرماً فى جيش رأى لا يُفَلُّ عرمرم

(٢) ومنه ما يوافق آخر كلمة منه أول كلمة فى نصفه الأول كقوله :

سريع إلى ابن العم يشتم عرضه وليس إلى داعى الندى بسريع

(٣) ومنه ما يوافق آخر كلمة فيه بعض ما فيه كقول الشاعر :

---

(١) البديع ١٩ . (٢) ص ١٧ . (٣) ص ٥٥ . (٤) ص ٧٤ .

عميد بنى سليم أقصدته سهامُ الموت وهى له سهامُ [1]

الباب الخامس من البديع وهو مذهب سماه عمرو الجاحظ المذهب الكلامى ، وهذا باب ما أعلم أنى وجدت فى القرآن منه شيئاً ، وهو ينسب إلى التكلف ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً [2] .

وهذه أبواب البديع الخمسة التى حصر ابن المعتز القول فيها ، ورأى أنه كمل بها ، ثم أضاف إليها غيرها سماها (بعض محاسن الكلام والشعر) ومحاسنها لا ينبغى للعالم أن يدّعى الإحاطة بها ، حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن علمه وذكره ، وأحببنا لذلك أن تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين ، ويعلم الناظر أنّا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختياراً من غير جهل بمحاسن الكلام ولا ضيق فى المعرفة ، فمن أحب أن يقتدى بنا ويقتصر على تلك الخمسة فليفعل ، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئاً إلى البديع ولم يأت غير رأينا فله اختياره[3] .. وهذه المحاسن هى: الالتفات ، الاعتراض ، الرجوع ، حسن الخروج ، تأكيد المدح ، تجاهل العارف ، الهزل يراد به الجد ، حسن التضمين ، التعريض والكناية ، الإفراط فى الصفة ، حسن التشبيه ، لزوم ما لا يلزم ، حسن الابتداء .

وكان قدامة بن جعفر معاصراً لعبد الله بن المعتز ، فجمع فى كتابه (نقد الشعر) طائفة من المحسنات البديعية ، ولكنه لم يذكرها على أنها بديع ، ولا ذكر اسم البديع ، بل ذكر هذه المحسنات على أنها نعوت للشعر ومحاسن له ، منها ما هو نعت للوزن كالترصيع ، وما هو نعت للقوافى كالتصريع ، وما يتصل بالمعانى كالغلوّ ، والتشبيه ، وصحة التقسيم ، وصحة التفسير ، وصحة المقابلة ، والتتميم ، والمبالغة ، والتكافؤ ، والالتفات ، والإشارة .

---

(١) البديع ص ٩٣ . (٢) ص ١٠١ . (٣) ص ١٠٦ .

والإرداف ، والتمثيل ، وما هو نعت للفظ والمعنى كالمطابق ، والمجانس ، وما هو نعت للقوافى كالتوشيح ، والإيغال .

وجاء أبو هلال وهو رجل الصناعة الولوع بها ، وبتحلية الأدب بفنونها ، فاقتبس كعادته من كلام ابن المعتز الذى سلف ماجعله مقدمة لهذه الفنون ، قال : هذه أنواع البديع التى ادعى من لارويةله ، ولا رواية عنده أن المحدثين ابتكروها ، وأن القدماء لم يعرفوها ، وذلك لما أراد أن يفخم أمر المحدثين ، لأن هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف وبرىء من العيوب كان فى غاية من الحسن ونهاية الجودة .

جمع أبو هلال فى الباب التاسع من الصناعتين محسنات البديع فجعلها خمسة وثلاثين محسناً ، ثم اتفق له بعد تحريرها محسن جديد ، وقد قرر أنه ابتكر من هذه المحسنات الخمسة والثلاثين ستة محسنات عدا هذا الجديد الذى اهتدى إليه ، وعلى هذا فإنه يكون قد أخذ مما أحصاه السابقون تسعة وعشرين محسناً ، واستنبط بنفسه المحسنات السبعة الآتية :

(١) التشطير :

وهو أن يتوازن المصراعان والجزآن وتتعادل أقسامها مع قيام كل منهما بنفسه ، واستغنائه عن صاحبه ، فمثاله من النثر قول بعضهم : من عتب على الزمان طالت معتبته ، ومن رضى عن الزمان طابت معيشته . وقول الآخر: الجود خير من البخل ، والمنع خير من المطل. وقول الآخر : رأس المداراة ، ترك المماراة . فالجزآن من هذه الفصول متوازنا الألفاظ والأبنية . ومثاله من المنظوم قول أوس بن حجر :

فتحدركم عبس إلينا وعامر وترفعنا بكر إليكم وتغلب

ونلاحظ هنا ملاحظتين إحداهما أن التشطير ليس ببعيد عن الازدواج

وهو أن تكون الفواصل على زنة واحدة ، إلا فى قيام كل فاصلة من الفاصلتين بنفسها واستغناء كل منهما عن صاحبتها . والملاحظة الثانية أن المثال الثالث الذى أتى به لاينطبق عليه شرطه الذى أورده فى التشطير من استغناء كل فاصلة عن صاحبتها ، اللهم إلا أن يكون فى النسخة التى بين أيدينا نقص أدى إلى حذف بقية المثال ، فإن « ترك المداراة » تمام الجملة وخبر المبتدأ « رأس المداراة » فلا استغناء لواحدة عن الأخرى ، أما سائر الأمثلة فينطبق عليها التعريف صحيحا ، وعند البلاغيين بعد أبى هلال أن التشطير ضرب من السجع من غير اشتراط التوازن ، فقد قيل إن : السجع غير مختص بالنثر وأنه قد يكون فى الشعر مثل قول أبى تمام :

تجلى به رشدى وأثرت به يدى ... وفاض به ثمدى وأورى به زندى

وكذلك قول الخنساء :

حامى الحقيقة محمود الخليقة ... مهدىٌ الطريقة نفّاع وضرار

وقول الآخر :

ومكارم أوليتها متورّعا ... وجرائم ألغيتها متبرّعا

ومن السجع على هذا القول — أى القول بعدم اختصاصه بالنثر — التشطير وهو جعل كل من شطرى البيت سجعة مخالفة لأختها كقول أبى تمام :

تدبير معتصم بالله منتقم ... لله مرتقب فى الله مرتغب

فالشطر الأول سجعة مبنية على الميم ، والثانية سجعة مبنية على الباء .

(٢) المجاورة :

عرفها أبو هلال بأنها تردد لفظتين فى البيت ، ووقوع كل منهما بجانب الأخرى ، أو قريباً منها ، من غير أن تكون إحداهما لغوا لايحتاج إليها وذلك كقول علقمة :

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه أنىّ توجّه والمحرومُ محرومُ

فقوله : الغنم يوم الغنم مجاورة والمحروم محروم مثله . . وقول الآخر :

وتندق منها فى الصدور صدورها

وقول أوس بن حجر :

كأنها ذو وُشوم بين مافقة فالقطقطانة والمذعورُ مذعورُ[1]

وجعل العسكرى هذا المحسّن فى الشعر وحده .

(٣) التطريز :

وهو أن يقع فى أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية فى الوزن فيكون فيها كالطراز فى الثوب ، وهذا النوع قليل فى الشعر ، وأحسن ماجاء فيه قول أحمد بن أبى طاهر[2] :

إذا أبو قاسم جادتْ لنا يدُه لم يُحمد الأجودان البحرُ والمطرُ[3]

وإن أضاءت لنا أنوار غُرّته تضاءل الأنوران الشمسُ والقمرُ[4]

وإن مضى رأيه أو حدّ عزمته تأخّر الماضيان السيف والقدرُ

من لم يكن حذِراً من حدّ صولته لم يدر ما المزعجان الخوف والحذرُ

فالتطريز فى قوله : الأجودان والأنوران والماضيان والمزعجان .

وقد نسب العلوى فى الطراز[5] الأبيات لابن الرومى فى مدح عبد الله

---

(١) الوشوم : العلامات ، مافقة والقطقطانة : موضعان .

(٢) روى أبوهلال هذا الشعر أيضاً فى ديوان المعانى ، وفى هامشه أنه قاله فى عبيد الله بن عبدالله بن طاهر ، على مافى جنى الجنتين فى تمييز نوعى المثنيين للمحبى .

(٣) الذى فى ديوان المعانى (إذا أبو أحمد . . .)

(٤) « « « « (تضاءل النيران . . .)

(٥) الطراز ج ٣ ص ٨٩ .

ابن سليمان بن وهب ، وجعلها فى باب آخر سماه (التوشيع) ، قال : وهو فى مصطلح علماء البيان عبارة عن أن يأتى المتكلم بمثنى يفسره بمعطوف ومعطوف عليه ، وذلك من أجل أن التثنية أصلها العطف فيوشع الاسم المثنى بما يدل على معناه ويرشد إليه على جهة العطف، ومثاله قوله عليه السلام : يكبر ابن آدم ويشبّ معه خصلتان : الحرص وطول الأمل . وقوله عليه السلام : خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن : البخل وسوء الخلق . ومنه قول ابن الرومى يمدح عبد الله بن سليمان بن وهب (وأورد الأبيات) .

وعلى هذا فقد اختلف العسكرىّ والعلوىّ فى التسمية ، كما اختلفا فى التعريف ، وقد ذكر العلوىّ التطريز أيضاً ، ولكن بمعنى يخالف المعنى الذى ذهب إليه العسكرى فقال : هو تفعيل من طرزت الثوب ، إذا أتيت فيه بنقوش مختلفة ، واشتقاقه من الطراز وهو معرّب ، وهو فى مصطلح علماء البيان مقول على ما يكون فى صدر الكلام والشعر ، مشتملا على ثلاثة أسماء مختلفة المعانى ، ثم يؤتى بالعجز فتكرر فيه الثلاثة بلفظ واحد ومن أمثلته ماقال بعضهم :

وتسقينى وتشرب من رحيق ... خليق أن يلقّب بالخلوقِ
كان الكأس فى يدها وفيها ... عقيق فى عقيق فى عقيقِ

وأراد بالثلاثة : يدها ، والكأس ، والخمر ، وكلها محمرّة ، فكرر لفظ العقيق إشارة إلى ماذكرناه [1] .

ولا صلة بين هذا الكلام سواء من ناحية التعريف أو من ناحية الاستشهاد والمعنى الذى حدد به العسكرى التطريز .

---

(١) الطراز ج ٣ ص ٩٢ .

(٤) الاستشهاد والاحتجاج :

وهذا الجنس كثير فى كلام القدماء والمحدثين ، وهو أحسن ما يتعاطى من أجناس صنعة الشعر ومجراه مجرى التذييل لتوليد المعنى . وهو أن تأتى بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجرى مجرى الاستشهاد على الأول والحجة على صحته . ومثاله من النثر ما كتب به الصاحب بن عباد فى فصل له : « فلا تقس آخر أمرك بأوله ، ولا تجمع بين صدره وعجزه ، ولا تحمل خوافى صنعك على قوادمه ، فالإناء يملؤه القطر فيفعم ، والصغير يقترن بالصغير فيعظم ، والداء يلم ثم يصطلم ، والجرح يتباين ثم ينفتق ، والسيف يمس ثم يقطع ، والسهم يرد ثم ينفذ . ومثاله من الشعر قول الشاعر :

إنما يعشق المنايا من الأة ... وام من كان عاشقاً للمعالى
وكذاك الرماح أول ما يكـ ... ـسر منهنّ فى الحروب العوالى

وقول أبى تمام :

عُتِقَتْ وسيلتُه وأيّة قيمة ... للمشرفى العضب ما لم يَعْتِقِ

والتذييل الذى أجرى العسكرى الاستشهاد مجراه معدود عند الأدباء وعلماء البلاغة فى الدرجة القصوى من البلاغة ، وله فى الكلام موقع جليل ومكان شريف خطير ، لأن المعنى يزداد به انشراحاً والمقصد اتضاحا ، وقال بعض البلغاء « للبلاغة ثلاثة مواضع الإشارة والتذييل والمساواة [1] وهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه ، حتى يظهر لمن لم يفهمه ، ويتوكد عند من فهمه . . » وينبغى أن يستعمل فى المواطن الجامعة ، والمواقف الحافلة ، لأن تلك المواطن تجمع البطىء الفهم والبعيد الذهن والثاقب القريحة والجيد الخاطر ، فإذا تكررت الألفاظ على المعنى الواحد توكد عند الذهن اللقن

(١) الصناعتين ٣٦٤ .

وصح للكليل البليد ، ومثاله من القرآن قول الله عز وجل (ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور)

والفرق بينهما كما يبدو لنا أن الاستشهاد أو الاحتجاج إنما يكون بشيء مستقل عما سيق له الكلام ، وأن التذييل الذى يعنيه العسكرى كما يبدو من أمثلته هو المتصل معناه بمعنى ماسيق له الكلام ، ولقد قسم السكاكى التذييل قسمين : أحدهما ما يجرى مجرى المثل ، وهو ما استقل بإفادة المراد ، دون توقف على ما قبله ، وهذا هو الاستشهاد أو الاحتجاج عند العسكرى . والثانى هو ما لايجرى مجرى المثل ، فلا يستقلّ بإفادة المراد بل يتوقف على ماقبله ، وإنما لم يخرج مخرج المثل ؛ لأن المثل وصفه الاستقلال لأنه كلام تام نقل عن أصل استعماله لكل ما يشبه حال الاستعمال الأول ، كما هو معروف فى الاستعارة التمثيلية [1] ، وهذا النوع (مالا يجرى مجرى المثل) هو وحده التذييل عند أبى هلال ، وهذا المحسن البديعى يكون فى الشعر كما يكون فى النثر ، وجعله البلاغيون بعد أبى هلال ضرباً من ضروب الإطناب فى علم المعانى .

(٥) المضاعفة :

أن يتضمن الكلام معنيين : معنى مصرحا به ، ومعنى كالمشار [2] إليه ، وذلك مثل قول الله تعالى (ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصمّ ولو كانوا لايعقلون ، ومنهم من ينظر إليك ، أفأنت تهدى العُمىَ ولو كانوا لا يبصرون) فالمعنى المصرح به فى هذا الكلام أنه لا يقدر أن يهدى من عمى عن الآيات ، وصم عن الكلم البينات بمعنى أنه ليصرف قلبه عنها فلم ينتفع بسماعها ورؤيتها ، والمعنى المشار إليه فضل السمع على البصر ؛ لأنه

(١) شروح التلخيص ج ٣ ص ٢٢٦ . (٢) الصناعتين ٤١٠ .

جعل مع الصمم فقدان العقل ، ومع العمى فقدان النظر فقط . ومن نثر الكتّاب ما كتب به الحسن بن وهب : وكتابى إليك وشطر قلبى عندك ، والشطر الآخر غير خلو من تذكرك والثناء على عهدك ، فأعطاك الله بركة وجهك ، وزاد فى علو قدرك والنعمة عندك وعندنا فيك ! فقوله بركة وجهك فيه معنيان : أحدهما أنه دعا له بالبركة ، والآخر أنه جعل وجهه ذا بركة عظيمة ، ولعظمها عدل إليها فى الدعاء عن غيرها من بركات المطر وغيره .

ومثله قول أبى العيناء : سألتك حاجة فرددت بأقبح من وجهك ! فتضمّن هذا اللفظ قبح وجهه وقبح ردّه . . ومن المنظوم قول الأخطل :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم بولى على النار

فأخبر عن إطفاء النار فدل على بخلهم ، وأشار إلى مهانتهم ومهانة أمهم عندهم ، وهذا المحسن كما رأيت يكون فى الشعر والنثر .

(٦) التلطف :

وهو أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تهجّنه ، والمعنى الهجين حتى تحسّنه ، فمن ذلك أن يحيى بن خالد البرمكى قال لعبد الملك بن صالح : أنت حقود ! فقال عبد الملك : إن كان الحقد عندك بقاء الخير والشر فإنهما عندى لباقيان ! فقال يحيى : ما رأيت أحداً احتج للحقد حتى حسّنه غيرك . . . ورأى على رجل طيلسان صوف . فقال له : أيعجبك طيلسانك هذا ؟ قال : نعم ! قال : إنه كان على شاة قبلك ! فهجّنه من وجه قريب . ونحن نرى أن هذا الأسلوب (أسلوب التلطف) قريب من أسلوب المناظرة المعروف ، وفيها يتصدى المتناظران لرأى يؤيده أحدهما ، ويفنده غيره بأدلة خطابية ، وإن كان غير مقتنع بصحة ما يقول ، ولكن غايته إبراز المقدرة الكلامية

والموهبة البيانية ، وهو أسلوب الخطابة والجدل الذى شاع عند اليونان قديماً فى جماعة السفسطائيين .

ويعجب العسكرى رأى ابن المقفع فى تعريف البلاغة أنها كشف ما أغمض من الحق، وتصوير الحق فى صورة الباطل، فيقول (العسكرى)[1] : والذى قاله أمر صحيح ، لا يخفى موضع الصواب فيه على أحد من أهل التمييز والتحصيل ، وذلك لأن الأمر الظاهر الصحيح الثابت المكشوف ينادى على نفسه بالصحة ، ولا يحوج إلى التكلف لصحته حتى يوجد المعنى فيه خطيباً ، وإنما الشأن فى تحسين ما ليس بحسن ، وتصحيح ما ليس بصحيح بضرب من الاحتيال والتخيّل، ونوع من العلل والمعاريض والمعاذير ، ليخفى موضع الإشارة ، ويغمض موضع التقصير ، وما أكثر ما يحتاج الكاتب إلى هذا الجنس عند اعتذاره من هزيمة ، أو حاجته إلى تغيير رسم ، أو رفع منزلة دنيّ له فيه هوى ، أو حط منزلة شريف استحق ذلك منه ، إلى غير ذلك من عوارض أموره .

فأعلى رتب البلاغة أن يحتج للمذموم حتى يخرجه فى معرض المحمود ، وللمحمود حتى يصيره فى صورة المذموم .

(٧) المشتق :

قال أبو هلال : وقد عرض لى بعد نظم هذه الأنواع نوع آخر لم يذكره أحد ، وسميته « المشتق[2] » وهو على وجهين فوجه منهما أن يشتق اللفظ

---

(١) الصناعتين ٥٣

(٢) فائدة — ذكر ابن حجة فى خزانته عند كلامه على الاشتقاق ما لفظه : الاشتقاق استخرجه الإمام أبو هلال العسكرى ، وذكره فى آخر أنواع البديع من كتابه المعروف بالصناعتين، وعرفه بأن قال: هو أن يشتق المتكلم من الاسم العلم =

من اللفظ ، والآخر أن يشتق المعنى من اللفظ ، فاشتقاق اللفظ من اللفظ هو مثل قوله الشاعر فى رجل يقال له ينخاب « وكيف ينجح من نصف اسمه خابا » وقلت فى البانياس :

فى البانياس إذا أوطئت ساحتها خوف وحيف وإقلال وإفلاس
وكيف يطمع فى أمن وفى دعة من حل فى بلد نصف اسمه ياس

واشتقاق المعنى من اللفظ ، مثل قول أبى العتاهية :

حلقت لحية موسى باسمه وبهارون إذا ما قلبا

وقال ابن دريد :

لو أوحى النحو إلى نفطويه ما كان هذا النحو يقرا عليه
أحرقه الله بنصف اسمه وصيّر الباقى صراخاً عليه

هذا هو جهد العسكرى فى البديع الذى زها به وتاه على هذا الوجه الذى يقول فيه : وقد فرغنا من شرح أبواب البديع وتبيين وجوهها وإيضاح طرقها والزيادة التى زدناها ستة فصول (غير المشتق) وأبرزناها فى قوالبها ، من غير إخلال ولا إهذار . وإذا أردت أن تعرف فضلها على ما عمل فى معناها قبلها فمثل بينها وبينه فإنك تقضى لها عليه ، ولا تنصرف بالاستحسان عنها إليه إن شاء الله[1] .

ضم العسكرى إلى المحسنات البديعية التى اهتدى إليها ابن المعتز وقدامة هذه المحسنات السبعة ، فتم ما استنبطه وما جمعه من هذه المحسنات ستة وثلاثين نوعاً ،

= معنى فى غرض يقصده من مدح أو هجاء أو غيره ، كقول ابن دريد فى نفطويه (وأنشد) . . . قلت : وهذا مما يتعجب منه ، فإن الفصل بجملته أمامك ، وليس فيه مما حكاه سوى بيتى ابن دريد فتأمل ! (تعليق السيد محمد أمين الخانجى على نسخة الصناعتين التى أشرف عليها ص ٤١٦)

(١) الصناعتين ٤١٦

على أن هذه المحسنات لم تبق فى اصطلاحات المتأخرين حيث وضعها العسكرى وإماماه بديعاً ، بل إن بعضها نقل إلى علمى البلاغة :البيان والمعانى ، فالاستعارة والتشبيه والكناية احتلت أمكنتها من علم البيان ، بل أصبحت أظهر شىء فى هذا العلم بعد تنظيم أبوابه وجمع أطرافه ، والتذييل والإيغال والتتميم والتكميل والاعتراض جعلت ضروباً من الإطناب الذى احتلّ مكانه من مباحث علم المعانى ، ولا يعاب العسكرى على هذا ، فله ولمن تقدمه فضل السبق والإضافة ، ولمن جاء بعده التصنيف والتقسيم ، ووضع كل شىء موضعه ولكنه هو الذى راد الطريق ويسر السبيل — سبيل الافتنان فى الصناعة — فجعلها ابن رشيق القيروانى صاحب العمدة خمسة وستين بابا من الشعر ، وتلاه شرف الدين الشاشى ، فبلغ بها السبعين ، ثم تكلم فيها ابن أبى الأصبع وكتابه المحرر أصح كتب هذا الفن ، لاشتماله على النقل والنقد ، ذكر أنه لم يؤلفه حتى وقف على أربعين كتابا فى هذا العلم أو بعضه ، وعددها فأوصلها إلى تسعين وادعى أنه استخرج هو ثلاثين ســـلم له منها عشرون ، وما قبلها متداخل أو مسبوق به ، وصنف ابن منقذ كتاب التفريع فى البديع جمع فيه خمسة وتسعين نوعاً ، ثم إن السكاكى اقتصر فى مفتاح العلوم على سبعة وعشرين ، ثم فعل مافعل ابن المعتز ، فقال إن لك تستخرج من هذا القبيل ماشئت ، وتلقب كلا من ذلك بما أحببت .

ثم إن صفى الدين بين سرايا الحلى جمع مائة وأربعين نوعا فى قصيدة نبوية فى مدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] .

نلاحظ أن العسكرى لم يقسم هذه البديعيات إلى محسنات لفظية ومحسنات معنوية ، وإنما فعل ذلك السكاكى فيما بعد . والواقع أن هذا التقسيم غير

---

(١) عروس الأفراح — شروح التلخيص ج ٤ ص ٤٦٧

دقيق ، فإن أكثر هذه المحسنات متداخل بعضها فى بعض ، حتى أولئك الذين قسموها هذا التقسيم قالوا : « إن المحسن المعنوى منسوب إلى المعنى أولا وبالذات ، بمعنى أن ذلك التحسين قصد أن يكون تحسيناً للمعنى ، وذلك القصد متعلق بتحسين المعنى أولا ومتعلق به لذاته ، وأما تعلق القصد بكونه تحسينا للفظ فيكون ثانيا بالعرض . وإنما قلنا هكذا لأن هذه الأوجه قد يكون بعضها محسنا للفظ ، لكن القصد الأصلى منها إنما هو إلى كونها محسنة للمعنى كما فى المشاكلة ، إذ هى ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبة ذلك الغير كقوله :

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت اطبخوا لى جبة وقميصا

فقد عبر عن الخياطة بالطبخ لوقوعها فى صحبته ، فاللفظ حسن لما فيه من إيهام المجانسة اللفظية ، لأن المعنى مختلف واللفظ متفق ، لكن الغرض الأصلى جعل الخياطة كطبخ المطبوخ فى اقتراحها لوقوعها فى صحبته ، فإن تعلق الغرض بتحسينه اللفظى المشار إليه فهو بالعرض وعلى وجه المرجوحية ، وقيل إن الحسن فيها لفظى لأن منشأه اللفظ . . . وكما فى العكس فى قولهم : عادات السادات سادات العادات ، فإن فى اللفظ شبه الجناس اللفظى ، لاختلاف المعنى ، ففيه التحسين اللفظى ، والغرض الأصلى الإخبار بعكس الإضافة مع وجود الصحة .

واللفظى تحسين للفظ بالذات وإن يتبع ذلك تحسين المعنى لأنه كلما عبر عن معنى بلفظ حسن استحسن معناه تبعاً ، وإن شئت قلت فى التحسين المعنوى أيضا إن كونه بالذات معناه أن ذلك هو المقصود ، ويتبعه تحسين اللفظ دائما ، لأنه كلما أفيد باللفظ معنى حسن تبعه حسن اللفظ الدال عليه[1]

(١) مواهب الفتاح — شروح التلخيص ج ٤ ص ٢٨٥

وإمام البلاغة عبد القاهر يرى أنك لاتجد تجنيساً مقبولا ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه وحتى تجده تجنيساً مقبولا لاتبتغى به بدلا ولاتجد عنه حولا (١) .

فتح أبو هلال باب الصناعة على مصراعيه ، وزها بالمحسنات الستة التى وفق إليها ، ثم بهذا المحسن « المشتق » الذى اهتدى إليه بعدها ، فكان هدف الذين أتوا بعده أن يدركوا من الفخر وأسباب الزهو ما أدرك ، فجدّوا ما وسعهم الجد ، وبذلوا فى هذه السبيل أقصى ما يبذل من جهد ، حتى اهتدوا إلى هذه المحسنات التى لا يكاد يدركها الحصر .

ولقد وقفت حركة النقد عند هذه الحدود ، فمات الغراس الذى غرسه رجال النقد الذوقى الذين بدءوا نشاطاً هو أقرب إلى طبيعة الفن الأدبى ، فدرسوا نصوص الأدب وبذلوا جهداً فى الموازنة والمفاضلة ، والوساطة بين الخصوم والأنصار ، ونقد ماذهب إليه كلا الفريقين من الغلو والتعنت فى الاستحسان أو الاستهجان ، وكان ذلك الأسلوب أجدى فى نظرنا ، أولا لأنه الأسلوب الفطرى الذى يحتكم إلى الذوق أول ما يحتكم ، وهو أقرب إلى طبيعة هذا الفن الأدبى ، وثانياً أنه لا يشلّ حركة النقد ، إذ أن أحكامه متجددة بتجدد الأيام ، وما يستحدث فى البيئات من حضارة مادية أو معنوية ، ولكل واحدة منهما أثرها فى الأدب والأدباء والنقد والنقاد . فإن الذوق متجدد بتجدد هذه الأمور ، ولعل هذا هو السر فى تحجر البلاغة منذ أصبحت قواعد تُتَعلم ، وأصولا تلقن ، وخلافاً كلامياً وعقلياً فى فهم الكلمات وصحة التقاسيم ، ولله در ابن قتيبة حين يقول : ولو أن هذا المعجب بنفسه الزارى على الإسلام برأيه نظر من جهة النظر لأحياه الله بنور الهدى

---

(١) أسرار البلاغة ٧ .

وثلج اليقين ، ولكنه طال عليه أن ينظر فى علم الكتاب وفى أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ، وفى علوم العرب ولغاتها وآدابها ، فنصب لذلك وعاداه . . . والكلام أربعة أمر وخبر واستخبار ورغبة ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب ، وهى الأمر والاستخبار والرغبة ، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر ، والخبر ينقسم إلى تسعة آلاف وكذا كذا مائة من الوجوه . فإذا أراد المتكلم أن يستعمل بعض تلك الوجوه فى كلامه كانت وبالا على لغته ، وقيداً للسانه ، وعياً فى المحافل ، وغفلة عند المتناظرين[1] .

كان لهذه الروح التى أملت على البلاغيين ما فعلوا أسوأ الأثر فى إنتاج الأدب فطغت الصناعة على الأدب طغياناً ظاهراً ، خفيت معه المعانى حتى أصبح الأدب صدى لا أصل له ، وجسداً لا روح فيه ، وظل هذا قروناً طوالا ، وظل الأدباء أسرى لهذه القيود التى فرضها النقاد الذين أصبحوا لا يستجيدون الكلام إلا بما حوى من ضروب التحسين البديعى . وقد تجد فى كلام المتأخرين الآن كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم فى البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ويقول ليبين ، ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع فى بيت فلا ضير أن يقع ما عناه عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه فى خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده ، كمن ثقل العروس بأصناف الحلى ، حتى يناله من ذلك مكروه فى نفسها[2]. لقد أصبح الأدب بهذه الفنون صناعة أقرب إلى اللهو منها إلى تعبير عن عواطف وإعراب عن مشاعر وأحاسيس ، ففسدت أذواق الأدباء بفساد أذواق النقاد ، والبلاغيون هم الذين جنوا على الأدب هذه الجناية بالمقاييس التى ابتدعوها ، والقواعد التى رسموها ، وكبلوا الأدباء بأغلالها .

---

(١) أدب الكاتب ٣ — ٤ (٢) أسرار البلاغة ٧

ولنا أن نضيف إلى جناية هؤلاء النقاد من رجال البديع وعشاق التصنيع على الأدب والأدباء ، جناية التاريخ على هذه الأمة العربية وعلى عقليتها ، فإن تلك الأحداث السياسية التى اعتورت هذه البقاع فهزتها هزاً عنيفاً ، تزلزل معه هذا الكيان الراسخ ، وتفرق بدداً ، وهؤلاء الحكام أولى البطش والجبروت ، وهذه الآفات التى أودت بالأجساد وفتكت بالعقول ، كل أولئك كان له أبعد الأثر فى حياة هذه الأمة ، ونشأ عنه الانهيار العقلى ، حين نضبت موارد الفكر ، وحجبت أضواء المعرفة ، وحيل بينها وبين الوصول إلى قرارة القلوب ، ومنبع التفكير ، فعطلت الملكات وفسدت الأذواق لما غلب على الأجساد الإعياء ، وحرمت العقول الغذاء . فلم يكن بد من هذا التردى فى التماس الحلى والأصباغ علها تخفى الحقيقة الشوهاء ، وهكذا صار الأدب طلاء على غير بناء ، ولا يزال كذلك حتى تدب الحياة فى الأوصال من جديد ، وتبعث الأمة من مرقدها ، وتنفض عنها غبار السنين ، وتستعيد مجدها السالف وعزها الموروث فى قوة وحياة .